وطوى الكتاب



وطوى الكتاب

الكتاب: **وطوى الكتاب**
المؤلف: نيروز مالك
رواية

الناشر:
جدار للثقافة والنشر | مالمو، الإسكندرية
publish@jidar.net | www.jidar.net

الطبعة الأولى 2026
الترقيم الدولي:**978-1-291-58255-0**
التصميم الداخلي والغلاف: جدار للحلول المستدامة

Folding the Book
Author: Niroz Malek
Novel
Publisher: Jidar for Culture & Publishing
.Interior and Cover Design: Jidar for Sustainable Solutions

ISBN: **978-1-291-58255-0**

نيروزمالك

وطوى الكتاب

رواية

المحتوى

الرحلة الأولى

صلاة متأخرة [1]

لم تكن تلك الليلة، من ليالي شهر آب، حارة إلّا أن الشعور بالحر هو الذي دفعه إلى القيام والتوجّه إلى الحمّام، لكي يغسل وجهه وعنقه، وأن يبلل شعره بالماء.

لا يعرف حسن لماذا شعر في لحظة قيامه عن الكرسي، أن خطواته التالية التي ستصله إلى الحمّام، ستكون ثقيلة، لذا آثر أن يخلع خفيه، وأن يسير حافياً على بلاط غرفته الذي كان على شيء من حرارة الصيف، وهو في عزّ درجات الحرارة المرتفعة.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة.. عرف الوقت عندما مر بالقرب من الساعة الموضوعة على الرف الأسفل من رفوف المكتبة. نعم.. كانت الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق لا أكثر. عبر إطار الباب إلى الممر الذي كان دائماً أقل حرارة من داخل غرفته. كان في كثير من الأحيان يخرج من غرفته ويجلس في الممر، ليخفف من شعوره بالحرارة عن نفسه، أو كان في بعض الأحيان يقف قليلاً، وهو يستعيد أنفاسه التي خنقها حر آب "اللّهاب" كما يصفونه..

طالعته، أمامه، على الحائط، تلك اللوحة المشغولة، كانت زوجته هي التي اشتغلتها من الخيوط الملونة.. لوحة مؤلفة من مربعات حمراء، وخطوط بيضاء على نحو متواز، وبتكرار ممل.. كان من عاداته، كلّما طالعته اللّوحة، أن يتذكر وجه زوجته المنكبِّ على إطار الشغل، تنسج اللّوحة خيطاً خيطاً. كان يضحك، ويقول لها: يا لصبرك وأنت تتابع إنجاز هذه اللّوحة. كانت تكتفي بالضحك دون أن تعلق بأيِّ كلام.

الليلة، كعادته، تأمل اللّوحة، حتى إنه أمال رأسه باتجاهها، عندما عبرها إلى الممر الموازي، حيث باب غرفة المعيشة، وباب غرفة النوم. وقف أمام باب الحمّام، وقبل أن يعبره إلى المطبخ، حيث أراد أن يشرب بعضاً من الماء البارد؛ ليطفئ به حرارة جوفه، قبل دخوله الحمّام.. نعم. رغب في شرب كوب أو أكثر من الماء المثلج. توقف قبل أن يتابع إلى المطبخ، كان باب غرفة النوم موارباً، بالكاد كان مفتوحاً على مستقيم طولانيّ تركته عتمة الغرفة حيث زوجته النائمة.

قبل أن يتابع سيره إلى المطبخ، مدّ يده إلى باب غرفة النوم الموارب، ودفعه إلى الخلف ليفتحه على مصراعيه، وهو يتساءل، أبهذه الحرارة يغلق المرء الباب على نفسه؟

دفع الباب إلى آخره..

كانت الغرفة معتمة إلى حدّ ما، إلّا أن ضوء الممر كان قد ألقى شيئاً منه على داخل الغرفة..

وقف مضطرباً، بعد أن شعر بشيء ما في نفسه، تحرك واصطدم بكامل أعضاء جسده الداخلية، أحسّ بمعدته وأمعائه ورئتيه، شعر بكل هذه الأعضاء الداخلية تهتز بقوة، ما يلبث أن اجتاحتها قوة عاصفة لتصطدم بعضها ببعض مصدرة قرقعة، على الرغم من أنها كانت قوية، إلّا أنها كانت قرقعة خامدة، شيء ما منعها أن تصدر صوتاً صاخباً، مجهولاً، لم يعرف من أين أتى، أو انبثق، أو حطّ عليه"من علٍ" كما قال "امرؤ القيس" ذات يوم!

كل الذي رآه كان عادياً، لو رآه في ظروف غير هذه الظروف، لكان الأمر أكثر من عادي، ولكن الذي رآه لم يكن عادياً، والمشهد الذي رآه لم يكن عادياً..

كان المشهد فاقعاً، لا يمكن له أن يصدقه! لا يمكن له أن يستوعبه! لا يمكن له أن يستعيده، يستعيد مشهداً لم يكن يفكر في يوم من الأيام، ولم يخطر بباله، أو لا يمكن أن يخطر بباله مهما بالغ في التفكير، في المشهد الذي رآه..

كان المشهد قد أدار خياله، أداره عدّة مرات، إلّا أنه لم يقدر على تخيّله، على الرغم من أن المشهد كان بسيطاً. كان قد رآه في غير بيته مئات المرات، مشهد رجل يصلي، أو امرأة كذلك تصلي.. إلّا أن تكون هذه المرأة زوجته، هي التي تصلي، فلم يستوعب الأمر. فهذا المشهد الذي كان بالنسبة له أشبه بخرافة، لا يمكن للعقل والمنطق أن يستوعباه على أنه ليس واقعاً، إنما خرافة كتلك الخرافات التي ضحك منها كثيراً سنوات طويلة..

إلّا أنه لم يقدر على فعل شيء، أو النطق بكلمة، أو رسم دهشة على الوجه لِما شاهده على نحو مفاجئ، غير متوقع.. فما كان منه سوى أن تراجع إلى الوراء خطوة وراء خطوة حتى اختفى ذاك الكيان الذي كان يرتدي ملاءة بيضاء، وتحتها جبة فضفاضة بيضاء أيضاً. لقد بدا الكيان كطيف من تلك الأطياف التي كان يشاهدها مع أطفاله في أفلام الكرتون الخاصة بهم.

ظل يتراجع إلى الوراء حتى اختفى ذاك الكيان وهو في حالة سجود، تراجع ببطء بعد أن تجمّد عقله عن العمل، أو بصورة أدق عن التفكير، تراجع حتى وصل إلى باب غرفته، ومنه دخل إلى عالم لم يحسب له حساباً في يوم من الأيام..

على الرغم من مرور أكثر من عشر سنوات، إلّا أنه لم ينسَ ذاك الطريق الحصوي الضيق الذي كان يتسلل كأفعى بين عشب المساحة الواسعة التي كانت تغطي الطريق المفضي إلى كلية الآداب. ذاك الدرب الضيق الذي سار عليه كثيراً، حيناً بمفرده، وحيناً مع زملاء الدراسة الجامعية، وفي بعض الأحيان سار برفقة أكثر من فتاة عليه..

ابتسم، وهو يغمض عينيه، ويستعيد صورة الفتاة التي مال قلبه إليها أكثر من الأخريات، على الرغم من أنها لم تكن أجمل منهن. لماذا؟ لا يعرف، ولم يفكر في هذا الأمر أبداً في يوم من الأيام. كانت طيبة، صادقة، لا تعرف أساليب الفتيات اللواتي يحاولن جذب انتباه شاب ما، ثم تدير ظهرها له لكي يلاحقها حتى يشعر بالحزن والقهر لعدم إعطائه الاهتمام الكافي، ليتابع معها قصة حب لم تولد بعد، قصة يحلم بأن تولد، قصة حب عظيمة. هكذا كان يتخيل الأمر.. ولكن سنوات الجامعة انتهت، وتخرج، وتعيّن في إحدى الثانويات أول الأمر، وقبل أن تختفي تلك الفتاة من حياته بصورة محزنة، لم يرد فيما بعد أن يتذكرها، بعد أن لام نفسه كثيراً على أنتهاء قصة الحب بينهما. شعر فيما بعد بكثيرمن الحزن والندم، ولكن ماذا يفيد الندم أمام قوة باطشة كانت سبباً في دمار العالم الجميل الذي بنياه معاً قبل التخرج من الجامعة بسنتين اثنتين..

فتح عينيه، وهو يمسك بأنامل من يحب بعد أن دعته إلى شرب فنجان من القهوة في كافيتيريا الطلبة في كلية الهندسة بالجامعة. كانت تضحك وتثرثر، وهذه إحدى عاداتها التي كان يحب أن يجدها فيها.. وكان أحياناً يستهجنها، إلّا أنه لم يستطع أن يقنعها بالكف عن هذا الحديث الأثير لديها، وهي قصص أفراد عائلتها الذكور. وكيف كان لكل واحد منهم حكاية في المنفى، والسجن، والاختفاء عن عيون رجال المخابرات الذين كانوا لا يكلّون ولا يملّون في البحث عن كل إنسان آمن في يوم من الأيام بالحرية، وضرورة العدالة الاجتماعية، والعمل السياسي.. لذا كان في كثير من الأحيان يشرد عنها، وهي تسرد عليه تلك القصص، فكان يضحك لبعضها، لأنها كانت مضحكة، وفي أحيان أخرى كان يستمع إليها بشغف..

يذكر أنه، في ذات يوم، وجد صعوبة جمة في إيجاد مكان- بيت لصديق ما من أجل أن يختليا معاً، ويختلي جسد كل واحد بجسد الآخر.. بينما هي تضحك، مستمرة في سرد قصة لأحد أعمامها الذي كان يختفي طوال النهار في بئر جفت مياهه، يقع بالقرب من باب الدار- الحوش، كانت لا تثير الانتباه؛ لأنها مليئة بالتراب، وأشياء لا قيمة لها، كانت تبدو بئراً مهجورة، لا يمكن لإنسان أن يختبئ فيها، لأن لا طريق إلى ذلك فالبئر مغلقة..

كانت تضحك، وتتابع: لم يخطر ببال أحد من الذين كانوا يكبسون البيت في صورة فجائية، في الليل أو النهار، وهم يمرون بالبئر، أن يكون له مدخلاً ما بين باب الدار- الحوش، وخلف البئر حيث كان الباب الصغير المعجزة لا يُرى حتى لو حاولت النظر والبحث عنه، لأنه كان بالكاد أن يُرى، وأن تمت رؤيته فلا يمكن له أن يفكر بأنه مدخل إلى البئر، إنما هو مجرد مكان حجر أنتزعه الزمن من جدار البئر.

كان عمي يتسلل عبر الفتحة الضيقة بطريقة درّب نفسه عليها، وكأنما إن يصله من بعض العيون في الحارة خبر "الكبسة" حتى يختفي فيها..

عندما وصلت في سردها إلى هذا عن عمها، كان هو يدير نظره فيما حوله، في جو الكافيتيريا التي وجدها غريبة! لماذا؟ لم يعرف. هي كافتيريا مثلها مثل كل الكافييتريات في الجامعات.. طلاب وطالبات يتوزعون حول طاولات معدنية عليها مفارش من المشمع الملون، بعضها برسوم مربعة، أو خيوط، أو بعض الزهور الحمراء والزرقاء.. إلّا أن سقف الكافيتيريا ذكّره بسقف مطعم الضباط في قرية "مسعدة" التي قضى فيها خدمته الإلزامية في الجيش. سقف قاتم اللون يميل من طرفه اليمين إلى اليسار في ميلان واضح، يدفع المرء إلى السؤال عن سبب هذا الميلان غير المبرر..

عاد ينظر إلى وجهها، وهي ما زالت تحدثه عن أحداث وقعت في سنة ميلادها، يوم كانت في الصف السادس الابتدائي. كانت الجدة بعد أن أصبحت في ضيافة الابن البكر لها، لا تجد من تتسلى معه سواها، فكانت لا تترك وقتاً، إن كان في النهار أو الليل، إلا أن استغلته لتحدثها عن ماض لم يكن بعيداً، عن اولادها، وبعضاً من أقربائها، فتسرد حكاية السنوات التي تم فيها ملاحقتهم من دون أن تعرف سبب ذلك.

كانت تضحك، وهي تقول: ذات يوم حدثني عن أمر غريب، طبعاً كان عمي هو الذي حدثني عن هذا الأمر بعد أن خرج من السجن، كان يتحدث عن الأمر وهو يضحك، بل يكاد أن "يطق" من الضحك. ما زال صوت ضحكته يرن في أذنيّ، كأنه الآن يحدثني. كان يقول لأصحابه، وأنا أعدّ لهم الشاي، عندما كنا ننقطع عن معرفة ما كان يجري خارج السجن، ولا نعرف ماذا يحدث، كنا نصبح كالتائهين في الصحراء، أو في أزقة التفافية في مدينة مهجورة.. كان لا بد لنا من معرفة ما يجري خارج السجن. وما هي الأخبار الجديدة؟ وهل خرج بعض الرفاق من السجن وعادوا إلى أهاليهم؟

ذات يوم لا أعرف كيف حصل محمود أورفلي على كمية من البذر المصري الصغير، ولِما عُرف عني، عندما كنت خارج السجن، بأنني أحد أكبر "مفصصي" البذر بحيث كنت أضع كمية منه في فمي، مقدار

قبضة كف، أفصفصها في جانب من فمي، وأقذف بالقشر من الجانب الثاني، تذكرت، عندما كنت أنتهي من كمية البذر، كان لساني يصبح سخيناً من كمية الملح التي ابتلعتها، ويصبح مشققاً بشقوق كبيرة، ومن لا يعرف الأسباب يظن أن في لساني مرضاً.

ضحك، وتابع: قلت لمحمود سائلاً، أتريدون أن تعرفوا ماذا في الخارج؟ التفتوا إليّ، وكنا خمسة في غرفة واحدة، وقالوا: طبعاً.. ولكن كيف؟ ضحكت وقلت: أعطني البذر الذي لديك.

نظر محمود إليّ باستغراب كأنه يتساءل، ما علاقة البذر بأخبار الرفاق خارج السجن؟ سألني بلسان ثقيل: لماذا؟

قلت له: لا تسألني. أعطني الكيس..

سحب الكيس من تحت وسادته، ومدّه إليّ بحركة بطيئة مترددة. أخذت الكيس منه، وعاينت كمية البذر فيه، رأيتها كمية كافية لأن تنقل لساني من حالته الطبيعية إلى حالة مرضية مرعبة. قلت: كمية لا بأس بها. ثم قلت لهم: لا أحد يسألني ماذا سأفعل؟ عندما أنتهي سأقول لكم السبب.

ضحكت بعد أن وضعت نصف الكمية في فمي، وأشغلت مكنة الفصفصة. كانت قشور البذر تتطاير من جانب فمي. راحوا ينظرون إليّ، بعضهم راح يضحك، وبعضهم أصابته الدهشة من السرعة التي كنت أفصفص فيها البذر، وأقذف بقشوره خارج فمي.. ولم تمضِ عشر دقائق حتى كنت قد قضيت على البذر بكامله.

كان محمود حزيناً لفقدانه البذر من دون أن يعرف السبب الذي دعاه لإعطائي إياه؟

كان لساني قد أصبح رطلاً في فمي، وتضخم مع أثلام من الشقوق تشبه أثلام الفلاحة في الأرض، فمددته إلى الخارج أريهم إياه.. شعرت برعبهم عندما رأوا لساني، فقال عبد الفتاح: يا إلهي! ماذا حدث للسانك؟

ضحكت لهم، وقلت: لا تخافوا. إنه فعل الملح الذي كان عالقاً بالبذر. ثم تابعت، سأخرج إلى المشفى، وفيه لا بد من أن أرى بعضهم يمكن أن يمدني بأخبار الرفاق خارج السجن..

ضحكت، وهكذا كان عمي يفعل كلما انقطعت الأخبار عنهم، ليعود من المشفى بعد المعالجة بيومين أو ثلاثة، محملاً بأخبار الذين كانوا يناضلون خارج السجن..

كانت حكايات أسرتها زاداً لها. دائماً تحدثه عنهم.. وكان هو دائماً يستمع إليها، فكان أحياناً، وهي تحدثه، يتذكر بعضاً من حكاياته. مثلاً: في الطريق إلى شعبة التجنيد، قضى الطريق كله وهو يحدق في الأشياء التي تتطاير إلى الوراء.. أشجار، بيوت طينية، حقول، أراضٍ بور، هضبة هنا وأخرى هناك، وأحياناً كان يرى في البعيد بعض التلال الرمادية وهي تمتزج في السماء الزرقاء الباهتة، ويذكر اليوم كم كان يندهش عندما يمر ببعض الحيوانات، خاصة قطيع الأبقار السائر على طرف الطريق الأسفلتي الذي يقطعه بسيارة قديمة تحمل علاوة عليه، ثلاثة وعشرين راكباً. كان الجميع متجهاً إلى مدينة عفرين، كل حسب أشغاله وأعماله. إلا هو، كان من هناك سيرحل ضمن "بوسطات" إلى إحدى القطع العسكرية الخاصة بالجيش، من قرعة أواخر الصيف.

كان أمران ينتهبانه، قصة حب انتهت، وذكريات زياراته إلى القرية، إلى بيت جدّه. يذكر، في العاشرة صباحاً، وهو في طريقه إلى القرية لبيت جدّه، وكان الوقت صيفاً، توقفت البوسطة أمامه، وراح السائق، بعد أن فتح الباب له، ينظر إليه، ما لبث أن سأله: وحدك؟

أجابه: نعم.

أليس لك والدان؟ سأله السائق.

أجابه: نعم.. إنهما حيّان والحمد لله..

قل، كيف يسمحان لك بالسفر؟

أجابه: ليست المرة الأولى التي أسافر فيها وحدي.

جلس حسن قريباً من السائق، على الكرسي الثاني، القريب من الباب. كان المسافرون قلة، لا يتعدى عددهم خمسة عشر راكباً، من أصل اثنين وثلاثين، وهو عدد المسافرين الذين لا يمكن للبوسطة أن تحمله. التفت فيما حوله، وهو يتذكر أن الازدحام، عادة يكون يوم "البازار"، أما في بقية الأيام فتكون نصف ممتلئة.

كان يشعر بشيء من الغربة ما إن يخرج من حلب.. بدءاً من حدود حديقة" السبيل". كان سورها الشمالي هو آخر ما يصلها بالمدينة، ثم تتناثر الأبنية على طرفيّ الطريق، بعد ذلك تأتي معامل النسيج، وما إن تتخطاها حتى تمتد برية على مدّ البصر.

كان ينفصل عما يجري حوله، إلى أن يصل إلى حدود مدينة إعزاز التي كانت في تلك الأيام قرية لا غير. بعدها بقليل كان كل شيء يتغير بالنسبة له، طبيعة، هواء، مشاهد الحقول، تين، وزيتون، وعنب، وبعض الأشجار من البلوط. كان يغمض عينيه وهو يبتسم لنفسه،

ويعبّ من الهواء المنعش عباً، إلى أن يصل إلى حدود قريته التي لم يولد فيها، إنما هي مسقط رأس والديه، أما اولادهما من ذكور وإناث فقد ولدوا في حلب.

كان يقف على الطريق الأسفلتي، ينظر إلى البوسطة التي تركته وراءها، ذاهبة إلى مدينة عفرين، ما يلبث، بعد أن تبتعد عنه، ينظر أمامه إلى القرية الهاجعة في سفح سلسلة جبلية هي أقرب إلى التلال منها إلى الجبال. فيقوده الدرب الترابي في نزول إلى حين وصوله إلى النهر.. ففي الصيف يكون شبه جاف، لا يجري فيه سوى مسرب ضيق من الماء، أما في الشتاء فتكون مياهه متدفقة حدّ الصخب. كان يعاني الأمرين من يريد أن يعبره إلى طرفه الثاني. كان النهر بلا جسر، مجرد حجارة ضخمة مركونة في وسط النهر.. فعلى المرء أن يقطه، وهو يسير من فوق تلك الحجارة، ثم، بعد أن يقطع النهر، يبدأ طريقه إلى القرية في صعود إلى أن يصل مشارفها فتستوي الأرض، وتبدأ الأزقة المتعرجة ما بين بيوت القرية. كان يظل فرحاً، وهو يتابع طريقه بين البيوت. كان بيت جده على أطراف القرية الجنوبية.

يدخل إلى أول زقاق، ثم يعرج منه إلى الثاني حيث يقع بيت جده. كان كثيراً ما يشاهد خاله الكبير أول ما يشاهد، وأحياناً جدته كانت أول من تلقاه في حضنها. أما جده فكان آخر من يراه، وما إن يقف حتى ينظر

إليه، ويضحك ويهزّ له رأسه مشيراً له أن يقترب، كان يفعل ذلك، ولكن ما إن يصل إليه حتى يهرب منه إلى جدته، وهو يصرخ لتنقذه من جدّه.

كان جده يضحك، وهو يهزّ رأسه. فيضحك بدوره، ويتقدم منه بشيء من التردد. ويدفع بساعديه إلى الوراء، يخفيهما خلف ظهره، وهو يسأله: أخبرني، كيف هو؟ هل كبر؟ أم ما زال صغيراً كما كان في زيارتك السابقة؟

يضحك، ويقول له: لا أعرف.. ثم يكمل، ولكن أعتقد بأنه أصبح أكبر من المرة السابقة. يضمه جدّه إلى صدره وهو يقبّل رأسه. صورة قديمة جداً، كان كلما يذهب إلى القرية يتذكرها..

هذا السفر الذي كان في الماضي، تكرر عندما أصبح شاباً، وخلال ذلك لم يحدث فيه شيئاً مميزاً، إن كان جيداً أوسيئاً، إلّا أنه ذات يوم، كان قد اضطر للعودة إلى القرية، وإلى الأقرباء والجيران الذين عرفوا والده يوم كان شاباً يعيش في القرية، كان الجميع يصعدون وراء "التراكتور" السائر ببطء وصعوبة باتجاه المقبرة حيث الأقرباء المدفونون فيها قبل موت والده.

كان والده يعرف مدى حبه للقرية، خاصة زيارة بيت جدّه، لذا كان يكلفه بكل المعاملات الرسمية التي يحتاجها في بعض الأحيان، لأمور

تتعلق بعمله في حلب. كان يقول له: اذهب إلى عفرين، إلى محمد أفندي في السراي، بلّغه تحياتي، ثم اشرح له ما تريد، هو سيقوم بكل ما يتطلبه الأمر. وهذا ما كان يتم بالفعل، بينما محمد أفندي، الموظف في السرايا، يسلمه الوثائق، ويقول له: إياك أن تضيعها. سلّم على والدك وأخبره أن يزورنا. لقد اشتقنا له.

يذكر، وهو يصعد وراء "التراكتور" الذي يحمل جثمان والده، كانت والدته تتكئ عليه وهي تصعد معه، وقبل الوصول إلى المزار الوحيد في طريقهم، قالت له بصوت حزين: ذات يوم يا بني، ستصعد مثلما تصعد الآن، ولكن وراء جثماني..

وقف بعد أن التفت إليها بشيء من الاحتجاج، ثم تابع طريقه من غير أن ينبس بكلمة. تابعت: إنها سنة الحياة يا بني.

أدار حسن نظره فيما حوله، كان كل شيء على حاله، طاولات وحولها طلاب وطالبات يضحكوا، ويشربوا الشاي والقهوة، حتى إن بعضهم، من الطلاب، كانوا يأكلون صندويشات، كانت في غالبها صندويشات جبنة، لأنها الوحيدة التي يمكن للمرء أن يشرب معها كوباً من الشاي، ثم التفت إليها. كانت ممعنة في صمتها، وجدها كأنها في حيرة، لا تعرف أكان هو معها؟ أم ليس كذلك، لأنها رأته في معظم الوقت شارداً عنها،

يعيش في نفسه، منفصلاً.. وقبل أن تسأله عن أسباب ذلك، قال لها: ما رأيك في أن نخرج.. لا أدري، أضاف، هذا السقف يشعرني بضيق في التنفس. وابتسم. ابتسمت هي أيضاً كجبران خاطر كما يقولون.

قالت: هيا، فأنت لم تكن معي. لقد شعرت بأن هناك ما يشغلك عني. هيا لنخرج.

خرجا من الكافيتريا، وهو يقول: أنا آسف، لا أدري ماذا حلّ بي؟ ضحك باقتضاب: منذ أن رأيت ذاك السقف المائل راح الضيق يغزو صدري. ضحك من جديد، وتابع: أليس هذا غريباً؟ أعتقد بأنه غريب! هكذا أراه أنا.

قالت: أعتقد أن هناك شيئاُ آخر، قد يكون خفياً يدفعك إلى هذا الشعور، وليس السقف المائل، ما هو؟ لا أعرف، أرجو ألا أكون أنا..

تسمّر في مكانه كأنه صُفع، ثم قال: لا، أبداً. بالعكس. إنني استمتعت بسرد قصص أفراد عائلتك.. يمكنك أن تحكي لي حكاية أخرى. لكن ليس قبل أن تقترحي مكاناً معيناً نذهب إليه؟

قالت: أحقاً إنك استمتعت بما سردته عليك؟

أجاب: نعم.. ولديّ الاستعداد للاستماع إلى المزيد منها.

قالت: أتدري، لدي رغبة كبيرة في الذهاب إلى الحديقة. هناك نختار كرسياً بين الأشجار، لأتم لك قصة عمي الذي يلي أبي في العمر. بينهما سنتان فقط.. أبي أكبر من عمي بسنتين.

ابتسم، وقال: هيا، هناك حديقة في حي الأندلس، كنت فيما مضى، كلما أمر بها، أتمنى لو أتاحت لي الأيام أن أكرر الجلوس فيها؛ لأنني أحببتها عندما جلست فيها لأول مرة.. هي صغيرة، أكبر قليلاُ من حدائق تلك المنازل الواسعة، وهي كثيرة الأشجار والمقاعد منها الخشبية، والحجرية، أما تلك المقاعد الحديدية، فاستغربت من وجودها: من سيجلس عليها؟ ففي الصيف ستكون حرارتها مرتفعة، أما في الشتاء فستكون على عكس الصيف باردة جداً، لا يمكن أن يغامر أحد بالجلوس عليها.

ضحك، وتابع: دائماً تساءلت، لأي غاية وضعوها في تلك الحديقة الصغيرة؟ كنت أقول لنفسي، ما إن أعاود زيارتها حتى أسأل أحد حراسها عن الكراسي الحديدية هذه، فلا شك لديهم كل المعلومات عن الأمر.

أمسك بأصابعها، وانحدرا إلى حديقة الأندلس، وهي تقول له: كان عمي هذا أكثر وعياً وجدية في تعامله مع الناس والحياة، على الرغم من

أن حياته اليومية كانت، كما أخبرتني جدتي، أكثر بساطة، وتقبل الجانب الصعب في حياته المعيشية. لم أره في يوم من الأيام حزيناً، أو متأففاً، أو لا مبالياً بما يحيط به.

عندما بدأت الحملة ضد اليساريين في أواخر عقد الخمسينيات، كان يعرف أنه سيكون من بين المطلوبين لأجهزة المخابرات العامة، لهذا سافر إلى العاصمة بطرق ملتوية، خوفاً من أن يقبض عليه على طريق السفر. طبعاً كان هناك من ساعده في ذلك. كانت مغامرة غير محسوبة الجانب، كما قال عنها. أما مغامرته الأكثر جرأة فكانت سفره إلى بيروت ببطاقة مزورة.. هذا ما نصحوه به. بقي في بيروت إلى يوم سقوط النظام الناصري الذي ملأ سجونه بالمناضلين، لا لشيء، فقط لأن لهم رأياً آخر في قضايا طرحت على مستوى البلاد..

وقفت والتفتت إليه، وتابعت: سأدع حكاية عمي هذه، لأنني لا أملك كثيراً من تفاصيلها، على الرغم من أنه كان دائم الحديث عنها، إلا أنه كان حديثاً في السياسة أكثر منه في وقائع حياته اليومية في مدينة بيروت.. لأتم أمراً خاصاً بجدتي.

كانت جدتي امرأة أمية إلا أنها عرفت كيف تكون مفيدة لأولادها الذكور الذين عملوا ونشطوا في عالم لا تفقه منه شيئاً. كانت تقول:

أولادي أعرفهم. أنا التي ربيتهم، لا أحد يعرفهم أفضل مني، عندما كان بعضهم ينصحها بمنعهم عن الطريق الذي اختاروه. تتابع: لا يمكن أن يقوموا بعمل يؤذي الناس، هذا إن لم يكن لصالح الناس.

عندما غاب عمي عن عينيها، عرفت أن أياماً صعبة تنتظرها، عرفت أن رجال الأمن لن يدعوها تهنأ أبداً، لهذا راحت تبحث عن كل الكتب والمجلات والجرائد والوثائق التي كانت لعمي، إذ رأته يقرأ فيها بشكل دائم. عرفت أن بقاء هذه الوثائق في البيت قد تكون دليلاً على عمل ابنها ضد الدولة، لهذا راحت تحرق كل ما كان له صلة بابنها قد يؤخذ دليلاً عليه..

ظلت لمدة ثلاثة أيام تحرق ما وجدته لدى عمي، ثم طلبت من والدي أن يبحث هو بدوره عن كل ما يمكن له أن يكون على صلة بأخيه، إن كان هناك شيء يتعلق بنشاطه السياسي من غير الكتب والجرائد والوثائق الأخرى! ولم يمض سوى يومين على الانتهاء من حفلة الحرق هذه، حتى كانت أول "كبسة" من رجال المخابرات على البيت، لم يتركوه إلّا بعد أن قلبوا عاليه إلى أسفله، هذا إلى جانب سؤالهم الدائم: أين هو؟ أخبرينا وإلّا سنأخذك أيتها العجوز، ونلبسك بنطالاً من أجل أن نرفعك علقة لا يتحملها الكافر بذات نفسه.

كانت تقول لهم جملة وحيدة واحدة لا غير: لا أعرف. لم يخبرني.. توقفت "كبساتهم" على البيت بعد أكثر من ثلاثة أشهر، عرفوا أنه أصبح خارج البلاد. بعدها انطوت جدتي على نفسها، وذوت وذبلت يوماً بعد يوم، وفي أيامها الأخيرة، كانت تقول، متوجهة بكلامها إلى الله: خذ عمري بعد أن أراه. مدّ بأيامي إلى ذلك اليوم الذي سأراه فيه.

سكتت طويلاً قبل أن تتابع: توفيت قبل أن يعود عمي بشهر واحد بعد انهيار النظام الناصري الذي استمر أكثر من ثلاث سنوات..

وقفت ونظرت إليه، ثم تابعت: أتدري، حكايتها هذه، هي التي زرعت في نفسي، عندما كبرت، أن أكون ما أنا عليه اليوم، أن أناضل من أجل حرية المرأة، ومن أجل حياة أفضل للناس، وليس الكتب والكراريس والبرامج التي قرأتها. حرقة جدتي على ابنها، هي التي دفعتني إلى هذا الطريق الذي أنا عليه اليوم.

وقفا أمام باب حديقة الأندلس الصغيرة. تسمرت بالقرب منه، وهي تضحك، وتقول: لأول مرة أرى هذه الحديقة، بالرغم من أنني أحب الحدائق العامة، وكثيراً ما كنت أزورها مع الأصدقاء بمناسبة وبدون مناسبة، كما يقولون.

دخلا إلى الحديقة، وسارا على ممر حصوي يقع عن يمينها، حيث ينتهي بدغل من شجيرات تزينها بعض الورود التي لا رائحة لها، سألها: أي من المقاعد تفضلين الجلوس عليها، لقد أخبرتك بكل أنواعها الخشبية والحجرية والحديدية..

ضحكت، وهي ترفع رأسها إلى الأعلى، تنظر إلى السماء، كانت زرقاء ساطعة، وقالت: أعتقد بأن الجو الربيعي الذي يحيط بالحديقة يصلح لأن نختار أي نوع من أنواع الكراسي الثلاثة.. فجميعها يصلح للجلوس عليها.

إذاً، قال، لدي رغبة قوية في الجلوس على تلك المصنوعة من الحديد، فأنا قد جربت المقاعد الأخرى حجرية كانت أم خشبية إلا تلك الحديدية..

لا بأس. قالت.. واختارا مقعداً ذا لون أخضر أشبه بحشائش الربيع في أيامه الأولى، عشب فاقع الخضرة..

لا بأس به. قال، ليس سيئاً.. ثم تابع: والآن، هل ستتابعين أنت، أم أبدأ أنا؟

لم تجبه، إنما قالت: أما أبي.. ابتسم، وهو يدير نظره فيما حوله مستمعاً إلى ما راحت تقوله..

على الرغم من أن والديّ كانا أبناء عمومة إلّا أن التقاليد لها سطوتها، فما كان لأبي أن يرى ابنة عمه التي رسمت له خطيبة منذ أن كانا في العاشرة من العمر، لذلك عندما كبرا، وأصبحا شابين مؤهلين للزواج، ترك أبي البيت ورحل متطوعاً في الجيش الفرنسي، في فترة احتلالها لسوريا.. رحل غاضباً من عمه أولاً، ومن والده ثانياً، لأنهما قاما بتوبيخه، لأنه حاول أن يتسلل إلى خطيبته آخر الليل، كما كانا قد اتفقا للحديث عن شجونهما التي بدأا يعانيانها. اختفى والدي لمدة أربع سنوات قبل أن يعود إلى البيت، وخلال هذه السنوات حاول والد أمي أن يزوجها لأكثر من شاب كان قد تقدم لخطبتها، إلّا أن أمي رفضت، وقالت له بشيء من التحدي: بعد ابن عمي لا يمكن لرجل ما أن يدخل حياتي.

كانت والدتها تحاول أيضاً إلّا أن موقف ابنتها ظل ثابتاً. كانت جدتي تقول لها: لو كان يريدك لما اختفى، لقال لك أو لنا، إلى أين يريد الذهاب؟ ولماذا؟ كانت ترد: أنتم من دفعه إلى الرحيل، ولكنه سيعود، لقد رأيته أكثر من مرة في نومي، وهو يقول: لم يبقَ إلّا القليل على عودتي يا أمينة.. لقد خلقت كثيراً من المشاكل لوالديها وإخوتها وأخواتها

بإصرارها على الانتظار! حتى كان يوم صيفي عندما دق الباب.. وعندما فتحته جدتي، ورأت ابنها يقف أمامها، وقعت في العتبة مغشية عليها من أثر الصدمة.

ضحكت، كانت جدتي تضحك، عندما كانت تخبرنا، ما إن استيقظت مما أنا فيه، حتى وجدته يجلس إلى جانب رأسي، وهو يقول: أريده عرساً مطنطناً يا أماه.

وكان بالفعل عرسه مطنطناً كما شاع في الحارة.

حاول والدي منذ اليوم الأول أن ينفصل عن والديه، أن يبني لنفسه وأسرته بيتاً خاصاً به. كان يضحك ويقول: هذا ما رأيته لدى الفرنسيين. وجدي، والده، لم يقف منه موقفاً معارضاً على الرغم من الاستياء من موقفه هذا، فقد رأى جدي في موقف والدي خروجاً عن التقاليد العائلية وكان لا يريد أن يشاع بين أهالي الحارة هذا الأمر لأن فيه مساس بشخص الأب الذي عادة يكون رأس العائلة والاولاد والاحفاد فروعاً، وأن يتم هذا الأنفصال، أي خروج الابن من بيت الوالد لأسباب طبيعية، قرره الاب، وليس الابن، ولسنوات طويلة عمل وكدح من أجل اسرته، اولاده من الذكور والإناث.. وخلال تلك السنوات لم يهتم بأحداث خارجة عن حياة اسرته، على خلاف إخوته الآخرين الذين

اهتموا بشؤون البلاد، وعملوا في السياسة، ودخلوا السجون، وعرفوا المنافي، وعاشوا حياة الاختباء عن عيون رجال الأمن في مراحل عدة من حياة البلد السياسية، فقد كانوا لا يرون في الحياة، هكذا سمعتهم مراراً وتكراراً، ما يستحق فيها، وعيشها إن لم يعملوا من أجل الآخرين أيضاً. كانوا يقولون، حياة الناس قبل حياتنا..

كان والدي يضحك من مواقفهم هذه، إلّا أنه كان دائم الاحترام لهم ولقناعاتهم، وكان دائماً يساعد اسرهم عندما يضطرون إلى تركها بسبب الملاحقات التي كانت تتم بحقهم. هذا الموقف لوالدي هو الذي شجعنا، نحن أولاده علىأن نرى في أعمال أعمامنا قدوة لننشط في كل المجالات التي كانوا ينشطون فيها. كانوا قدوتنا، أما أبي فكان دائماً يغض النظر عن هذا النشاط الذي رحنا، نحن اولاده، نشارك به إخوته، أي أعمامنا. فأنا، ما إن انتقلت في دراستي إلى المرحلة الإعدادية، حتى بدأت أعمل في كل النشاطات النسائية التي كانت ترتبط بتنظيم المرأة في المنظمة التي انتسبت إليها.

كما توقعت توقفت عن كلامها، هنا.. لأنها باتت تعرف أن استمرارها في الحديث، لن يكون جديداً عليه، فهو أيضاً مارس مثل هذا النشاط وما زال، لذا كان عليها أن تتوقف عن أمر لم يعد يثير الكلام فيه شيئاً، لهذا ضحكت، وهي تلتفت إليه، وتقول له: أعتقد بأنك تقول في نفسك،

يا لها من ثرثارة، ومدعية، وتظن بأن ما قامت به هو نضال لم تقم به امرأة أخرى..

قاطعها، وهو يضحك ويقول: لا. لا.. لم يخطر مثل هذا في بالي، ولكن الأمر الذي أثار اهتمامي، قولك، إنك منذ المرحلة الابتدائية بدأت تمارسين نشاطات في مجال قضايا المرأة، ونضالها، ألم يكن ذلك باكراً عليك، وأنت الفتاة التي لم تتخطي الرابعة عشرة، في تلك السنة؟

هزت رأسها علامة، أبداً، ثم تابعت: بالعكس، تلك السنة كانت أسعد سنوات عمري إلى اليوم؛ لأنني فيها عرفت معنى أن يَلزم الإنسان نفسه في قضية عامة ويعمل من أجلها.. وبعد صمت، سألته بطريقة مازحة: وأنت أليست لديك قصص وحكايات؟

ابتسم وقال: لديّ كثير من القصص، لكنني لن أسردها عليك، ليست لديّ رغبة، ضحك، على الأقل الآن، ثم تابع بعد أن نظر أمامه إلى صف الأشجار من السرو الداكن الخضرة، أمامنا أيام وشهور وسنوات، لدينا كل الوقت لذلك..

والآن، التفت إليها، وهو يضحك، ماذا تقترحين أن نفعل؟ هل نسكت ونتأمل ما أمامنا من الأشجار، ونمد أنظارنا في ممرات الحديقة، أم نراقب الناس؟!

لم تقل شيئاً، إنما مدت يدها وأمسكت براحته، وأخذت تدعك له أصابعه، وهي تقول: أتدري، لديّ عادة سيئة، وهي دعك أصابع من أحبهم..

ابتسم ولم يعلق.

لا يدري حسن لماذا، عندما حدثها عن تلك الفتاة التي أحبها قبل سنوات، نسبها إلى صديقه، لا إلى نفسه، على الرغم من أنه عاشها بكل دقائقها، وعانى تفاصيلها زمناً طويلاً، حتى إنه لم يبرأ منها تماماً حتى اليوم. فقال لها: سأحدثك عن قصة حب عاشها صديق لي، أراها غريبة، أما عن قصصي فسوف أؤجلها إلى حين، طبعاً ليس بالضرورة أن أحدثك عن قصص حبي، على قلتها، إنما قصص عن جوانب متعددة من حياتي، ستكون خير وسيلة لتتعرفي إليّ.

ضحك، وتابع: وما قصة صديقي الغريبة هذه سوى واحدة منها..

لم أكن أتوقع منه في يوم من الأيام، أن يعشق فتاة من غير دينه، وهنا لا أريد أن أحدد دين الفتاة لحساسية الموضوع. كان صديقي على شيء من التعصب الديني، ولكن دون مغالاة في ذلك. قلت لم أكن أظن بأن صديقي قد يعشق فتاة من غير دينه، ولكنه عندما أخبرني بذلك

استغربت! كان ينظر إلى وجهي بإمعان، ما لبث أن قال: أعرف ماذا يدور في رأسك، إلّا أنني مقتنع تماماً بأمر هذا الحب..

سارعت إلى مقاطعته محاولاً نفي التهمة الخفية التي دارت في نفسه على ما يبدو. قلت: لست مستنكراً قصتك، ولكنني متسائل فقط، لأنني ما أعرفه عنك..

قاطعني: أعرف. ولكن الوضع مختلف الآن، لم تعد تهمني هذه الأمور بعد أن تعرفت على سهى.. اسمها سهى.

قلت له ممازحاً: على بركة الله، ما دامت الفتاة من أهل الكتاب..

وضحكنا..

تابع يروي قصة صديقه: عرفته منذ الصغر، كان ميالاً إلى العبادة، على الرغم من أن لا أحد من أفراد أسرته كان مثله. كانوا منفتحين على روح العصر والحداثة. غبت عنه سنوات قبل أن أعود وألتقي به من جديد في الجامعة. نظرت إليه.. لم يكن قد تغير كثيراً. كان أكثر نحافة مما كان عليه سابقاً، سألته عن ذلك. ضحك وقال: إنه العشق..

ضحكت لكلامه، وقلت له: العشق لا يجعل العاشق نحيلاً، إلّا إذا كان يعاني في عشقه.

استمر في ضحكه، وهو يقول: نعم. هذا هو السبب..

لم أرد أن أسأله عن أسباب معاناته. قلت لنفسي، دع هذا الأمر ليوم آخر، وكان ذلك بعد أسبوع بالتمام. كنا في كافيتيريا الكلية في الجامعة نتحدث عن المستقبل بعد التخرج. طبعاً كان ما قلناه مجرد كلام لتزجية الوقت؛ لأن المستقبل في البلد لأمثالنا مرسوم، ومحدد.. أما إن هاجرت إلى بلد آخر فالأمر يختلف.

فجأة قاطع الجلسة، وهو يلتفت باتجاه باب الكافيتيريا، مما اضطرني بحركته الفجائية هذه إلى أن التفت بدوري إلى الباب. رأيت فتاة جميلة تنظر إلينا، ما لبثت أن ابتسمت وتوجهت إلى طاولة منعزلة إلى حد ما، تقع بجانب النافذة العريضة التي تطل على حديقة الكلية.

نظر إليّ، وقال: سأعتذر منك. لقد جاءت الحبيبة. واصطنع ضحكة استغربتها منه. ليس به حاجة إلى الضحك، إن كان غير راغب. فقام وتوجه إلى الفتاة. لم يثرني فيها شيء، على الرغم من بعض الملاحة في وجهها، وتلك القلادة التي كانت تتدلى من عنقها فوق صدرها. لم تكن قلادة تزينية إنما كانت قلادة دينية.

لا أدري لماذا شعرت بشيء من الارتباك، خاصة عندما جلس إلى الفتاة التي قال عنها: الحبيبة. وسبب ارتباكي ليس القلادة، إنما لموقف

صديقي من قضايا الدين، فهو بالرغم من كل تلك السنوات التي فرقتنا، لم أر فيه تغيراً في اليوم الذي التقيت فيه مجدداً، وعدنا إلى صداقتنا القديمة.. كان موقفه هو نفسه الذي كان قبل افتراقنا من الدين. قلت: لا بد أن أمراً ما دفعه إلى هذا الطريق الذي لم أكن أتصور أن يسلكه في يوم من الأيام.. ففي لقائنا الثاني، وكان أيضاً في الجامعة، لم أسأله عن ذلك، إنما شعر بموقفي، كأنني أطالبه بتفسير لقصة حبه هذه، فقال: لا تسألني. إنه الحب..

قلت له مجيباً: على بركة الله.

لم أحاول بعد ذلك أن أدخل في تفاصيل قصة حبه. فأنا في الأصل لم تكن قضايا الدين، في تلك الأيام تسبب لي مشكلة، فالدين في النهاية، أمر شخصي بحت. إلّا أن الزواج في هكذا وضع، تصورت سيكون صعباً عليهما.. وهذا ما كان.

على الرغم من أن صديقي كان على معرفة بهذا الأمر، وهذه المشكلة التي ستكون حادة، إلّا أنه لم يحسن التفكير بها بروح مسؤولة، لم يفكر في القضية سوى من جانبها العاطفي. وكان يعيش أول قصة حب له، لم يعرف، فيما سبق من حياته، قصة حركت مشاعره، أو لم يتعرف أبداً على فتاة حتى من زميلاته في الجامعة، أو غير الأماكن التي يمكن أن

تنشأ فيها مثل هذه الصداقات قبل أن تتحول إلى قصص إعجاب، ثم تتطور إلى حب.. أي أستطيع القول عنه، كان مادة خام، لو كانت الفتاة التي شاركته قصة الحب، صاحبة تجربة، لكانت صاغته بالطريقة التي تريد، إلّا أنها أيضاً كانت "مادة خاماً"، (لم تكن لديها تجارب) غير بعض لحظات كانت، لا تزال، خلالها صغيرة. كانت قد سمحت لابن جيرانها، في عمرها، أن يداعب صدرها من باب الفضول ليس إلّا، صدرها الذي كان بالكاد قد تبرعم، وظهر من تحت الثياب.

ذات يوم، التفت إليّ، وكنا معاً في البيت نحضّر لامتحان مادة في النحو، لأستاذ كان سيئاً، لا يتعامل مع طلاب المادة سوى كمجرمين يجب محاكمتهم، وإدانتهم، وإصدار الحكم عليهم.. إلّا أنه، شهادة لله، كان عبقرياً في مادته، كان جهبزاً، كما يقولون، في مثل هذا المقام. التفت إليّ، وقال: في كثير من الليالي، بعد أن يصيبني السهد، أقوم من الفراش لأجلس أمام النافذة.. وكانت تشرف على حقل من البرتقال ينتهي بضفة نهر خجول.. نعم، كان النهر خجولاً في تدفق مياهه. لم نكن نسمع له صوتاً. كان ينقل مياهه في مويجات حذرة كأنه يخاف من إيقاظ النائمين في بيوتهم التي يجري بالقرب منها.

قال: جلست أمام النافذة، وكانت معظم جلساتي في الليل، بعد أن يصيبني أرق فيبعد النوم عن عينيَّ.. فأجلس دون أن أنظر عبر زجاج

النافذة إلى الخارج، أحدق في اللون الكحلي الذي يخيم على حقل البرتقال والنهر الخجول، وأحياناً كنت أنظر إلى إطار النافذة، بعد أن أتصورها لوحة مرسومة بالألوان الزيتية حيناً، ومرة مشغولة بخيوط الكنفا، وأخرى بخيوط ملونة. أتخيل عبرها كثيراً من القصص والحكايات عن الحب طبعاً.. والغريب، لم أتخيل في يوم من الأيام قصة من القصص التي أعرفها، أو التي قرأتها، أو التي سمعت بها من هنا وهنالك..

كان يصمت قليلاً، ثم يتابع: إنما كنت أتخيل قصصاً جديدة لم يسمع بها أحد، كنت أنا مؤلفها، وكانت الفتاة في جميع القصص فتاتي سهى، والأمر الأغرب هو الشاب، لم أكن ذاك الشاب، إنما شاب آخر تماماً، شاب لا أعرفه، لم ألتقِ به في يوم من الأيام. كنت أحياناً أفرح للنهاية السعيدة لقصة حبهما، وأحياناً أحزن، ولكنني في أغلب الأحيان آخذ قصصهم إلى نهايات واقعية لا خيال فيها، أيّ يفترقان بسبب الظروف التي عادة تفرق العشاق بعضهم عن بعض في مجتمعنا القاسي، يفترقان بعد أن يوعد أحدهما الآخر بأنه لن ينسى صاحبه أبداً.

ثم تابع باستغراب: كل الظروف التي كنت أتصورها لن تكون كسبب افتراقنا أنا وسهى. لم أتخيل مرة واحدة، وأبداً أن ظرفاً مثل ظرفنا، أنا

وسهى، كوننا من دينين مختلفين يمكن أن يفرق الأمر بيننا، أو بين أي عاشقين.

وأنا جالس أمام النافذة هذه، وأشار بيده إلى النافذة، وكان هذا السبب بحد ذاته لا يمكن له أن يفرق بين العشاق لأن الله محبة.. هكذا كنت أتصور، طبعاً هذا التصور تخيلته بعد أن افترقنا أنا وسهى لهذا السبب بالذات الذي أهملته، سيكون من أكثر الأسباب حقيقية، حازماً، وقاطعاً في تفريق العشاق عن بعضهم بعضاً.

بعد ذلك فكرت في أمر لم أفكر فيه سابقاً. فكرت بأن الدين هو أكبر وأقوى سبب لقتل الحب، وتمزيق القلوب في صدور العشاق.

لم يخبرني، تابع حسن: في يوم من الأيام كيف انتهت قصة حبه، وأنا لم أسأله عن ذلك، سوى مرة واحدة، وكانت الأولى والأخيرة، فنظر إليّ بنظرة زائغة، وأجاب: بسبب اختلاف الدين..

قبل ذلك، عندما بحثا مصير علاقتهما، بعد التخرج، قالا معاً وأكدا: الزواج. مثل كل قصة حب نريد لها أن تنتهي النهاية المثالية في تحقيق الأحلام، كما يرغب فيها العشاق. قالاها ببساطة، وبقناعة، ودون تفكير بأمر اختلاف الدين، أو بالأحرى لم يفكرا في هذا الأمر، لم يفكرا كم

سيخلق لهما مشاكل لا تحل، وإن حلت فستترك وراءها آثار جراح عميقة، وهذا ما كان بالفعل.

عندما اصطدما بالأمر، لم يسألا عن الحل. صمتا تماماً عن البحث في الحلول، كأنهما مسبقاً عرفا أن لا حل لهذه المشكلة. على الرغم من هذا استمرا في علاقتهما صامتين، نادراً ما تكلما في الأمر. قال لي: لا أدري لماذا أخذتنا هذه الحالة كحل لنا؟ ماذا يمكننا أن نتكلم فيه، عن الحب، عن الأمل، عن الأحلام، عن أي شيء يمكن أن نتحدث فيه، كنا أشبه بميتين. ضحك ساخراً، ثم تابع، كيف يمكن لشخص على فراش الاحتضار أن يتحدث عن الحياة والأحلام والأماني. لذا بقينا أكثر من عشرة أشهر على هذه الحالة. كنا نلتقي، نتسكع، نجلس في الكافيتيريا.. كنت أشرب القهوة، أما هي فكانت تفضل الشاي. نضحك في بعض الأحيان، ثم يحدث كل منا الآخر عما فعله في يومه الماضي.

ظللنا على هذه الحالة حتى يوم تخرجنا. لقد تخرجنا معاً، في سنة واحدة، وكنا قد اعتمدنا موعداً نلتقي فيه لآخر مرة، ثم نفترق بعده إلى الأبد.. وهذا ما حدث بالضبط..

بعد صمت قال، وكأنه يتكلم عن شخص آخر، لا عن ذاته: منذ اليوم الأول شعرت بأنني أصبحت أنساناً غير الذي كنت عليه. شخصاً لا

مبالياً، لا يهمه ما سيجري له، أو لمسقبله، شعر بموت العلاقة التي كانت تربطه بأسرته، خاصة أمه. كنت أدخل إلى البيت غريباً وأخرج منه غريباً، وشعور ينتابني، قد لا أعود إليه، كنت أزداد غربة عن أفراد أسرتي يوماً بعد يوم.

ذات يوم جمعة، وأنا أستعد للخروج من البيت، وكان والدي قد لاحظ، في الآونة الأخيرة، لم تعد صلواتي منتظمة، كنت أقطعها في بعض الأحيان، وأنساها في أغلب الأحيان، أو أهملها.. لا عن قصد، إنما هكذا، كأنهاأمر لم يعد يهمني القيام به..

وكان أن طرحت سؤالاً على نفسي: أهذا هو الدين الذي يجلب للناس التوازن النفسي، والهدوء، والاستقرار؟! أهذا هو الدين الذي يعرف التسامح بأجل صوره، ثم أضفت بحدّة: ولكن لماذا لم يجلب لي سوى الألم والحرقة وفقدان الثقة؟!وكما قلت، قبيل صلاة الجمعة وأنا أستعد للخروج من البيت، عندما قال أبي: تمهل. سنخرج سوية إلى الجامع.. نظرت إليه باستغراب، وأنا أفكر بجملته: ماذا قصد بها؟ ثم سألته: لماذا؟

استغرب سؤالي، وقال معلقاً: لماذا؟ ابتسم: ولماذا يذهب الإنسان إلى الجامع؟ طبعاً للصلاة، صلاة الجماعة..

حملت حقيبتي، وأجبته، كان جواباً وقحاً، لم أكن أتقصد ذلك أبداً، إنما كانت قناعتي الأخيرة، بما أجبته: لقد أكتفيت من صلاة الجُمَع، وكل الأيام الباقية. لقد اكتفيت حتى من الدين برمته.

وأغلقت الباب ورائي.

سكت طويلاً، كأنه بذلك قد أخذ استراحة بعد الحديث، أو راح يفكر بالطريقة التي يتابع حديثه عن صديقه الذي دخل إلى عالم جديد، عالم لم يكن غريباً عليه، إنما كان محرماً، وهو الاهتمام في السياسة، ثم انتسابه إلى حزب يساري محظور، قال: لقد رأيت فيه ما كنت أبحث عنه، وما كنت أرغب في أن يعيش العالم بأفكاره وقيمه. كان ذلك قبل سنة من اعتقاله وموته تحت التعذيب.

وقفت ورفعت نظرها إليه، وهي غير مصدقة ما أنهى حديثه به، مرددة بآلية: مات تحت التعذيب!

نعم. مات تحت التعذيب.. وتابعا الطريق، كل إلى بيته بين صمت طويل، وثقيل.

في البيت سأل حسن نفسه: ما الأسباب التي دعتك إلى أن تقص عليها، قصة حبك على أنها قصة صديق لك؟ ما كانت غايتك من ذلك؟

هل كنت تخاف أن تترك لديها أثراً سلبياً فتتحفظ في علاقتها معك؟ وتنظر إليك كرجل بلا إرادة، يمكنك في أي لحظة أن تتركها، أن تقول لها: وداعاً، أو حتى من دون ذلك، من دون كلمة وداع؟ أم كنت تريد أن تعيد سرد القصة- قصة حبك- على نفسك، لتتأملها كشخص لا علاقة له بالقصة. أي أن تنظر إليها من الخارج، وتقيّم دورك فيها، بعد سنوات طويلة من انتهائها، كنت خلالها تدين نفسك باستمرار، وتنظر إلى ذاتك، على أنها ضعيفة لا تملك قوة الإرادة. وتابع: دعك من قصة الحب هذه، وهات حدثنا عن القصص الأخرى التي قصصتها كهوامش على قصة حبك هذه، قصة إيمانك، وتدينك، وعملك السياسي في حزب محظور، ثم اعتقالك، وموتك تحت التعذيب.. ماذا أردت أن تقول في سردك لكل هذه القصص؟ هي لم تسألك عن هذا، لأنك لست صاحب هذه الحكايات، هكذا أخبرتها، إنما هي لشخص آخر، لصديق لك..

ظلت هذه الأسئلة تنداح في نفسه، حتى بعد انتصاف الليل، وهو ممدد على السرير بعد أن جافاه النوم. كان يجيب على بعضها، ويهمل بعضاً آخر منها. لكنه لم يقتنع بأي جواب من أجوبته، كان يراها غير صادقة، فيها كذب كثير. كان يريد أن يكون صادقاً في أجوبته، إلّا أنه لم يعرف الأجوبة الصحيحة. كان دائماً يجيب بأجوبة تقريبية، ليهدئ بها نفسه، أو يشغل ذهنه، إلّا أنه في النهاية كان لا يقتنع بها فيعود من

جديد يطرحها على ذاته بصيَغ أخرى، ويجيب عليها بأجوبة أخرى، وهكذا..

عندما استيقظ في الصباح، لم يعرف متى غرق في النوم، ولم يعرف إن كان قد أجاب على أسئلته أم لا؟ فهو الآن لا يتذكر شيئاً عن ليلة البارحة، سوى أنه أرق ولم يستطع النوم لساعات طويلة، ولم ينم، هكذا يعتقد إلّا في ساعة الصباح الأولى، لهذا السبب كان قد تأخر في استيقاظه، استيقظ في الساعة الحادية عشرة تقريباً، فحاول ألَّا يفكر بما كان له مع القلق قبيل نومه. لم يتناول طعام الفطور، خرج من البيت يقصد المقهى، وفي طريقه تناول فطيرة جبنة وكوب شاي قبل أن يصل المقهى، إذ هو يوم لقاء الأصدقاء الأسبوعي.

يوم المرأة

كان جل ما يشغل حسن منذ ثلاثة أيام، هو التحضير للاحتفال الذي أوكلته المنظمة إليه. قال الذين يعملون معه: يجب أن يليق الاحتفال بمكانة المناسبة..

وأنداحت عشرات الصور التي كوّنها في رأسه عن النساء المناضلات، العاملات اللواتي كن سبباً في أن يكون يوم الثامن من شهر آذار/ مارس، يوماً للمرأة في العالم كلِّه.. فكلف بعض الرفاق والرفيقات في إعداد فقرات الاحتفال، وطلب منهم أن تكون فقرات الاحتفال متنوعة، وفي الوقت نفسه قصيرة، من أجل أن تكون الفقرة الرئيسية، هي فقرة"يوم المرأة العالمي"، هذه الفقرة استأثرها لنفسه، هو الذي يجب أن يكتبها؛ لأن لديه مواهب الكتابة في المواضيع الإنشائية التي كان يكتبها، فيعجب بها أستاذ مادة" اللغة العربية".. ثم إنه كان يريد أن يجرب ما كان يطمح إليه، أن يصبح كاتباً. كثيراً ما ضحك، عندما كان يفكر بذلك.. كان يسخر من نفسه، ويقول: لكل إنسان أحلام، ولكن ليس إلى حد أن يبلغ غروره، في أن يصبح كاتباً. يذكر عندما استدعي لأداء خدمة العلم الإلزامية، كان حزيناً، لأن هذه المدة الزمنية ستكون زمناً ميتاً من

حياته، سيقضيها في مكان ما من أرض هذه البلاد، لا عمل له سوى عدّ الأيام التي مضت من خدمته، وتلك الأيام الباقية..

لم يكن يعرف بأن تلك الأيام ستكون من أمتع أيام حياته، لأنه عرف كيف يقضيها مستفيداً منها.. لقد ظل لمدة سنة ونصف يقرأ ما وجده من الكتب في مكتبة القطعة العسكرية التي أمضى خدمته فيها على الحدود مع إسرائيل، في قرية منعزلة، تبعد عن أقرب مدينة زراعية منها، أكثر من خمسين كيلو متراً، لهذا لم يخرج من القرية في أيام العطل والأعياد الرسمية، كان يستغلها في القراءة.

يذكر أنه بدأ القراءة تمضية لأوقات فراغه لا غير، بعد أن ينتهي الدوام الرسمي في الثكنة، والأعمال التي كان يقوم بها، وهي تدريب جماعة من الجنود الذين جاؤوا من قرى ومدن مختلفة لأداء خدمتهم الإلزامية. ثم توزيع المهام التي عادة توكل للجنود وصف الضباط خلال الأربع والعشرين الساعة التالية. أما بعد ذلك فكان يلجأ إلى مكتبة قيادة اللواء ويبدأ في القراءة.

في البداية احتار، وهو يتساءل، ما هي الكتب التي عليه أن يقرأها؟ لأن أمامه عدداً كبيراً من الكتب، وكلواحد منها يتألف من عالم خاص به، فكان يأخذ كتاباً يقلّبه على فصوله التي تشير إلى الفلسفة، وأخرى

إلى الاقتصاد، والتاريخ، وبعضها، وكانت هي الكتب الطاغية، كتب أدبية- روايات- قصص- مسرح- شعر- نقد.. يذكر عندما انتهى من قراءة عشر روايات، وصل إلى قناعة أن قراءته لم تعد لقضاء الوقت وتمضية الزمن، إنما عرف أن القراءة هي التي تخلق منك إنساناً مغايراً عن الآخرين.. لهذا راح يركّز قراءاته، فراح ينوعّها، يقرأ في الأدب، ثم ينتقل إلى التاريخ، ويعود إلى الأدب ثانية، ثم يأخذ الفلسفة.. وهكذا حتى انتهى من قراءة كتب المكتبة جميعها قبل أن ينهي خدمته الإلزامية.. وهو اليوم، يعتقد بأنه قرأ أكثر من خمسمئة كتاب، وهي مجموع الكتب التي كانت في مكتبة" قيادة اللواء" في تلك القرية النائية التي أصبحت اليوم ضمن الأراضي التي احتلتها إسرائيل، ولم تخرج منها منذ الخامس من حزيران 1967.

عندما انتهى من خدمته الإلزامية، عاد إلى البيت، وراح يعمل في التدريس في ثانويات حلب، تابع قراءته، بعد أن تأكد له أن القراءة هي التي عليه أن يشغل نفسه بها، لأنها بدأت تلهب رغبته في أن يكون كاتباً.. فجاء ذلك اليوم، وراح يستعد له بجدية.. راح يتذكر كل الكتب التي قرأها، ويبحث بينها، خاصة الرواية منها، عن واحدة تكون صالحة ليصيغها مسرحيةً لأجل تقديمها في الاحتفال الذي يعدّونه، والافتتاح

لم يبق له سوى أربعة أيام. شعر بأن المدة جداً قصيرة لإعداد الرواية مسرحيةً تمثَّل أمام جماهير المنظمة التي ينتمي إليها.

في ساعة لا على التعيين، وكان جالساً على مسطبة الليوان في الدار العربية الواسعة، المؤلفة من حوش تتوسطها بركة، وحول البركة ثلاث شجيرات، واحدة يتدلى منها البرتقال، والثانية الليمون، أما الثالثة فكانت شجيرة كباد. كثيراً ما كانت روائح الشجيرات الثلاث، تمتزج فتنتشر سحابة عطرٍ فوق البركة الممتلئة بالماء النقي، فتسكره، لا بل كان يغمض عينيه من دون رغبة منه، ويسرح مع غيمة العطر، ما يلبث بعد وقت أن يفتح عينيه نشوانَ، ثم يعود إلى الليوان، ويراقب الشبان والشابات، وهم يتمرنون على الفقرات التي سيقدمونها يوم الاحتفال.

راح يستعرض أسماء كثيرة من الروايات التي قرأها، واستعرض مواضيع بعضها بشيء من التفصيل في ذهنه ليختار واحدة منها، فكانت عشر روايات، جميعها يمكن أن تتحول مواضيعها إلى موضوع خاص بالاحتفال، ولكنه في الوقت نفسه لاحظ أن معظم الروايات تفتقد روح الحماسة التي يمكن أن تنقل الممثلين إلى الموقف الذي يتطلبه موضوع المناسبة، هذا إلى جانب عدم رغبته في حشو الموضوع بالشعارات التي، قد تثير الحماس، ولكنها لن تشعل الروح. لهذا شعر بشيء من التردد في اختيار رواية من الروايات العشر، فعاد بفكره مرة أخرى إلى روايات

أخرى.. إلّا أنه سأل نفسه: أمن الضروري أن تختار موضوعاً من الروايات التي قرأتها؟ لماذا لا تحاول أن تكتب موضوعاً يناسب الاحتفال، وبعد تردد قال: أخبرني ماذا ينقصك؟

شعر بالرضا عن نفسه، فتنهد كمن حل مشكلة عويصة اعترضته، وهو يقول: لا ينقصني شيء، سأكتب الليلة ما أراه مناسباً لموضوع الاحتفال.

كانت الساعة قد قاربت الخامسة عصراً، وكان الشبان خاصة والشابات منهن على وشك الانصراف إلى بيوتهم فقام بدوره يستعد لذلك، عندما تقدمت إحدى الفتيات، وسألته، إن كان قد استقر رأيه على الرواية التي سيقدمها في الاحتفال؟

شعر بشيء من الضيق، إلّا أنه تمالك نفسه، وأجابها: لا.. وقبل أن يكمل حديثه، سألته: رفيق ما رأيك برواية "الأم" لمكسيم غوركي؟

الأم!

شعر أن هناك فتاة من كيان خاص تحدثه، تسأله، وتنتظر منه الجواب. وبعد أن تأملها طويلاً. سأل نفسه: أين كانت هذه الرفيقة؟ فأنا لم أرها قبل هذه اللحظة، لقد تعرفت على جميع الشبان والشابات

بالتفصيل إلى حدّ ما، إلّا أن هذه الفتاة لم تمر عليّ، أم إنك لم تنتبه إلى وجودها؟ وقبل أن يجيب، أحس بالهدوء يحيط بهما، فالتفت فيما حوله، فرأى أنهما وحدهما في الحوش. لقد خرج الجميع، فارتبك، وقال: هيا ننصرف..

وتوجها إلى الباب وهو يقول: لا بأس بها. أقصد الرواية، سأفكر بها الليلة. وما إن خرجا حتى أقفل الباب ومضيا معاً إلى الشارع العام، وهما يسيران على أرضية الزقاق المعبّدة بأحجار سود.

طوال الطريق فكر بالفتاة التي لم تكن كالأخريات، قال. كانت تلك جرأة تفتقد إليها كثيراً من البنات، فحين طرحت عليه السؤال، شعر كأنها تعرفه منذ سنوات، لم يرَ على وجهها ذاك الخفر الذي عادة كان يجده على وجوه الفتيات في مثل هذه الحالة، ألا وهي الكلام لأول مرة معه.. ولكن الغريب في الأمر الذي استرجعه في نفسه، في ساعة قبيل نومه، أنه لم يتساءل إن كانت جميلة أم لا؟ كما أنه لم يلاحظ أن كانت طويلة أم قصيرة، أم متوسطة الطول. لم يأخذ وصفها كفتاة من تفكيره شيئاً، ما أخذه هو العفوية والندية في كلامها معه.. لذا قبيل نومه أقرّ.. عليه أن يتعرف إليها جيداً، ثم استغرب، حتى اسمها لم يعرفه. ابتسم، وقال لنفسه: في الغد عليك أن تحل هذه الأمور. ثم راح يفكر برواية

"الأم" لمكسيم غوركي فاعتقد بأن موضوعها، وهو نضال أم، موضوع ملائم تماماً لمناسبة يوم المرأة العالمي..

يمكن اختزال الأسبوع الذي قدمت فيه المنظمة موضوعات الاحتفال بعيد المرأة ببعض الأحداث الرئيسية. نجاح المهرجان بمجمل فقراته، وخاصة موضوعها الرئيس، أي مسرحية "الأم" فقد كان انطباع الذين حضروا جيداً، حتى إن بعض الحاضرين من الأصدقاء، أصدقاء المنظمة سارعوا للانتساب إليها، بعد أن شدتهم المسرحية إلى أهمية النضال إذ قالت، على نحو ما، يمكن لكل إنسان أن ينشط في مجال ما من مجالات الحياة، لتكون حياته أجمل، وتغدو الحياة أكثر عدالة، ويحقق الإنسان ما يحلم به.

انتهى الاحتفال، وخرج الناس، أصدقاء ورفاق المنظمة من الدار-الحوش التي جرت فيها، كل إلى بيته. ولم يبق سوى أعضاء المنظمة الذين قام على أكتافهم هذا النشاط الاحتفالي بيوم المرأة العالمي، فراحوا يخرجون من الدار واحداً بعد الآخر، بينما هو كان يطفيء أنوار الغرف وهنا وهنالك من أركان الدار- الحوش حتى لم يبق من المصابيح المضاءة سوى مصباح الباب الذي كان يفرش نوره على العتبة.. وقبيل أن يطفئه لاحظ أن الفتاة التي قامت بدور" الأم" ما تزال واقفة كأنها تنتظره ليخرجا معاً..

وهذا ما حدث. أطفأ المصباح وأغلق الباب ثم أرتجه بالمفتاح.

كان الشارع مضاءً بمصباح يفرش نوره على مساحة واسعة من بلاط الزقاق الأسفلتي، فنظر إليها طويلاً، ثم ابتسم، وقال لها سائلاً: على الرغم من أن بيتك قريب، وهو ضمن الحارة، إلا أنني أرغب في مرافقتك إليه إن كنت توافقين على ذلك؟

ضحكت وقالت له: يسرني هذا.. وسارا عبر الشارع الرئيسي بعد أن خرجا من البيت الذي جرى فيه الاحتفال.

ومن هذه الرفقة القصيرة التي لم تستغرق أكثر من ربع ساعة بدأت قصة حبهما، أو بالأحرى، كشف كل واحد منهما عواطفه ومشاعره التي نمت وتطورت خلال أسبوع الاحتفال تجاه الآخر.

حكايات الأنثى

قالت، وهما عاريان في السرير..

لا تعرف متى كان ذلك، وكم كان عمرها في تلك السنة، أكانت في السادسة أم في السابعة؟ ولا تذكر إن كانت قد انتسبت إلى المدرسة أم لا.. تلك الوقائع يلفّها اليوم الضباب، وعدم الوضوح.

عندما استيقظت عنوة، كان هناك من يزعق باسم الله، يدعو إلى الاستيقاظ والصلاة. أرهفت السمع.. نعم إنه صوت إنسان، ولكن، لماذا يصرخ بكل هذه الحدّة في مطلع الفجر هذا؟ ثم ماذا دهى صوت المؤذن حتى أصبح بكل هذه القوة؟ وقبل أن يغلبها النوم من جديد، كان المؤذن قد توقف عن صراخه منهياً بذلك آذان الفجر.

ذكرت أن صوت المؤذن كان عذباً فيما سبق، وجميلاً، وغير مزعج كما كان البارحة، هذا إذا اعتبرنا إيقاظ الناس في هذا الوقت من الليل ليس مزعجاً. في الصباح نسيت هذا الأمر، ذهبت مع جدتها إلى السوق. كانت الجدة في الأونة الأخيرة تنزل كل يوم إلى السوق تقريباً، لم يكن بعيداً، كان الطريق إليه يستغرق أقل من ربع ساعة.. استغربت كثيراً في أول يوم لها برفقة جدتها؛ أنها تساءلت، لماذا تريد جدتها أن تشتري كل

هذا القماش؟ ما حاجتها إلى هذه الكمية منه؟ فهي بطبعها ليست مسرفة، كانت تكتفي بثوبين اثنين في السنة. كانت تقدّر ما يعانيه زوجها_ جدّ البنت، في عمله حتى يؤمّن لها ولأولادها لقمة الخبز.. لم تعرف أسباب هذه الزيارات المتكررة إلى السوق إلا خلال حديثها الذي صاغته في سؤال: غداً ستذهب إلى الخياطة من أجل تفصيل القماش ثياباً للبنات. ثم سمعت جدتها تقول: لا أريد لبناتي أن تظهرن في العرس بثياب غير لائقة أمام الناس.

وهذا ما كان. لقد أنبهرت بمرأى الثياب التي ارتدتها خالاتها الأربع تذكر أنها ضحكت كثيراً في تلك الأيام، وظلت هذه الذكرى مسيطرة عليها طويلاً حتى بعد نهاية العرس بشهور.. هي اليوم لا تذكر عرس من كان؟

في صباح تلك الليلة سمعت حديثاً، أن الصوت كان جميلاً، إلا أن الوقت غير ملائم حتى يصدح المؤذن به، إنه وقت باكر جداً، والناس طوال السنوات الماضية يستيقظون من تلقاء أنفسهم، ويذهبون إلى المسجد للصلاة، أو يؤدونها في بيوتهم.. وتذكر أن حديثاً طويلاً جرى حول الميكروفون الذي صدح به صوت المؤذن لأول مرة. لقد أفزع بعض النيام، حتى أنهم شتموا المؤذن المسكين الذي زعق في الميكرفون. كان صوته يكفي، فهو طوال عمره يؤذن للصلاة بصوته، فما كان حاجة

الناس للميكريفون المزعج. وآخرون قالوا غير ذلك، فقد أحبوا صوت المؤذن أكثر في الميكروفون..

سمعت كثيراً من هذه الآراء، من أهالي الحارة، صغاراً كانوا أم كباراً، رجالاً أم نساء. فقد أحدث الميكريفون لغطاً بينهم، وأوحى بكثير من الحكايا، ليست في صالحه، أما عندما فاتحوا المؤذن في الأمر شعر المسكين بالارتباك والحرج، وكي يدافع عن نفسه، قال، ليس بيده حيلة. لقد أقرّته دار الإفتاء بعد مناقشات كثيرة، وأن بعض المشايخ، أعضاء في دار الإفتاء، كان لهم رأي مخالف للبقية، إلا أن الدار أمرت في الأخير أداء الأذان عبر الميكريفون.

أبدى المؤذن، في البداية، امتعاضه للأمر، لأنه، وحسب رأيه، أن الميكريفون يُفقد كثيراً من رخامة الصوت أثناء رفع الأذان، فينفر المرء من الصوت، وربما، قال المؤذن ينفر الناس مع الأيام، من الصلاة أيضاً! إلا أنه خضع، في النهاية، للأمر.

ضحكت، وهي تدفع شعرها الأسود عن صدرها العاري، ثم تابعت: لقد سمعنا بعض الحكايات، على أن المؤذن في بعض الأحيان، خاصة أثناء صلاة الفجر، كان يؤدي الأذان بصوته من دون الميكرفون. كان يضحك للذين يسألونه مازحين، ما به ميكرفونك، فنحن لم نسمع له

صوتاً عند صلاة الفجر، ويجيب: كان مريضاً! أصابه رشح ما، فبحَّ، لذا اضطررت أن أرفع الأذا نبدلاً عنه. ثم يضحك، وهو يلتفت فيما حوله، ويتابع بصوت خافت: أحياناً أشتاق إلى صوتي، لهذا أرفعه عبر كفيّ وليس عبر البوق اللعين. كانوا يضحكون، ويقول واحدهم للآخر: أتدري يا أبا رجب، عندما أسمع صوتك أتشجع للصلاة في الجامع..

أعرف. يقولها المؤذن بصوت حزين.

طبعاً، كل هذا الذي أخبرتك به، سمعت به بعد أن تخطيت العاشرة من العمر، وكنت يومها في الصف الرابع الابتدائي. أذكر عندما سمعت صوت المؤذن عبر الميكرفون شعرت بالخوف لأنني لم أعرف ماذا حدث لصوت المؤذن، فزحفت أولاً إلى أمي، ثم إلى جدتي، لأن أمي لم ترد عليّ عندما سألتها عن الصوت الذي أيقظني برعب. أذكر جدتي هي التي شرحت لي في الصباح عن الأذان والميكرفون، وأسباب رفع الأذان، وعن الصلوات.

مازلت أذكر كيف كان حديثها، صوتها، وحركات يديها، كانت كالمتعبد لدى كل كلمة، أو جملة تقولها بحق الله وحق رسوله. صحيح كانت امرأة أمية إلا أنها كانت تحفظ كثيراً من الآيات والسور القصيرة، حتى إنها

كانت تحفظ مقاطعَ طويلة من بعض السور كسورة البقرة وآل عمران، وغيرهما..

كنت أصاب بالدهشة عندما تصحح لي القراءات الخاطئة لبعض الآيات في القرآن، فكنت أبتسم لها، بعد أن أتأكد من صحة ما تلته عليّ.. لقد آثرت فيّ تلك السنوات، وأنا فتاة يافعة لا يتجاوزعمري الخمسة عشر عاماً. ودفعتني دونما قصد إلى تخيّل الجنة وجهنم. كنت أحاول أن أتصور كل ما هو جميل وحلو وحسن في الجنة، أما جهنم فكانت تمثل لي النار، ولا شيء غير النار الهائلة التي لا حدود لها. كنت كلما أحاول أن أتصور الذين يتعذبون فيها فلا أرى سوى أطيافاً من البشر في النيران، وفي بعض الأحيان كنت أتصور أقرب الناس إليّ، أبي مثلاً، وهم يعذبون في نار جهنم فأفتح عينيّ، واحدق في الظلام السائد والمخيم عليّ وأنا في الفراش..

كانت أولى صلواتي بعد أن تخطيت الرابعة عشرة من العمر، وظللت مواظبة عليها حتى بلغت الثامنة عشرة، وفي كثير من الأحيان شاركت جدتي صلاتها. أذكر عندما كنت أشاركها، كنت أحاول أن أقلّدها في كل حركة من حركاتها في السجود والركوع، وعلى الرغم من أنني كنت أعرف كل خطوة من الخطوات التي عليّ أن أقوم بها، إنما فقط لأجل أن أقلّد جدتي.

عندما كنا ننتهي من الصلاة، كانت تضحك وهي تضمني وتقبّل رأسي، وتقول كلاماً حنوناً، وهي تقرأ آيات من القرآن وهي تمسد رأسي، وتقول، أنار الله كل خطوة من خطواتك في هذه الحياة. أما الجانب الآخر لجدتي فقد رأيته في موقفها من أولادها، أي أعمامي، ودعمها لهم، فقد كانت تبارك أعمالهم ونشاطاتهم السياسية والاجتماعية، على الرغم من أنها لم تكن تعرف ماهية هذه الأعمال، إلا أنها كانت تعرف أن أولادها لا يمكن لهم أن يقوموا بأعمال طائشة، وضارة بالناس. كانت تزعل بشدة عندما ترى أولاد الجارة الصغار يذهبون إلى الأعمال الشاقة يعجز عنها الرجال عوضاً عن ذهابهم إلى المدارس يتعلمون فيها العلم وبناء مستقبلهم. كانت جدتي لا تقف ضدهم، كانت تصلي لهم وتدعو الله أن يحفظهم من الأذى.. وكم كنت أسمع منها، وهي تقول: والله حرام، شباب متل الفل يعتقلون ويدخلون السجن من أجل مظاهرة قاموا فيها! ماذا فيها إن قام بعض الأغنياء بتقديم القليل من أموالهم الكثيرة للذين يعملون عندهم، ألا يخافون الله تعالى؟ ألا يقرأون القرآن الذي يقول بحق المساكين والفقراء على الأغنياء، ألا يسمعون لدى صلواتهم إلى تذكيرا لإمامهم بأن الله يحب المحسنين. ثم تعود إلى الصلاة والدعاء لأولادها..

تابعت بعد صمت، وهي تبتسم: سمعتها ذات يوم، بعد أن تشاجرت مع عمي الأصغر بكري، لا أذكر السبب، ولكنني أعتقد بأن عمي كان قد مازحها، عندما سمعها تقول: أمركم لله، فبدلاً من قراءة القرآن، قبل ذهابكم إلى العمل طالبين التوفيق في مسعاكم، تسخرون وتنكرون وجوده؟

كان عمي يضحك، ويقول لها: والله يا حجة نحن لا ننكر وجوده، وإننا نحبه، ولكنه عندما نسأله: لماذا يقف إلى جانب الأغنياء الذين يغفلون كلامه، ولا يطبقونه، لا يجيب. يدير ظهره لنا، وكأننا من خلق إبليس لا من خلقه..

يا الله، كم كان عمي يضحك بعد ذلك، بينما كانت جدتي تقول له، وهي غاضبة: ألا تخافون جهنم، تريدون الجنة في هذه الدنيا، وتنكرونها على أنفسكم في الآخرة؟

طبعاً مثل هذا الكلام لم تكن جدتي تعيه لو أنها لم تسمعه من أعمامي الذين كانوا يتناقشون فيه أثناء تواجدها معهم. كانوا يقولون نحن نعمل من أجل أن يعيش كل البشر في هذه الدنيا كما تريدين أن يعيشوا في الآخرة، في الجنة يا حجة..

كانت، كثيراً ما تقول لي، عندما تحبط ويصيبها شيء من اليأس، عندما تفشل في ردهم عن مظاهرة سيشاركون بها. كانت تخاف عليهم، تخاف من أن تفقدهم بطريقة ما، كانت تقول: أخاف عليهم في هذه الدنيا أكثر من خوفي عليهم في الآخرة، ففي الآخرة الله غفور رحيم مهما تجبر الإنسان وتكبر، فالله في النهاية سيأخذهم برحمته، ويدخلهم الجنة، أما هنا..

كانت تصمت ولا تنطق. كانت تلجأ إلى أبي الذي كان يعوّضها الأمان. كان يضحك، وهو يشد من عزيمتها، ويقول: يا حجة، لا تخافي أنهم "زلم" لا يهابون شيء، يجب أن تفخري بهم، ألا تسمعين أحياناً ماذا يقول أهل الحارة، في"الزلم الخوافين"، "خروق" لا خير فيهم؟ أتريدين أن يقولوا عن ابنك بكري جبان؟

كانت ترد عليه وهي شبه شاردة: لا. أريدهم رجالاً، لكنني أخاف عليهم أيضاً.

معك الحق يا حجة. كان أبي يجيبها، ثم يضحك، ويتابع: ألا يكفيك أن أكون أنا إلى جانبك؟

كانت ترد بانتعاش: الله يرضى عليك ويكون معك يا ابني.

كان أبي يضحك ويضمهاإلى صدره، وهو يقبل رأسها، ويقول لها: لا تخافي إنهم يملكون عقولاً ذكية كعقلك. ويضحك عندما كانت تنظر إليه تستفهم، وهي تفكر إن كان ما قاله مديحاً أم ذماً، فتابع أبي وهو على ضحكه: أما أنا يا حجة فقد ورثت عقل أبي، وهو عقل لا يفكر سوى بلقمة عيشه وأمن أسرته لا غير.

كانت جدتي، وأنا فتاة صغيرة، في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، هي قدوتي في الجانب الديني من حياتي. طبعاً هي لم تحاول أن تعمل على هذه الناحية من حياتي، ولم تتدخل فيها؛ لأنها بطبيعتها لا تظن أبداً أن مثل تلك الأفكار التي تسللت إلى صدور أبنائها، أن تتسلل إليّ أيضاً. كانت تعتقد بأن مثل هذه الأفكار خاصة بالرجال فقط، لأنها لم تجد من حولها، من النساء، حملت مثلما حمل أولادها من أفكار، إلا أنها كانت في بعض الأحيان تحذرني من بعض الأمور التي تخص المرأة، ولا تجوز لها أن تقوم بها، وعندما كنت أسألها عنها، كانت تجيب، أنت ما زلت صغيرة، لم تبلغي بعد السن التي تعني لك هذه الأمور، عندما تبلغينها سأخبرك بها. كنت أصرّ عليها، أن أعرف، وكنت أتصنع الزعل منها، وأقاطعها في الذهاب إليها. كانت تضحك وتقول لي: لا تكوني عنيدة فالعند لا يليق بالمرأة. لقد قلت لك، أنت ما زلت صغيرة، لم تبلغي مبلغ

النساء لأشرح لك الأمور الخاصة بالنساء اللواتي عليهن أن يفطن إليها في أثناء واجباتهن الدينية.

كنت ساذجة في تلك السن، ولم أكن أعرف ماذا تقصد بكلامها، كنت أظن بأن ما تخفيه عني هو أشبه بحكاية يمكنها أن تحكيها لي، ولم أدرك هذا الأمر إلا في اليوم الذي وجدت دماً في سروالي. في تلك الساعة لم أهرع إلى أمي، إنما ركضت إلى جدتي لأنها كانت هي التي أرتاح لشرحها لكل القضايا التي كنت أسألها عنها. فهرولت إليها، وأنا أكاد أموت من الخوف، لأنني لا أعرف ماذا حدث لي، هكذا فجأة، وأنا في ساعة الظهيرة، جالسة إلى كتبي أطالع فيها دروسي، شعرت بشيء حار ينسرب بين فخذي إلى سروالي الداخلي. التفت حولي بعد أن شعرت أن هناك عشرات من الناس ينظرون إليّ، كانهم يشيرون إليّ بأصابع الإدانة.

عندما وصلت إلى جدتي، وكانت في المطبخ، جالسة تلف "اليبرق"، بينما والدتي كانت بقرب الحمام، لم أهتم بما كانت تفعل، صرخت: نانا.. نانا.. وتوقفت قبل أن أصل إليها، ولم أكمل ما كنت أودّ قوله لها. لأن والدتي نهرتني قائلة: اذهبي. لا تعطلي جدتك عن عملها. أما جدتي فعرفت من الرعب المرسوم على وجهي، أن شيئاً ما قد حدث لي، فتركت ما كانت تقوم به، وهرعت إليّ، أخذتني من يدي وذهبت بي، وهي تبسمل، وتقول: لا تخافي، لا تخافي..

على الرغم من أنها لم تكن تعرف ما بي، إلا أنها عرفت أن أمراً ما قد حدث معي من ملامح الخوف المرسومة على وجهي. كانت تهتف بي مشجعة: ماذا؟ قولي، ما بك؟

أجبتها بصوت متقطع: لا أعرف، أعتقد أنني تبولت في سروالي!

سكتت عن الكلام قليلاً، ثم تابعت: في ذلك اليوم، عرفت، بعد أن أخبرتني جدتي، أنني دخلت عالم المرأة الحائضة، ومنذ ذلك اليوم أحاطتني برعاية خاصة، ثم راحت توضح لي أحكام الدين.. في أيام العادة الشهرية التي بدأت أعانيها أول الأمر بخوف، ومن ثم اعتدت عليها، ما لبث أن بات الأمر روتينياً في حياتي.

أذكر أن رحلتي مع الكتاب بدأت في تلك السن. في البداية كانت كتباً تتعلق بالنواحي الدينية الخاصة بالنساء وظروف العبادات لديهن، لدى المتزوجة والعزباء، ثم بدأت بقراءة كتب تتحدث عن جوانب أخرى من الدين، مثل سيّر الصحابة وحياتهم برفقة الرسول، وكتب السيرة والأحاديث وبعض تفاسير القرآن الكريم.. أي غرقت في عالم بقدر ما كان رحباً، كنت أشعر، عندما أفكر بتطبيقه بضيقه وشدّته على النفس، إلا أنني كنت دائمة التبرير، فأقول: المؤمن يمتحن. لا أدري من

أين جاءتني هذه الجملة؟ وكيف علقت بذاكرتي: إلا أنها كانت دائماً هي المنفذ لي كلما ضاقت بي الدنيا.

عندما خف اعتمادي على الكتب، وقلّت فيها قراءتي، وكان ذلك لأسباب كثيرة، لعل أهمها، الدروس المدرسية، فأنا كنت دائماً حريصة على أن تكون علاماتي ممتازة. لهذا عندما شعرت بأنني تراجعت في دراستي، وأصبحت الثانية في صفي بين الطالبات الخمس الأوائل اللواتي كنا نتنافس على الدرجة الأولى، وخاصة عندما علمت جدتي بذلك استاءت مني وزعلت قائلة: لا تخيبي ظني بك. أريدك أن تكوني الأولى في المدرسة، وليس في صفك فقط.. فوعدتها، وهي تقول لي، بعد أن عرفت أن اهتمامي بكتب أخرى أخذت مني وقتاً كان المفترض أن أقضيه في قراءة كتبي المدرسية، ومراجعتها.. قالت: اتركي هذه الكتب الأن، لديك الصيف بكامله، يمكنك أن تعاودي قراءتها.. وهذا ما كان. فاستعدت، وبكثير من التفوّق المكانة الأولى في المدرسة..

أتدري، سألته وهي تنظر إليه: إن الأمر الذي دفعني إلى أن أفكر بكل تلك الكتب الدينية التي قرأتها، والتي وضعتها جانباً، إلى أن يحين فصل الصيف لأعود إليها، كانت تراودني في الليل والنهار، فما إن كنت أضع رأسي على الوسادة، حتى تأخذني الأحلام إلى ذلك العالم الذي كنت أغوص فيه. كنت كثيراً ما أشرد عن كتب المدرسة أو أسهو عن وظائفي.

ففي أحيان كثيرة، وأنا أعاود قراءة وظائفي، خاصة تلك التي تتعلق بمواضيع الإنشاء والتعبير، أجد بعض الأحلام مكتوبة بين سطورها. طبعاً من دون أن أقصد ذلك. كنت وأنا أكتب وظائفي تنتقل هذه الحكاية الدينية، أو بعض أجوائها، إلى ما بين سطورها.

أذكر أنني كنت قد أُشبعت بقراءة الكتب الدينية، بحيث سيطرت عليّ بالكامل، فأينما تحركت كانت تلك الكتب تتحرك معي، في المطبخ، والحمّام، وحتى عندما أذهب إلى المرحاض لأقضي حاجتي. كنت أقضيها وأنا أفكر بفلان من رجال الصحابة، وعلّان من المفسرين.. حتى في الليل لم أنج منهم. كانوا يتسللون إلى نومي، فكانت أحلامي في معظمها وقائع دينية، كنت أجد نفسي بين الرجال في غزواتهم، وأحياناً في عذاباتهم التي كان الكفار يلحقونها بهم.. إذا تركت الحديث عن هذا الجانب، وهو جانب كان غير مهم في أحلامي، كان همّي الجنة والنار.. أذكر أنني لم أكن أمضي ليلة دون أن أجد نفسي في رحلة على دروب الجنة أو النار، على الرغم من رحلاتي في جهنم لم تكن مؤلمة لأنني في الأساس لم أصل إليها كإنسانة مذنبة، عليها دفع ثمن ذنوبها التي ارتكبتها في الدنيا الفانية التي عاشت فيها قبل أن يتوفاها الله. إنما كانت أشبه برحلة اطّلاع على أنواع العذاب التي يُعذب بها القائمون فيها على الذين مآلهم جهنم.. حتى إنني كنت أرى في بعض الأحيان أناس أحياء أعرفهم من أولاد الحارة

فاستغرب وجودهم في جهنم، وأنا أسأل نفسي: متى ماتوا؟ فأنا لم أسمع بموتهم، هل ماتوا في هذه الليلة؟ طبعاً كنت أقصد الليلة التي كنت نائمة فيها. كنت أود أن أسألهم عن يوم موتهم إلا أنني لم أكن أفعل.. ولكن الأمر الذي شغل بالي هو أن بعض الناس، الأشخاص، وكان بعضهم من أقربائي وجيراني، ومن معارفي، كنت استغرب من أن أراهم في جهنم، لأنني عرفتهم في الحياة، فلم أعرف أحداً منهم قد كفر، أو قام بأعمال محرمة حتى يلاقوا بسببها ما كنت أراهم فيه من تعذيب. كنت دائماً أقول بعد أن أنتهي من استغرابي، أن الله عزّ وجلّ هو العليم بالأمور. أذكر أن مثل هذه الرحلات التي كنت أجد نفسي أقوم بها في نومي، لم تكن تقلقني، إنما تلك التي كنت أرى نفسي إحدى نزلائها.. وكنت أتصوّر أنواع العذاب الذي سيفرضونه عليّ، فأستعيد كل الصوّر التي رأيتها، ورأيت المعذبين فيها يوم كنت أزور جهنم، وأرى نفسي كيف يذوب عنها اللحم كما تذوب الشمعة التي تتعرض لنار حامية، كنت أيضاً، بعد أن يذوب اللحم والعظام عني حتى قبل أن أخرج من دائرة الأداة التي قامت بتعذيبي..

كنت أستيقظ مرعوبة، وفي كثير من الأحيان أشعر بالاختناق، فأقوم لاهثة وفمي مفتوح كسمكة خارج الماء. تستيقظ جدتي مرعوبة فتبسمل، وتقرأ الآيات القرآنية، ثم تضمني إلى صدرها وتهتف بسم الله

الرحمن الرحيم، بسم الله. ثم تسقيني ماءً وترش قليلاً على وجهي، وتهتف بي لا تخافي، إنه كابوس. اللعنة على إبليس جالب الكوابيس للناس الصالحين.

وأظل طويلاً مما أنا فيه حتى أهدأ ويكف صدري عن اضطرابه ويعود قلبي إلى نبضه الهادئ الطبيعي من جديد، فأكف عن الالتفات فيما حولي، كأنني بذلك أبحث عن تلك الممرات والسراديب المملوءة بالنار التي كنت أمر بها، أو أُدفع إليها دفعاً من الخلف بأيدي خفية، غير مرئية، وما إن أطمئن إلى أنني بجانب جدتي، وعلى سريرها، ولا شيء مخيف يحيط بي حتى أضحك، فتضمني إلى صدرها بقوة. كانت صورة نيران جهنم دائماً تسيطر عليّ، والخوف والهلع كانا يقيمان في داخلي عندما أتذكر ما رأيته في منامي..

أذكر، عندما كنت أقرأ القرآن، كنت أتخطى الآيات التي تصف جهنم وتتحدث عن نيرانها المتأججة التي تحتل سراديبها. كنت في بعض الأحيان، أنسى فلا أقف عند تلك الآيات إلا بعد حين، فأتوقف عن القراءة لحظات، أسترد أنفاسي، وأعود من جديد لأعيد ما كنت قرأته، فأقف عند الآيات التي تتحدث عن جهنم، فأتخطاها، وأنا مغمضة العينين..

في كيثر من الأحيان كنت أتساءل، إن كان حقاً يمكن لله أن يحرق الإنسان الذي خلقه؟ كنت أتساءل: ألا يحبه؟ أقصد الله، ألا يحب الإنسان؟ كنت أجيب، طبعاً يحبه، لو لم يحبه لما خلقه أصلاً. إذاً لماذا يقوم بتعذيبه؟ أجيب، لأنه لم يستجب إلى أوامره.. لا يمكن للإنسان ألا يستجيب لله الذي خلقه. ثم أضيف قد لا يستجب إلى الطريقة التي كان يريدها الله منه، قد خالف من دون قصد طريق عبادته، إلا أن النوايا، حتماً كانت صادقة تجاه الله، حتى لم يستجب بالطريقة نفسها.. كثير من الأسئلة كانت تدور في رأسي، وأنا في الفراش، ولا أعرف بعدها كيف أغرق في النوم. أسأل جدتي عن هذه الأمور، كانت لا تريد أن تهوّلها أسأل عنه، إنما كانت تهوّنها، فكانت تقول، لا تصدقي ما يقال حول العذاب في الآخرة، لأن الله الذي خلقنا لا يمكن له أن يقوم بتعذيبنا.. كنت أقاطعها، وأقول محتجة على كلامها: ولكنه قال ذلك في كتابه، وقد قرأته أنا.. كانت تبتسم، وتقول: نعم. قال ذلك في كتابه من أجل أن يردعنا عن الأعمال الشريرة، ويدفعنا لنعمل الأعمال الخيّرة.. ثم كانت تتابع مضطربة، لأنها لم تكن تعرف كيف ستمحو تلك الصور من مخيلتي: ثم، لنفرض أن أحداً لم يستجب لدعوة الله عزّ وجلّ، إهمالاً، أو كسلاً.. أو لأي أمر كان، لن يذيقه العذاب الشديد، هو يقول

ذلك، لأنه هو الذي خلقنا.. وتقبلني، وهي تتابع: لذا يا حبيبتي لا تفكري بهذا الأمر كثيراً، لأن الله رحمن رحيم. علينا ألا ننسى هذا.

هذا الكلام كان يلقي الهدوء والطمأنينة في قلبي، فأنام بعد ذلك ملء جفوني كما يقولون..

لم ألمس نتائج ما قامت به جدتي إلا بعد عدة أسابيع، عندما بدأت من دون أن تخبرني عن غايتها، بأن تحدثني عن كثير من القصص التي تصف الإنسان الطيب، وكيف مآله الجنة.. ثم تذهب في تأليف حكاية وراء أخرى عن الجنة التي سيرى الإنسان المؤمن، المحب لله، والمطيع لأحكامه، نفسه فيها. أخذتني الحكايات إلى عالم جميل، مريح للنفس، عالم كله جمال وهناءة وفرح، فيه من المتع التي وفرّها الله للإنسان. هذه الحكايات حملتني إلى عالم من الخيال، فرحت أبحث عنه في القرآن، إلا أنني مع الأسف، لم أجد فيه مما كانت تصفه لي جدتي. كانت الأخبار عنها ضئيلة، وعادية، حتى إن كل ما ذكر فيه لا يتعدى الأمر العادي الذي يمكن للإنسان أن يراه في أي بستان.. هذا إذا تغاضينا عن محاباة الله للرجل في الجنة..

طبعاً لم أقف عند المشاعر الحسية التي يخص بها الذكور كما جاء في القرآن من الحور العين وأنهار الخمور.. الخ. كنت أبحث عن عالم

آخر تماماً، وأتعامل معه على أنه الجنة التي حدثنا الله عنها. فكنت في الليل أحاول أن أتخيل الجنة قبل النوم، وفي النوم، وكان يتم ذلك في معظم الليالي فأرى نفسي في الجنة، أو أراها من وراء زجاج، أو ستارة شفافة، شفافة جداً حتى تخالها لوح من الزجاج لا غير وأنا في حالة المشاهد لا غير.. ومن غريب المصادفة كنت أفضّل أن أراها من وراء ذاك الشيء الشفاف، من أن أخوض الحياة مع الناس الذين كنت أراهم يعيشون فيها. لماذا؟ لا أعرف.. لربما، أقول: لربما كان ذلك بسبب الحياة التي كنت أرى فيها الناس، حياة لم تكن تعجبني. شعرت، وأنا أراقبهم عبر ليالي طويلة، وكثيرة أن الحياة غير مغرية أن تعاش، هذا على الأقل بالنسبة لي، على ما كنت أراه..

كنت في كثير من الأحيان أمزج الحياتين بعضهما ببعض، الحياة التي كنت أرى فيها الناس، والحياة المتخيلة للناس في حياتهم.. ظللت على هذه الحال مدة طويلة حتى إنني نسيت جهنم ونارها، وطرق التعذيب التي قرأت عنها في كتب خاصة في هذا الأمر، كتبها هذا الشيخ أو ذاك من شيوخ الدين الذين كثيراً ما فكرت بقطع رؤوسهم والضرب على أياديهم حتى يكفوا عن الكتابة المرعبة التي يكتبون عنها، وكأنهم عائدون لتوّهم من جهنم بعد أن قابلوا الكفار والذين يشركون بالله، بعد أن شاهدوا بأعينهم كيف يعذبهم الله في تلك الدار الجهنمية التي خلقها الله

لهم. أما الأمر الذي قطع عني أيضاً تلك الأحلام والمنامات وتخيل الجنة كانت كتب أخرى، راح يقدمها عمي بكري.. وكما قلت لك، كان أصغر أعمامي. كتب تتحدث عن الحياة التي نعيشها اليوم، أو بعض الكتب عن أناس عاشوا منذ عشرات السنين لا غير، أي لو بحثنا عن أولادهم، أو أحفادهم لأمكننا أن نلتقي بهم، وأن نطلب منهم أن يحدثوننا عن هؤلاء الناس- أقربائهم.

في البداية لم أستسغها. كنت أفكر، ماذا ستفيدني إن كانت تتحدث عن أناس مثلي، يملكون الصفات التي أملكها، ويعيشون، تقريباً، الحياة نفسها التي أعيشها.. آكل وأشرب، وأنام، وأعمل في كل يوم لأعود إلى البيت، ثم أقوم في الصباح لأعود إلى العمل من جديد، وهكذا..

عندما أخبرت عمي بهذا الأمر. ضحك تلك الضحكة العذبة التي يملكها، كان متفرداً بين إخوته، أعمامي، بتلك الضحكة، ثم قال: معك كامل الحق. ولكن أريد أن أسألك، هل العمل الذي قام به بافل كورتشاغين[1] هو نفس العمل التي كان يقوم به هذا أو ذاك من الناس؟ وما قامت به بيلاجيا[2]؟ ألم تجدي في حياتهما شيئاً يميزهما عن حياتنا؟ سكت طويلا، شعرت كأنه ينتظرني أن أجيب على سؤاله، ولكنني لم

(1)بطل رواية" والفولاذ سقيناه" لنيقولاي أوستروفسكي.

(2)بطلة رواية" الأم" لمكسيم غوركي.

أكن أعرف الجواب، فتابع: عندما تقرأين قصة ما، حاولي أن تعرفي ماذا أراد الكاتب أن يقول للقاريء عبر حياة أبطال روايته. هكذا ستعرفين مقاصد الكاتب، وماذا يريد. ضحك، وتابع: عندما تعرفين ذلك، فواحدة من اثنتين، إما اأنك ستجدين الكتاب والأبطال قاموا بأعمال حسنة في حياتهم، أو ستنظرين بعين غير راضية عن أعمالهم. عند هذا الأمر ستتخذين موقفاً من هؤلاء الأبطال، أن تحبيهم أو تكرهيهم..

ضحك، وقال: لا يمكن أن أقدم لك قصصاً أبطالها لا يحبون.

عمي هذا قلب حياتي كما يقولون، أولاً بأحاديثه عن الاشتراكية، وكيف يبني في ظلها الجنة على الأرض، وثانياً الكتب التي كان يقدمها لي، وهو يضحك، ويقول: الأصوب، والأمر الأكيد، هو أنك تستطيع بناء الجنة بالتعاون مع الناس الذين يؤمنون بما تؤمن به، أنت الذي عليك أن تشارك في بناء الجنة، وليس غيرك.. وغيرك هذا أنت لا تعرفه، لم تره، لم تشاهد صورته.. إنه مجرد شبح، طيف لا غير. هو الذي سيبني لك الجنة، أو بالأحرى هو الذي سيأخذ بيدك في الطريق التي تؤدي بك إلى الجنة. جنة لا تعرف عنها شيئاً، موجودة في عالم الغيب، ولن يصل إليها إلا بعد الموت، عندما تموت ستوزن أعمالك التي يمكن أن تدخلك الجنة، ويمكن أن تدخلك النار. أنت غير متأكد إن كنت عملت صالحاً بمقدارٍ يمكن لعملك أن يدخلك الجنة.. كان يضحك، ويقول: أما جنة

الأرض فأنت الذي ستبنيها بمواد تعرفها، وقوانين واضحة، أي أنت تعرف ماذا عليك فعله لكي تصل إلى بناء الجنة والانتهاء من بنائها.

كان يسحرني بكلامه. كان صادقاً، وحياته التي عرفتها تؤكد ذلك. لم أرَ منه في يوم من الأيام عملاً غير محبذ، أو فيه ضرر للآخرين. كان دائم التفاؤل. أما كتبه فكانت أمراً آخر. كانت تزرع في نفسي الأمل، وتدفع بي إلى الرغبة في مشاركة العمل مع الآخرين. كانت ترسم أمامي طريقاً واضحاً لتلك الجنة التي على الإنسان أن يبنيها على الأرض له ولأولاده وأحفاده من بعده.

وما إن انتهيت من المرحلة الإعدادية حتى كنت قد تشبعت تماماً بكل الأفكار والأفعال التي قرأتها عند أبطال الكتب التي كان عمي بكري قد أعطاني إياها فتشربتها وتمثلتها، وبدأت في المشاركة بها. كان عمي أول إنسان دفعني في طريق الجنة التي فكرت أن ابنيها مع الآخرين من الناس على هذه الأرض.

رجل على السرير

لا يدري حسن لماذا، عندما دخل عليهم الصف استاذ مادة "الديانة"، شعر بأنه شخص شرير، على الرغم من أن الشر لم يكن ظاهراً على وجهه، إلا أن يده المبتورة من الرسغ، وكم القميص الفارغ، المملوء بالهواء، هو الذي بعث في نفسه هذا الإحساس.

كان السقف يلمع، وهو ينظر إليه بعينين غائمتين، وبعقل يفكر في الأستاذ الذي لم يكره في حياته أحداً، كما كره ذاك الشخص ذا اليد المبتورة. كان أول درس له، عندما هاجم بشراً وأشخاصاً وناساً لم يخطر ببال أحد أن يكونوا قردة، وخنازير.. هكذا وصفهم الأستاذ، وصفهم بصوت صارخ قوي، لا بل تشاجر معهم أيضاً، واتهمهم بكل الموبقات التي ستدخلهم جهنم وبئس المصير، حيث سيصلون ناراً أبدية خالدة فيها..

في ذاك العام الدراسي، وكان في الصف الثامن الإعدادي، ظلت صورة استاذ مادة "الديانة" ماثلة في خياله، ليس أثناء دروس الديانة فقط، إنما في كل مكان. في الشارع، في البيت، في النادي، وفي المكتبة أيضاً.. كانت صورته لا تفارقه أبداً. ففي كثير من المرات كان يحاول عن قصد

أن يستبعد صورة وجهه وملامحه وتقاطيعه. كان في بعض الأحيان يضحك لحركاته أمام السبورة وهو يكتب عليها، وفي أثناء استماعه إلى الطلاب، وهم يستظهرون دروس الديانة أمامه. كان بعضهم يشعر بالخوف منه إلى درجة ما أن يقف ليتلو الدرس حتى ينسى كل ما كان قد حفظه من دروسه، في قراءة الآيات غيباً، وفي تفسير بعضها معتمداً على تفاسير الأستاذ لها، كما قدمها في الدرس السابق. كان الخوف يذهب بكل ملكات الحفظ لديه، فيتأتئ، وأحياناً يخرس ناسياً كل ما كان قد حفظه، كان قلة قليلة من الطلاب الذين يقدرون على أن يتمالكوا أعصابهم في حضرته.

كان ذا لحية سوداء خفيفة، وشارب محفوف، ونصف أصلع تقريباً. أما عيناه فكان الطلاب جميعاً، ومن دون استثناء متأكدين من أن لونهما حمراوين. حتى إن أحدهم قال، عيناه عينا جني والعياذ بالله.. وعندما التفت الطلاب إليه، كأنهم بذلك يريدون شرحاً وتفسيراً منه.. بلع ريقه، وقال: لقد أخبرتني جدتي بكثير من حكايات الجن، والأبالسة، والشياطين. كانت تقول: من بين كل هؤلاء فالجن وحدهم يملكون عيوناً حمراء اللون. أما البقية فعيونهم بلون عيوننا سوداء أو بنية، وقلة قليلة منها بلون أزرق أو أخضر. أما عن أنفه فكان غليظاً يشبه أنوف

الزنوج التي شاهدها في أفلام السينما.. لهذا كان دائم التفكير به، خوفاً لا إعجاباً.

وبعد خمسة شهور عرف أن جميع الطلاب في صفه كانوا يخافونه، حتى إن أحد الطلاب كان قد أخبر بعض زملائه، وكان الطالب من شعبة أخرى، الثانية كما يعتقد، بأن يخبروا المدير محتجين على أنهم لا يريدون هذا الأستاذ! فهو يرعبهم ليس بشكله فقط إنما بدروسه أيضاً، إلا أن بعض الطلاب قالوا له: لا تكن أحمقَ. متى كان للطلاب حق في تغيير الأساتذة واختيار الذين لا يرعبونهم؟ ثم هل هو بعبع حتى يخيف؟ لا تكونوا حمقى.. انسوا الموضوع، وحاولوا أن تتوافقوا مع الأمر، ثم لم يبق من السنة الدراسية سوى ثلاثة أشهر لا غير.

وجد في كلامهم الحكمة، لذا أنزل الحِمل عن كاهله كما يقولون، وراح يفكر بالتعامل معه.. فهو مجرد طالب، حقوقه قليلة، ومعروفة، احترام الأساتذة والعمل والتعاون معهم من أجل إنجاح العام الدراسي، والانتقال إن أمكن، إلى صفوف أعلى، والحرص على تربية الطلاب، وتقوية حبهم للوطن والدين.

كان استاذ الديانة ما أن يراه حتى ينسى كل واجباته المدرسية، والخاصة به. كان داخله يرتعد ويتساءل: لماذا هو دائم التقطيب، ينفر

الغضب من عينيه؟ ولماذا هو شديد العدوانية، ينظر إلى الطلاب كأعداء؟ وبكثير السخرية منهم. يقول لأحدهم، هكذا ببساطة: أتدري يا بني، كان ينطقها بسخرية، أن الله سيسلخ جلدك سبع مرات، وفي كل مرة سيعيده إليك، يكسو به عظمك من جديد.. هل تعتقد عدم كتابة الوظيفة أمر سهل على الله تبارك وتعالى؟ قد يكون أمراً سهلاً على الاستاذ، ولكنه أمر صعب جداً على الله تبارك وتعالى، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم، كيف يا.. لم تكتب وظيفتك، وهي ليست أي وظيفة، مثل الرياضيات، أو العربي، أو التاريخ.. هي وظيفة لمادة التربية الدينية، هي وظيفة دينية، فيها ذكر لله تبارك وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فيها قراءة للقرآن الكريم، كتاب الله يا ظالماً لنفسه، وذكر للحديث الشريف، فيها كل ما يذكرك بالجنة والنار، إن عملت صالحاً جنة ترَ وإن عملت طالحاً، جهنماً ترَ، هي تحميك من غرائزك الحيوانية، وتطهرك من نجاسات الدنيا، لتنقلب إلى عالم الطهر، إلى الجنة..

هذه كانت إحدى محاضراته الساخرة من الطالب الذي لم ينجز وظيفته. كان يرفع مادة" التربية الدينية" فوق المواد الأخرى، ويعدُّها الأسمى والأعلى، وكان يقول محرضاً: عليهم أن يجعلوا منها، يقصد مادة "التربية الدينية" مادة مرسّبة مثلها مثل مادة اللغة العربية.. حتى إن

وصلت أخباره إلى بعض الطلاب، بأنه كان يطرح هذه الفكرة في غرفة المدرسين بحدّة، ويتهم بعضهم بأنهم لا يناصرون دينهم الذي هم من غيره لا شيء، هم صفر..

كانت أراءه المتعصبه هذه تورطه في كثير من المشاكل مع الأساتذة، ويتهمونه بالخبل..

كثيراً ما فكر بأسباب تعصّب هذا الأستاذ لأفكاره التي يعدُّها حقيقة مطلقة، وعلى الجميع أن يأتوا إليها، دون احترام الآخرين الذين لهم آراء تختلف عن آرائه. حتى إن الخلافات فيما بينهم، كانت تصل إلى الإدارة، فكان المدير يضطر إلى استدعائهم والاستماع إليهم، ثم تقديم النصائح لهم. ويقال، عندما فقدت نصائح المدير حجتها، قرر أن يحيل الأمر في المرة القادمة، إن حدثت مثل هذه المشاغبات الطلابية، هكذا يستصغرهم المدير، إذ يحيل القضية إلى مديرية التربية والتعليم، لتحقق فيها، فهو لا يريد أن يصدع رأسه بمثل هذه الترهات.

يذكر أنه اشتبك مع الأستاذ مرتين خلال عامه الدراسي في الصف الثاني الإعدادي.. عندما كان الأستاذ يكتب على السبورة الدرس ويشرح ما يكتبه، لعلع صوت أحد الطلاب مع ضحكة خافتة، ساخرة، وهو يكمل قائلاً: 98..

توقف الأستاذ عن الكتابة، ثم أدار وجهه ببطء، ونظر إليه مباشرة، وقال له: ماذا تقصد بـ 98؟

تلفت فيما حوله، وهو يسأل: أتقصدني يا أستاذ؟

هزّ الأستاذ رأسه، أن نعم. أجابه: لا أعرف. ثم لست أنا من قال ذلك.

قال الأستاذ: لست أنت؟ لا تكن جباناً. أنت الذي قلت ذلك.

أعاد جوابه: لست أنا يا أستاذ..

ظل الأستاذ صامتاً، وهو يحدق في وجوه الطلاب، كأنه بذلك يريد أن يستشف وجه الطالب الذي ذكر الرقم، وعندما فشل، سأل: ألست أنت! أخبرني من قال ذلك من زملائك؟

يذكر حسن اليوم، كيف أن طلب الأستاذ قد أصابه في الصميم. شعر بأن أستاذه يريد منه أن يكون واشياً فهو لم يكتف بالرفض، إنما علق على طلب الأستاذ بشيء من السخرية المبطنة، فقال له: أستاذ، أنت في دروسك، وخلال العام الدراسي كله، تحدثنا عن الأخلاق والكرامة، والصدق.. تريد منّا، نحن الطلاب أن نكون ملائكة، فكيف تطلب مني أن أكون واشياً على طالب صديق؟ أليس الوشاة يدخلون النار يا أستاذ؟

ظل الأستاذ ينظر إليه طويلاً، وهو يفرك قطعة الطباشر البيضاء بين أصبعيه ما لبث أن انفجر بضحكة قوية وصاخبة، حتى إنه لوى عنقه إلى الوراء فبانت نواجذه، ثم عاد والتفت إليه، بعد أن كف عن ضحكه، وقال: لقد أفحمتني. لن أسألك عن الطالب غير المهذب الذي علق على ما كنت أقوله. ولكن أريد من أي منكم، أن أعرف ماذا قصد الطالب بـ 98؟ أقسم بالله تبارك وتعالى لن أعاقبه، ولكن أريد أن أعرف ما الذي عناه؟

أخذ الطلاب يلتفتون بعضهم إلى بعض، وكل واحد منهم على استعداد أن يقول شارحاً للمعلم ما قصده الطالب، لأنهم جميعاً كانوا يعرفون ماذا عناه الرقم 98 إلا أن أحداً منهم لم يجرؤ على النطق والقول تعني كذا.. عرف الأستاذ أسباب عدم تطوع أحدهم بالشرح والجواب على سؤال الأستاذ. لذا ابتسم، وقال: لقد حلفت بالله تبارك وتعالى، وقلت: لن أعاقب الطالب..

رفع طالب يده، وقال: أنا سأجيب. التفت الطلاب إليه عنما قال الأستاذ: تفضل..

ابتسم الطالب، وقال: كان، يا أستاذ، يقصد بالرقم، أنك ذكرت 98 مرة، خلال الدرس، جملة "تبارك وتعالى" بعد كلمة الله..

استغرب الأستاذ جواب الطالب، فسأل: وهل هذا يستدعي العدد؟

خرج الطلاب من حالة الترقب التي كانوا فيها، وتحركوا كل في مقعده بعد تنهيدة، فقال الطالب: لا.. ولكن يا أستاذ، أنت تذكر جملة تبارك وتعالى أكثر من الدرس. لذا اقترح الطلاب أن يعدّوا الجملة في كل درس لك. لقد كان العدد، في جميع دروسك لا يقل عن مئة وخمسين مرة وأنت تعدّد جملة تبارك وتعالى بعد كلمة الله..

لاحظ الطلاب على الأستاذ استياءه الداخلي، وهو يقول: أولاً لا نقول كلمة الله، نقول اسم الله تبارك وتعالى.. سكت الأستاذ، ثم ابتسم، وتابع: على الرغم من هذا، فهذا العدد قليل جداً مما يمكن للإنسان أن يتلفظ به أمام نِعم الله تبارك وتعالى التي ينعم بها علينا.. وضحك مع الطلاب، ثم تلفت حوله، ينظر إلى الطلاب. كان كل طالبين يجلسان على مقعد واحد، كانت لأول مرة، وجوه الطلاب تضحك في درس الديانة بوجود أستاذ المادة. وكان الوجوم سابقاً دائم الحضور.. على الوجوه، وفي حركات الأيدي، وهزة الرؤوس، والبسمات الخفية، والأستاذ يقول: الله، تبارك وتعالى. وبعض الوجوه المنحنية فوق المقاعد تهمس وراء طلاب آخرين يميلون بجذوعهم إلى الخلف ليسمعوا ما يقوله الطلاب الذين يجلسون على المقاعد الخلفية، وارتفاع همسات بعضهم، وشيء

من الضحك الخافت.. بينما كان الأستاذ ينبه، بلا صوت، وهو يكتب على السبورة الآيات والأحاديث والتفاسير وأيام الغزوات والفتوحات..

أما اليوم، وفي هذه اللحظة، فكان الوضع مختلفاً تماماً عما مضى من الأيام التي كان هو وبقية الطلاب في السجن، أو أشبه بالسجن؛ سجن أستاذ مادة "الديانة".. فراح يبتسم معهم، لا بل يضحك أيضاً، وهو يتحدث مع زملائه الطلاب بصوت منخفض، بينما كان الأستاذ، لأول مرة، يبتسم ابتسامة عريضة، كان قد خرج لتوه من حالة العبوس الدائم المفروض على وجهه..

في ذلك الجو، وتلك الساعة الثالثة بعد الظهر، وهي الأخيرة في اليوم الدراسي، وكان اليوم يوم خميس، ففكر أن يطرح على الأستاذ السؤال الذي رغب في طرحه دائماً..

يذكر أنه، كان قد طرحه فيما مضى من الأيام على نفسه عشرات المرات، إلا أنه لم يستطع أن يقدم لنفسه جواباً مقنعاً. كان الجواب لديه ينقصه شيء ما لكي يقتنع به، ليكون سنداً له، ليكف عن طرحه على نفسه. وربما يكون آخر مرة يطرحه.. إلّا أن الأجوبة، أجوبته لم تقنعه. يظل جانباً من سؤاله غامضاً، غير واضح، فهذا الجانب تحديداً كان يهدم له كل الجوانب الأخرى التي كانت تؤلف جوابه، وأجوبته على

مدى الأيام والشهور.. فوصل ذات يوم، منذ شهر تقريباً، إلى قناعة بأنه لن يجد الجواب الشافي، المقنع سوى لدى أستاذه، أستاذ مادة"التربية الدينية"، إلا أنه لم يجرؤ على طرحه عليه. كان الأستاذ دائماً في حالة من التوتر والغضب على الطلاب. كانت حالة التوتر ترافقه كظله، عندما كان يدخل الصف مع بدء الدرس. كان دائم التجهم، لا يعرف الضحك أو حتى الابتسام. كان دائم التهديد والوعيد بالنار للكفار.. ويسرد عليهم أعمال الكفار وكلام الكفار، وسلوك الكفار.. كان في بعض الأيام أمام اللوحة الكبيرة التي رسمها الأستاذ للكفار، يراجع نفسه ويبحث إن كانت تلك اللوحة تصيبه ببعض ألوانها من الكفر..

والآن، وفي هذا اليوم المرح من جانب الأستاذ والطلاب، تهيأ، بعد أن تنفس الصعداء ليطرح على أستاذه ما يؤرقه، ويهز له كيانه من الداخل منذ شهور وشهور.. كان يسأل، إن الله خلق كل هذا العالم من سماوات وأرض ونجوم وكواكب وشموس، وخلق بني آدم، وخلق الدنيا والآخرة، وكل البشر والحيوانات والنباتات، الله الذي خلق كل هذا، كان سؤاله: من خلق الله؟

كان الصوت عالياً، وصل إلى الأستاذ بالتفصيل، وأيضاً الطلاب الذين سكتوا وانكتمت أصواتهم، وأمحت ضحكاتهم عن وجوه من كان

يضحك، وندهت بعض الأصوات بكلام غامض غير مفهوم، حتى بدا كهمهمة احتجاج..

ساد صمت مطبق ومطلق، حتى حركة الهواء توقفت داخل الصف، وأيضاً خارج الصف حيث الأشجار كانت تظهر بوضوح في النافذة العريضة التي تغطي الحائط بأكمله..

نعم. سأل: أستاذ من خلق الله؟

تلفت فيما حوله بعد أن استغرب التحول الذي وجد نفسه فيه، وكأن العالم بأكمله قد أصابه الخرس، وكأن الزمن قد توقف، وتجمّد بعد أن انتهى من طرح سؤاله على الأستاذ، أو كأن دنيا بكاملها اختفت، وحلّت مكانها دنيا أخرى من الصمت والسكون وإمحاء التفاصيل..

اليوم، هو لا يذكر ماذا حدث بعد سؤاله في ذلك الزمن البعيد، يوم كان في الرابعة عشرة من عمره. استغرب في ذلك اليوم، وما زال مستغرباً حتى اليوم كيف اختفى الضحك والمزاح وبعض الكلام وبعض الابتسامات..

تذكر في تلك اللحظة، كيف كان دائم الحوار والنقاش مع صديقه فريد في كثير من القضايا الدينية. كان فريد يقول له: لا يهمني من الناس

عباداتهم وأشكالها! ما يهمني من الحالة الدينية التي هم فيها، هو الفكر الذي يقوم عليه هذا الدين أو ذاك.. لا يهمني إن كان الله موجوداً أم لا.. ما يهمني العدالة. نعم. يهمني أن تكون موجودة بين الناس، في حياتهم اليومية وسلوكهم العام، وأن تكون حافزاً للناس في حياتهم الأخرى. وكان يؤكد إنما حياة الناس الأخرى، التي يعيشونها فيما بينهم وبين أنفسهم. هل هم يؤمنون بهذه العدالة؟ أم هي مجرد إطار للزينة..

كان يستمع إلى فريد في بانتباه، ويفكر في جملة يقولها، ويأخذها على محمل الجد. كان متأثراً به كثيراً، إلّا أنه لم يصل به الأمر إلى الإيمان بالقناعات التي وصل إليها صديقه، وبنى عليها رأيه في الحياة..

في البيت كان لا ينام باكراً، كان يفكر بمعرفة سرِّ هذا الكون الذي لا يعرف الإنسان عنه إلا النذر اليسير، وأقل من القليل، كيف تكوّن؟ هل خلقه خالق؟ كان يقول لنفسه نعم. لا يمكن أن يكون قد تكوّن من ذات نفسه؟

كان فريد يرد: لنقل ذلك. هات أخبرني، إن كان الله هو الذي خلق هذا، أخبرني من خلق الله؟ كان يعجز عن الجواب. كان يميل إلى سؤال فريد، ويطرحه على نفسه من جديد: حقاً من الذي خلقه؟ وعندما كان يعجز عنه، أو لا يقتنع بالأجوبة التي كان يجيب بها على نفسه، وكانت

معظمها من الكتب التي قرأها، كان يقول: يجب أن أسأل من يعرف الجواب.. وعندما بدأ عامه الدراسي، رأى في أستاذ مادة" التربية الدينية" خير من يجيب على السؤال الذي يحيّره ويؤرقه، ويرميه في الشك.. شك يدفع ثمنه في أن يذهب إلى جهنم. إلا أن الأستاذ كان من عجينة غريبة، كان مرعباً في دروسه، لم تجر على لسانه آية من آيات الرحمة، وكان الله لا يحمل اسم الرحمن والرحيم، لا يعرف الله سوى اسماً كالجبار والقهار، لهذا لم تسنح له فرصة لطرح السؤال عليه. كان يريد أن يعرف جواب: من خلق الله؟ وظل لمدة ستة أشهر يتحين الفرصة للسؤال. وهاهي ذي قد جاءت. وها هو ذا الأستاذ يضحك ويمازح الطلاب، ويسمح لهم بالضحك والكلام والمزاح، على الرغم من أن الصف أصبح في فوضى درس الرياضة، أو الرسم والأشغال، فكيف بدرس مادة الديانة؟

لم يفكر بكل هذا، كان تفكيره محصوراً في أن يكف الطلاب عن صخبهم حتى يمكنه أن يطرح سؤاله من دون أن يشوّش على الأستاذ جو الصف وفوضاه، وعندما مرت بضع دقائق ساد فيها الصمت وقف، ومن دون أن يأخذ الإذن لطرح سؤاله، كان قد سارع إلى السؤال: من خلق الله يا أستاذ؟

كان جميع الطلاب خلفه. كان يجلس طوال سنته الدراسية في الصف الأول من صفوف الطلاب. كان الأستاذ أمامه، ينظر إليه.. تغيّر لون وجه الأستاذ من وجه ضاحك إلى وجه عابس، لا بل شديد العبوس، وأصبح لون جلده شاحباً. كل شيء في الأستاذ تغير، حتى لون البذلة التي يلبسها. كانت بلون كحلي فأصبحت بلون أحمر قرمزي. ثم رأى كيف طالت لحيته الخفيفة إلى لحية طويلة وغليظة وكثيفة، أما شعره فكان خفيفاً على جانبيّ رأسه، وكثيفاً في أعلى الرأس.

تلفت فيما حوله، والصمت يغرقه، ينظر إلى الطلاب من أجل أن يلمس منهم إن كانوا يرون تحولات الأستاذ مثلما يراها هو؟ تأمل وجوه الطلاب فاستغرب! كانت وجوههم جامدة كأنها من الحجر البازلتي الأسود. كان الجميع ينظر إليه نظرة خوف ممزوج بالدهشة. رأى على وجوههم ملامح من يتساءل، كيف أمكنك أن تطرح مثل هذا السؤال؟ كيف أمكنك حتى أن تفكر بمثل هذا السؤال؟ عندما فكرت بطرح هذا السؤال، ألم تشعر بنار تلهب لسانك وتحرقه من جذعه؟

كان الطلاب قد أصبحوا تماثيلاً وأصناماً من صخور جامدة لا حياة فيها.. وقبل أن يدير وجهه إلى الأستاذ، سمع جملة كانت أشبه بحكم قضاء ينطق الأستاذ بها:

اخرج يا كافر من الصف. إياك، ثم إياك أن تفكر بالدخول إلى دروسي بعد الآن. صمت، ثم زعق مزلزلاً الصف بالكامل: اخرج..

توقف عن الكلام، وصمت طويلاً. كان كل واحد منهما غارقا في ذاته، يفكر في أمر من أموره. هي لم تقدر على أن تعلق بكلمة واحدة على كل ما قاله، كما هو أيضاً لم يستطع أن يقول كلمة واحدة في كل ما قالته. حكايتها مع الطفولة، واكتشافها عالم الدين على يدي جدتها، لا تعتبر حكاية فريدة، لم تعشها سواها، فكل الفتيات في سنها عاشوا تقريباً تجربتها، خاصة في مجتمع تقليدي، شعبي. على الرغم من محاولات أعمامها وأخوالها إخراجها من هذا الجو إلى مجتمع معاصر منفتح على أفكار وسياسات النصف الأول من القرن العشرين. كان، هكذا ظن إن تجربته مع الدين تختلف عن تجربتها. كان القدر، هكذا يمكن أن يقول، يريد أن يلعب دوراً مختلفاً معه، وقد لعب على يديّ أستاذ ديانة متعصب، وأعمى.. يذكر، خلال خمس وأربعين دقيقة، وهي مدة درس الديانة أكثر من مئة مرة، جملة "تبارك وتعالى " كلما ذكر كلمة الله خلال درسه.

شعر بحركة من أصابعها تحاول بها أن تتحرش بأصابع قدمه، ثم تناهى إلى سمعه ضحكة ناعمة قالت له كل شيء. التفت إليها ونظر إلى

وجهها، وراح يتأمله، كانت تنظر إليه للحظة، ثم تغمض عينيها. وترمش وهي تدير وجهها عنه للحظة أخرى، ثم تعود ثانية تنظر إليه، وهكذا..

ابتسمت كأنها تقول: ما بك؟ لقد أطلت الصمت. ألم يعد لديك ما تقوله عن أستاذك؟

ابتسم لها، ثم مال بجسده عليها، سحب الشرشف قليلاً إلى الأعلى حتى غطى به كتفيه اللذين شدّ بهما كتفيها، وغاص بوجهه في عمق عنقها، وراح يلثم شحمة اذنها وهو يهمس، دعينا من أستاذي وجدتك.. ثم علاها، فاستكانت تحته، وما لبثت أن لفت ساقيها على ساقيه، وتموضعت على نحو يريحها تحته، ويريحه فوقها.

الرحلة الثانية

قطعة الحلوى

مرة أخرى، وهو في التاسعة، تذكر اليوم الذي قام فيه، مع والدته بزيارة خالته، كانت الزيارة في يوم من أيام شهر رمضان المبارك على الرغم من أنه لا يحب الزيارات مثل بقية الأطفال، وأيضاً لم يكن متعلقاً بخالته، تلك الخالة التي كانت غريبة عنه، على عكس خالته الأخرى، عائشة التي تصغر والدته بعدة سنوات.. واليوم لا يذكر سبب الزيارة. كل الذي يذكره، أن الوقت كان ليلاً.

شرد عن والدته وخالته وزوجها، وكل الأحاديث التي كانوا يتبادلونها، أحاديث لم تثره أبداً، ولم يكن فيها ما يثير خياله ويشدّه إليها.. ولكنه كان يلاحظ في بعض الأحيان، أن الحديث فيما بينهم يأخذ حالة من الحدّة والغضب، وفي حالة أخرى شيئاً من المرح، كأنهم يتذكرون وقائع في حياتهم الماضية، حالة من الفرح والضحك والتحسر على تلك الأيام التي أصبحت بعيدة، وأحياناً كان يأخذ شكلاً من السرية والكتمان، عندما يخفضون أصواتهم، وكان يسمعهم، لذا كان عليه أن يفتح أذنيه على الآخر حتى يعرف عمَّ يتحدثون،

وهو يتساءل، إن كان عن حق حديثهم بحاجة إلى كل هذا الحذر؟ وفي بعض الأحيان كانوا يخفضون أصواتهم حتى تصبح همساً، أو أشبه بالهمس. لقد بات ذاك اليوم بعيداً جداً، تاريخاً أصبح كالوهم الذي لا تستطيع أن تحدد حدوده وملامحه، ورسم صورته.

في ذلك اليوم البعيد، لم يشعر اليوم بأنه ينتمي إليه، ولم يكن يوماً من حياته. يوماً لا علاقة له به. كان يوماً خاصاً بوالدته وخالته وزوجها الشيخ.

أمران لم ينسهما أبدا :قطعة الحلوى التي أعطته إياها خالته، والأمر الثاني ما كان بينهم من حديث عن الله الذي سكب نوره على خالته وزوجها الشيخ حسين في شهر رمضان الكريم. يذكر استغراب والدته، ثم سخريتها مستنكرة أن يكون الله قد أغدق عليهما شيئاً من نوره. ضحكت ثم تساءلت: لماذا؟ ماذا فعلتما حتى يميزكما الله عن الخلق الآخرين، فالناس يصومون ويصلون ويتعبدون في شهر رمضأن؟

فجأة، هكذا بدا له الأمر، عندما أطلّت عليه خالته، وهي تحمل قطعة من الحلوى، قائلة: هذه من نصيبك، منذ يومين موجودة في "الشعرية"[3] لم يممسهاأحد، وكما يقولون، لا أحد يأكل نصيب غيره.

قلّب قطعة الحلوى بين أصابعه، تأملها.. لم تكن صلبة، وأيضاً لم تكن رخوة، هشّه. كانت وسطاً في صلابتها، مؤلفة من عدّة طبقات، أربع على ما يذكر. كل طبقة بلون يختلف عن الطبقة الأخرى. أحب منها اللون الأبيض الذي يذكّره بالحليب.. الحليب الذي يذكّره بدوره بجدته، يوم كانت تخض الحليب لمدة طويلة، تفرز منه بين فترة وأخرى مادة صفراء سميكة تعلو وجه الحليب. كانت تكشطه بالملعقة الخشبية، ثم تضع ما كشطته في صحن نحاسي عميق.. في بعض الأحيان يمتلئ بتلك المادة مقدار صحنين عميقين. كانت المادة أشبه بالزبدة، لا.. كانت زبدة. كانت جدته تفرشها على رغيف من الخبز الصاجي، وتلفه بعد أن ترش عليه قليلاً من الملح، وتعطيه إياه قائلة: كل..

هذا اللون الأبيض كان موجوداً في الطبقة الثانية من قطعة الحلوى، وأسفلها كانت الطبقة الوردية، والأخرى القرنفلية، أما الطبقة الأعلى فكانت بلون أصفر زعفراني. لا يدري لماذا كان، قبل أن يقضم منها

---

(3) خزأنة من الخشب. تنقسم إلى قسمين. في الأعلى يوضع فيه الطعام وبقية المؤكولات، والثاني، في الأسفل، توضع في المؤونة، وبقية الحبوب.

قضمة، على قناعة بأن طعمها سيكون كطعم شطيرة جدته، يميل إلى الملوحة أكثر منه إلى الحلاوة.

عندما كانت جدّته ترش الملح على الزبدة المفروشة على الخبز، كان يودان يقول لها: لا تكثري من الملح يا نانا.. إلا أنه لم يقل لها هذا في يوم من الأيام. كان يلتهم الشطيرة بشراهة، وهو يهرع إلى الأولاد في الزقاق ليشاركهم اللعب في تلك الصيفيات البعيدة.

عندما قضم حلوى خالته قضمة، أصيب بالخيبة، فقد كان طعمها حلواً، لا بل شديد الحلاوة..

توقف عن لوك اللقمة التي راح يحركها في فمه على مضض كأنه بذلك يحاول ان يجبر نفسه على استساغة طعمها. أراد أن يحوّله من الحلاوة إلى الملوحة ثم ما لبث أن تابع لوك اللقمة ببطء في البداية، ولم ينشط في لوكها إلا بعد أن سألته خالته: إن كان لم يستسغ قطعة الحلوى؟

ارتبك.. لم يعرف ماذا يجيب، نعم أم لا؟ ولكنه ابتسم، وقال: لا أعرف، فأنا لم أذق منها سوى لقمة واحدة.

لم تعلق. اكتفت بابتسامة، ثم التفتت إلى والدته وزوجها الشيخ حسين، لتتابع ما كانا يثرثرانه.

في البداية انتبه لحديثهم، وكان قد بدا له مشوقاً إلا أنه شرد بعد بقليل عن متابعته، فراح يفكر بقطعة الحلوى. كيف يمكنه أن ينتهي منها. كانت قطعة كبيرة، ومُشبعة حتى للجائع، فراح يقارنها بقطع الحلوى التي كان يشتريها من الباعة الجوالين. كانت كلها تتشابه في الطعم والحلاوة والمذاق. إلا قطعة واحدة لا يقدر على نسيانها على الرغم من أن طعمها حلو لايشبه طعم شطيرة جدته المالحة. تلك القطعة التي اشتراها من باب المدرسة، من بائع يحمل صينية على رأسه، وينادي عليها. يذكر أن القطعة كانت بفرنك[4] اشترى واحدة على الرغم من أنه كان منصرفاً من المدرسة إلى البيت، بعد انتهاء الدروس عصراً. تناول القطعة بأصابع كانت ملطخة ببقايا الطباشير الملون، فقد طلب منه الأستاذ يقوم إلى السبورة ويكتب عليها ما يمليه عليه، وكان درس إنشاء(تعبير)عن معاناة "بائع جوال" في تصريف بضاعته التي كانت من السكاكر، والمكسرات وبذر الشمس قبل أن يعود إلى بيته.. يعتقد بأن الدرس، وتعاطفه مع البائع هوالذي دفعه لأن يشتري منه تلك القطعة من الحلوى..

---

(4) الفرنك يسأوي خمسة قروش من الليرة السورية.

وقف، عندما قضم منها قضمة ولاكها في فمه، وقبل أن يبلعها شعر بطعم لا يوصف، كانت تذوب في فمه كأنها قطعة من السكر، استغرب، هل القطعة طازجة حتى كانت بتلك الهشاشة، أما طعمها فكان ذا مذاق خاص، لم يجده في حلوى أخرى تناولها سابقاً، إن كانت في البيت، أو لدى الباعة الجوالين.

يذكرأنه تلذذ بها كثيراً، حتى راح يأكلها لقماً صغيرة، ثم يلوكها طويلاً من أجل أن يبقيها أطول فترة ممكنة في فمه قبل أن يبلعها بلذة فائقة، وكان قد قرر بينه وبين نفسه أن يشتري كل يوم قطعة من البائع ذاته، إلا أنه لم يره بعد ذلك أبداً. كان يأمل دائماً أن يجده بين الباعة الذين كانوا يتجولون حول المدرسة، إلّا أن ذلك لم يحصل. فقد اختفى ولم يعد يراه أمام المدرسة.

كان قد قضم ما يقارب أربع لقم من قطعة حلوى خالته. وكانت ما تزال كبيرة. وما تزال والدته وخالته وزوجها يقصون القصة ذاتها، ويضحكون منها.

كانت القطعة شديدة الحلاوة، حتى إنها جرحت سقف حلقه من شدة حلاوتها. كانت نفسه قد سُدّت ولم يعد يقدر على أكل المزيد منها. تساءل ماذا يفعل؟ فهو لا يريد أن يجرح خالته بعدم إكمالها، ولا يريد

أن يقول عنها، لا بأس بها إلا أن سكرها الزائد جعلها صعبة الأكل، صعب على المرء أن يأكلها دفعة واحدة، عليه أن يأكلها على مدار ساعات النهار أو الليل. ثم تساءل: كيف يتحايل على نفسه ويقنعها بإتمام أكلها؟ فوجد خير طريقة أن يتصورها شطيرة جدته من خبز الصاج وزبدة الحليب ورشة الملح التي كانت جدته ترشه فوقها، وتلفها على نحو دائري. نعم.. بتلك الطريقة يمكنه أن يكمل أكل قطعة الحلوى.. وذلك ما فعله..

هو حتى اليوم يتذكر، دون أن ينسى التفاصيل، ما عاناه من أكل آخر لقمة منها بعد أن كانت أشبه بلقمة الزقوم.. انتهى منها، ولكنه لم ينتهِ من آثارها، فقد شعر بعطش شديد، وراح يحرك لسانه في فمه، وحول أسنانه محاولاً بذلك إزالة البقايا العالقة هنا وهنالك من تجاويف لثته وأسنانه، وهو يلتفت فيما حوله يبحث بعينيه عن إبريق الماء والكوب الذي يجب أن يكون إلى جانب الأبريق. لكنه لم يجده، فازداد عطشه. أراد أن يهمس لأمه بالأمر إلا أنه وجدها منخرطة في حديث تسرد حكاية ما، فعرف، لو فعل فإنها لن ترد عليه، أو لن تمنحه كوب ماء. وستظل تسرد حكايتها دونما توقف. التفت إلى خالته، لعله يراها تنظر إليه، أو تلتفت إليه فيمكنه أن يخبرها بصوت خافت عن عطشه، فقطعة الحلوى التي انتهى منها كانت كبيرة، وكانت شديدة

الحلاوة. فقد علق سكرها في سقف حلقه لمدة طويلة قبل أن يذوب وينتهي، إلّا أنه وجد خالته أيضاً مشغولة، وعلى وجهها بقايا ضحكة تنظر إلى أمه بانتباه شديد.

كانت قد أُخذت بالحكاية التي تسردها والدته، أما زوج خالته فرماه بنظرة من دون أن يفكر في أن يطلب منه كوباً من الماء. كان زوج خالته ينظر إلى والدته، وهو شبه شارد عما تتحدث، كانت الحكاية لا تعني له شيئاً، إنما السرد هو الذي يدفعه إلى الاهتمام بما تسرد..

ازداد العطش عليه، حتى شعر بأن سقف حلقه سيتشقق جراء نشفانه. في ذلك اليوم البعيد لم يكن يعي أن نشفان الفم من إحدى علامات مرض السكر، فاضطر إلى القيام من أجل الذهاب بنفسه إلى المطبخ ليشرب الماء، ويزيل تلك الحلاوة الزائدة.. لكن خالته التفت إليه متفاجئة، وهي تقول: ما بك؟

أجابها، بصوت مبحوح، وهو ينزلق بصعوتة فوق سقف حلقه، يريد بعض الماء..

قالت خالته: ابقَ في مكانك. سأجلب لك الماء. توجهت إلى المطبخ الذي كان معتماً، وبابه نصف مغلق، فأضاءه نور المصباح الذي أشعلته خالته.

راح حسن يستحلب ريقه بلسانه، وهو يلتفت فيما حوله كأنه يبحث عن شيء ما. تذكر أنه لم ينظر إلى داخل غرفة المعيشة التي يجلسان فيها. كان البيت بسيطاً بفرشه. ثلاثة مقاعد منجدة بقماش خمري اللون، وأريكة طويلة منجدة بدورها بنفس القماش الخمري، ومقعدان من الخيزران الأصفر توزعا في زاويتي الحائط الشمالي، يتوسطهما طاولة تحمل مذياعاً بعين خضراء مطفأة. أما جدران الغرفة فكانت بلون رمادي، علق على الجدار الجنوبي ثلاث صور لامرأة ورجل وصورة شاب بالكاد نبت شعر أسود على شفته العليا، وبعض الخيوط من الشعر امتدت على طرفي وجهه.. وكان الشاب يبتسم ابتسامة خفيفة، فيها شيء من السخرية الدفينة. أما الجدار الشرقي فكان عارياً من أي تزيين إلا من تجويف في أعلى الجدار. تجويف يستعمل لإخراج مدخنة المدفأة إلى الشارع في فصل الشتاء. كان التجويف مليئاً بالضوء المنعكس من المصباح المعلق على العمود القائم في الشارع، أما السقف فكان المصباح الوحيد المتدلي منه ينير غرفة المعيشة، وقبل أن يخفض وجهه إلى الأسفل، سمع خالته تقول له: هاك الماء..

نظر إليها، كانت تحمل كوب ماء. ابتسم لها بعد أن تناول الكوب منها، قائلاً: شكراً خالة.

أجابته: العفو حبيبي. ثم جلست إلى جانب زوجها، وهي تسأل: إلى أين وصلتما؟ أثار السؤال انتباهه فنظر إلى زوج خالته الذي أجابها: قومي أطفئي النور..

لماذا؟ تساءلت خالته.. أجابها زوجها: أختك لا تصدق.

ضحكت خالته وهي تقول: ستصدق.

وقامت إلى مفتاح الكهرباء، وأدارته بأصبعها، فانطفأ الضوء وسادت الظلمة.

تساءل: ما بهم؟ كأنهم أولاد صغار يلعبون لعبة الغميضة؟ سمع صوت زوج خالته، وهو يقول: اشعليه..

أضاءت خالته الضوء. سألت والدته: ماذا أردت بهذه الحركة؟

أجابها: سأحدثك عن أمر، ولكن لا تعترضي على حكايتي حتى أنتهي منها. أعرفك أنت تفتقدين إلى الإيمان.

ضحكت والدته وأجابت: أنا لا أفتقد الإيمان، إلا أنني أعرف كيف أستعمل عقلي في الأمور التي تعتقدها من البداهة.

لم يجبها إلا بعد فترة فقال: استمعي إليّ حتى الأخير. أنتِ تعرفين مدى تقواي وإيماني، وها هو رمضان يثبت ذلك، وقد منّ الله علينا، أنا وأختك طوال أيام رمضان الماضية بنور أضاء لنا أيامنا الرمضانية. أعرف قد لا تصدقين ذلك إلا إن رأيت النور بأم عينيك.

أجابته أمه: طبعاً لن أصدق. ثم إنني أعرفكما جيداً، فلا يميزكما عن الآخرين سوى صلاتكما وصيامكما.. فلا أعتقد بأن الله من أجلهما سيمنّ عليكما بالنور دون غيركما من عنده كما تقول. فأنا أعرف كثيراً من الناس يمارسون عباداتهم كما تمارسها أنت وزوجك، ولكنني لم أسمع منهم أن الله منّ عليهم من نوره.

ضحك، وقال: قومي أطفئي النور يا امرأة مرة أخرى..

اطفأت خالته المصباح الكهربائي مرة ثانية. تلفت مرة أخرى فيما حوله، فكان الظلام هذه المرة دامساً، لم يستطع أن يميّز حتى والدته، على الرغم من أنها كانت ترتدي ثوباً رمادياً. علا صوت والدته سائلة: هات أخبرني عن النور الذي منّه الله عليكما في هذا الشهر الكريم يا شيخ حسين؟

أجابها، وهو يضحك كمن انتصر في معركة: انظري إلى أعلى الحائط الذي أمامك..

رفع رأسه ونظر إلى الحائط كما طلب زوج خالته من والدته أن تفعل. حائط أسود تزينه بقعة نور دائرية في أعلاه لا غير. سمع أمه تقول: ها نظرت..

قاطعها الشيخ: هل رأيت تلك الدائرة النورانية المرسومة عليه أم لا؟

أجابته: رأيت. ما بها؟

ضحك زوج خالته، وأجاب: هذا هو النور الذي منّ به الله علينا. هل صدّقت الأن؟

ثم طلب من زوجته أن تعيد إشعال المصباح الكهربائي. ففعلت.

أغمض عينيه مرة، وثانية حتى استطاع أن يتأقلم مع النور الذي بدا له قوياً، ثم نظر إلى والدته التي لم تنبس بكلمة، وهي تنقل نظرها ما بين الحيطان الأربعة لغرفة المعيشة، وبعد زمن لا بأس به من الوقت، ضحكت، وقالت: أعتقد بأن النور الذي منّ الله به عليكما يأتي من الخارج، من المصباح الكهربائي المعلق على العمود في الشارع؟

ضحك زوج خالته ساخراً، وقال: أتعتقدين بأننا لم نفكر بهذا الأمر؟ لو كان الضوء المنعكس من الشارع إلى داخل البيت عبر هذه الفتحة

الخاصة بالمدفأة، كان سينعكس على الحائط الذي أمامه مباشرة، وليس على الحائط الآخر المجاور له.

قالت أمه: نعم. أعتقد بأن نور الله ما هو سوى نور المصباح الكهربائي المتسلل إلى الداخل ليس إلا.. وإن لم تصدق، قم وأغلق الفتحة لنرى إن كان النور سيبقى أم سيختفي؟ ثم أضافت ساخرة: لو بقي والله لتوضأت وصليت خلفك..

قام زوج خالته وهو يضحك، جلب السلّم الخشبي، وارتقاه، ثم سدّ الكوّة بكتلة من القماش، بعد أن جعلها كرة، ثم قال لزوجته: أطفئي المصباح حتى تصدق قليلة الإيمان هذه.

أطفأت خالته ضوء الكهرباء.. فغرقت الغرفة بالعتمة التامة، بعد أن اختفت تلك البقعة النورانية التي كانت تلوّن الحائط بلون أصفر.

ضحكت والدته، أما زوج خالته فالخيبة التي أحس بها كاد أن يقع عن السلّم، وهو ينزل عنه.

ضحكت خالته أيضاً قائلة: كنت، أظن الأمر ليس كما كان الشيخ حسين، يقول إلا أنني لم أجادله في "من نحن"، وماذا فعلنا حتى يسكب الله نوره علينا؟

هذه الحادثة، على الرغم من أنه لم يستوعب وقائعها كثيراً، ولم تأخذ اهتمامه فيما بعد، وعدَّها من ترّهات الكبار إلا أن الحكاية وخيبة زوج خالته وملعنة والدته ظلت شهوراً وهو يسمعها في الحي، بعد أن نشرتها والدته على نطاق واسع بين الأقرباء والمعارف والأصدقاء، فكان كل واحد منهم يرويها بطريقته ومن وجهة نظره في الواقعة.

كان يضحك، ولكنه ينتهي بعد ذلك إلى استذكار وجه زوج خالته، الشيخ حسين. كان يتساءل: حسين اسمه، ولكن من أين جاءته كلمة الشيخ؟ فهو لم يكن شيخاً في يوم من الأيام، حتى أنه كان أمياً بالكاد يفك الحرف، ويحفظ بعض الآيات التي يقرأها في صلاته اليومية.. لقد أثار هذا الأمر تفكيره وشغله كثيراً! وذات يوم تجرأ، وسأل خالته عن الأمر. فضحكت وقالت: كل الذين يطلقون لحاهم يطلقون عليهم لقب شيخ. لم يستوعب كلامها، إلا أنه لم يعلق، ثم نسي الأمر..

ظل الشيخ مدة طويلة لا يزورهم. كانت خالته تأتي لزيارتهم بمفردها فعاتبتها والدته، بعد أن تساءلت عن أسباب ذلك، ثم قامت هي بزيارته ودعوته إلى غداء ملوكي كما قالت. وهكذا تمت المصالحة بينهما. إلا أن الشيخ حسين لم يعد ذاك الرجل الذي عرفه سابقاً، قبل أن يفقد ليس رهانه فقط، إنما قناعاته التي كان مؤمناً بها كثيراً، كان على قناعة بأن الله لا يمكن أن يرفض لمؤمن به دعوى من دعواته.. مثلاً أن يطلب

الشفاء لابنها ووالده.. من دون أن يستجيب له بذلك. لقد طعن في الصميم بسبب الخيبة والخذلان اللذين شعرا بهما أمام ابنة حميه التي راحت تضحك، ليس منه، إنما من قناعاته التي كانت راسخة رسوخ الجبال في الأرض.

لقد كفت روحه المرحة عن المرح، وكف عن مزاحه وهذره ليصبح قليل الكلام، ولم يعد كالسابق يتكلم في الدين ورجالاته إن كانوا من القدماء أو المحدثين. رجال حباهم الله بكل جميل خلقاً وعملاً. كان يتحدث كثيراً عن مآثرهم، وحبهم للنبي عليه الصلاة والسلام، وسرد تفاصيل حياته كان قد حفظها من هنا وهنالك بعد أن صاحب رجال دين سنوات طويلة، ويؤكد على واجب الاقتداء به، وبأخلاقه وسلوكه، وبكل كلمة من كلامه.. كف عن كل هذا وأصبح الشيخ حسين رجلاً آخر تماماً.

وبالرغم من مضي سنوات طويلة، ما زال حسن يتذكر نهاية الشيخ حسين، كيف أصبح غريباً عن بيته وزوجه. كانت خالته تقول، وهي مفزوعة: لقد استبدلوه. هذا ليس الشيخ حسين الذي تزوجته وعرفته خلال سنواتنا، هذا شخص آخر، يشبهه بالشكل لا بالخلق والعمل! ثم نظرت إلى والدته بنظرة كأنها تقول لها: أنت السبب. أنت التي أطفأت النور الذي كان يشع في أعماقه. أنت التي أخمدت ذاك النور الذي سار

وراءه، وهو يحلم أن يكون شيخاً حقيقياً يلتف حوله الناس ليقص عليهم كل الحكايات التي عرفها، وسمع بها عن الصحابة ورجالات ذاك العصر المجيد، وكم كان يتمنى لو كان رجلاً من رجال ذاك الزمان.

في البداية، قالت والدته، وهي تعاتب نفسها: شعرت بشيء من الذنب لأنني كنت وراء ما وصل إليه من العزلة، وموت رغبته في الحياة، وانشراخ روحه. ماذا فيها لو كنت قد قلت له، في تلك الليلة البعيدة: حقاً إنه نور، نور سكبه الله عليك في شهر رمضان الكريم، وعلى أختي يا شيخ حسين. ثم كانت تعاكس نفسها وتقول: ولكن من أين لي أن أعرف بأنه سينكسر ذاك الانكسار الذي لم تلتحم نفسه بعد ذلك؟

كانت خالته تقول عن زوجها: دائماً يجلس في تلك الزاوية من الغرفة، يسند ظهره إلى الحائط، وينقل جسده بين فترة وأخرى من اليمين إلى اليسار مسنداً ذراعه إلى مخدة صلبة إلى حدّ ما، وعندما يتعب من جلسته تلك يميل بجسده إلى الطرف الآخر.. وهكذا طوال اليوم لا يقوم من مكانه إلا لقضاء حاجته.. حاولت في البداية أن أعرف ما به، كان ينظر إليّ طويلاً كأنه ينظر عبري إلى أمور لا يراها سواه، ثم يجيب، لا شيء. كان قد أصبح هزيلاً لقلة أكله، كنت أجبره على الأكل، فكان يضحك باقتضاب، ويقول: صدقاً لست جائعاً. لو كنت كذلك لأكلت بنفسي ودون أن تدعيني.

في تلك الفترة راح حسن يفكر بزوج خالته، ويقارنه ببعض الأبطال الذين قرأ عنهم في تلك القصص الدينية الذين زهدوا في الحياة، ومالو باتجاه العزلة، والعيش في عالم خاص بهم.

عندما توفي الشيخ حسين، شدّه كلام خالته عندما تحدثت عن موته قائلة لوالدته: منذ الصباح أخبرني بأنه يحس يالبرودة على الرغم من حرارة ذلك اليوم، وكانت قد تخطت الأربعين التي تعودنا عليها في مثل هذه الأيام الحارة، ثم قال: اجلبي حراماً وغطني به. ففعلت، ولم أقلق. قلت: لربما أصابه شيء من البرد في الليلة الماضية، لأنها كانت باردة إلى حّد ما. ثم التهيت بعمل البيت أولاً، بعدها ذهبت إلى السوق واشتريت خضاراً لطعام الغداء.. وفي طريق عودتي إلى البيت، رأيت جارتي، وبعد السلام.. حلفت أن أذهب معها لنشرب فنجان قهوة، ثم بعد ذلك ستساعدني في تحضير الخضار وتجهيزها للطبخ توفيراً للوقت.

أنهيت أعمالي لدى الجارة في الساعة الواحدة تقريباً. عدت إلى البيت، وكنت قد نسيت مرض الشيخ حسين، وما إن دخلت البيت ووضعت الأغراض في المطبخ حتى توجهت إليه، فرأيته على الوضع نفسه الذي تركته عليه قبل خروجي من البيت، فأحسست بشيء من القلق، ثم أصبح خوفاً عندما مددت يدي إلى جبينه، وأنا أنادي عليه وأسأله، إن كان يوجعه شيء ما؟

كانت حرارته مرتفعة، وكان متعرقاً. فتح عينيه بصعوبة، ونظر إليّ نظرة زائغة، ثم رمش عدة مرات قبل أن يجيب بصوت خافض مكسور: لا. إلا أن حرارتي عالية، هكذا أشعر..

ذهبت إلى المطبخ وبللت منشفة بالماء، وأتيت لأضعها على جبينه لتخفيف الحرارة، فقال: الله يعطيك العافية.. سألته، إن كان يريد شيئاً ما قبل أن أجهز الغداء؟ فأجاب: لا..

تركته ومضيت إلى المطبخ، وأنا قلقة عليه.. إلا أن عملية تجهيز الطعام أخذتني بعيداً، فكرت بكثير من الأشياء، بعضها كان قريباً، وبعضها يعود لأزمان بعيدة، إلى اليوم الذي تزوجنا فيه، ومصاعبها في تلك الأيام التي امتدت لأكثر من خمس سنوات حتى استقرت فيه أوضاعنا المعيشية. كنت خلالها قد أنجبت فيها صبيين، ثم عدت من جديد إلى تلك الليلة، ما قبل الشهور الثلاثة، ليلة الاعتراف بالصلاة أمام ذاك النور المنطبع بشكل دائري على الجدار.. في ذلك اليوم تساءلت كثيراً: كيف لم أفكر، أو نفكر نحن الاثنين عن تلك البقعة النورانية، عن مصدرها، لماذا اقتنعنا ببساطة ساذجة أنه نور من أنوار الله التي يسكبها على عباده في ليالي رمضان الكريمة.. لماذا لم نفكر بأن النور كان يميل بدخوله الحاد قاطعاً الجدار الذي كان من المفروض أن يتساقط عليه، أن كان آتياً من الشارع، من ذاك العمود الذي علّق عليه

مصباح ضخم لينير الشارع، إنما سيهرب ذاك النور من الجدار الأول الذي من المفروض أن يتساقط عليه، بحيث لا يمكن لك أن تتخيل إمكانية سقوط النور بتلك الطريقة الانحرافية بزاوية حادة على الجدار الثاني. المهم لم يفكر أيّ واحد منّا بهذا الأمر، وهكذا انطلت علينا روح الإيمان وكرامة ليالي رمضان فنسينا أن نفكر بعقلانية، إنما أخذتنا العواطف الجياشة المؤيدة بسور القرآن، وآياته التي كان قرأها الشيخ حسين في كل ليلة..

انتهيت من الطبخ، وأطفأت نار البوتغاز، ثم ذهبت إلى الشيخ حسين لأرى إن كانت الحرارة قد انخفضت أم لا؟

رأيته على حاله، ملتحفاً بالحرام، وهو يميل بجسده باتجاه الحائط، والمنشفة ما تزال على جبينه، وتحت يده. نادت به: شيخ حسين..

لم يرد. ظل على حاله من دون حراك. قلت ربما غرق في النوم. وصلت إليه، ثم ملت قليلاً فوقه، وأنا أكرر النداء: شيخ حسين؟

مددت يديإلى جبينه، لأرفع المنشفة عنها. كان ما يزال بها بعض البلل الرطب. ثم لمست جبينه. كان بارداً. ارتحت وأنا أضع المنشفة جانباً.. لكنني بعد لحظة قرص الخوف قلبي، لأنني تذكرت الفارق بين حرارة الجسد العالية وبين حرارته الطبيعية، فأنا لم أحس بتلك الحرارة

الطبيعية على جبينه. ندهت عليه من جديد، بصوت أقوى هذه المرة: شيخ حسين. لقد أصبح الطعام جاهزاً إن كنت.. لم أكمل عندما أزحت طرف الحرام عن كامل وجهه. كان فمه مائلاً قليلاً، ومفتوحاً، أما عيناه فكانتا نصف مغلقتين، جامدتي النظرة، أما جبينه فكان بارداً برودة الموت.

لقد مات الشيخ حسين ساعة العصر.

الشيخ حسين

بعد صمت طويل وشرود أشبه بالتأمل، التفت حسن إليها، وقال: لم أشعر بتأثير الشيخ عليّ إلا في السنوات الأولى من مراهقتي. قبلها، كنت قد نسيت الشيخ حسين تماماً. كانت حكايته قد تلاشت من ذاكرتي، كنت في سن، عندما مات، لا تعرف الحكايات الخاصة بالدين وكتب السيرة والصحابة. كانت كتبي المدرسية هي التي تهمني، لأنها تدفعني إلى التنافس مع بقية التلاميذ لأكون الأول في الصف، وليس الثاني أو الثالث، هذا إلى جانب، أن خالتي كانت قد خرجت من حياتنا، بعد أن تزوجت من شيخ آخر، كان اسمه كمال، ورحلت معه إلى مدينته، وهي مدينة صغيرة يعمل فيها زوجها الجديد مؤذناً. كانت المدينة بعيدة إلى حدّ ما، لذا كانت زياراتها إلينا قليلة. أحياناً تمر سنة دون أن نراها.

ولم تستيقظ ذكرى الشيخ حسين في نفسي إلا بعد أن أخذت الأسئلة تغزو رأسي. أسئلة كونية كبيرة لا يمكن لأي كان أن يجد لها أجوبة! أحياناً كنت أجد أجوبة عليها، إلا أنها لم تكن مقنعة بشكل كاف، لا أجد فيها ما يقنع بعد التفكر والتمحيص فيها لا يمكن أن تفسر لي حكاية بحكاية أخرى.. فهذا الأمر كوّن لديّ، في البداية، حكايتين، ثم

ثلاث، ثم عشرات الحكايات المتداخلة لتتكاثر الأسئلة العصية في ذهني، تدق جدران رأسي، وتتوغل في تلافيف عقلي..

من خلق هذا الكون؟ أين تكمن الروح التي تعيش في الجسد؟ لماذا حرّم الله أكل لحم الخنزير دون بقية الحيوانات؟

كنت طوال الليل أطرح مثل هذه الأسئلة على نفسي من دون أن أجد لها أجوبة، وإن وجدت فأنفيها في الصباح! فأظل سهران، ولا أعرف متى كنت أغفو وأغرق في النوم.

وفي كثير من الليالي كانت تلك الأسئلة تصبح صوراً وأشخاصاً وأشجاراً وشوارع، ومباني خربة وأخرى مشيدة أجمل تشييد.. حتى عندما كنت أستيقظ، وأجلس على طرف السرير، وأذهب في استحضار ذلك العالم الذي كنت أعيش فيه أثناء نومي، وأظل ساعات على وضعي، ولا أنهض إلا بعد أن اجيب على آخر سؤال كنت قد طرحته على نفسي، خلال نومي. تلك الأسئلة التي كانت تأخذ شكل الحكايات الممزقة، والأشخاص الغرباء، أو أولئك الذين، وكانوا قلة أعرفهم. كنت أستعيد هذه الحكاية التي عادة تكون جواباً على هذا السؤال أو ذاك.

كان السؤال الذي شغل بالي: ماذا حدث للشيخ حسين حتى ماتت رغبات الإيمان وتوهج الآيات في القرآن، والحماسة المنقطعة النظير في

أن يكون شيخاً يشار إليه بالبنان كما يقولون. هذا الشيخ الذي كان حسين، انطفأ فجأة، وأصبح أشبه بالجثة الباردة التي لا حياة فيها، حتى إن خالتي كانت تسأله وهي قلقة عليه: ما بك يا شيخ حسين؟ كان لا يجيبها إلا بعد زمن طويل، فكان يرفع وجهه إليها محدقاً، ثم يقول بلهجة لا مبالية: لا شيء. ثم يضيف سائلاً: لماذا تسألين؟ لم أنت قلقة؟ كل ما في الأمر أن تلك الليلة لم تكن ليلة عادية، كانت تختلف عن كل الليالي الأخرى. تلك الليلة استيقظت فيها على حقيقة، وهي، هكذا قلت لنفسي: كنت تعيش في وهم! هذا الوهم جرك إلى أوهام أخرى، رحت تكتشف أنها مجرد أوهام لا غير.. ثم دفعني هذا الأمر إلى أن أتذكر مراحل كثيرة من حياتي، منذ أن كنت شاباً ومراهقاً، وقبلها يافعاً وطفلاً. رحت أفصل كل الأوهام التي عشتها، وأنا الذي كنت أظن أنني أعيشها واقعاً يومياً. كنت أصدق نفسي لو أكثرت من الصلاة سأكون قريباً من الله، لا شك سيحبني الله، وسينظر إلي كشاب صالح، وأن يفكر فيّ، ويحقق لي ما أطلبه منه. نعم كنت أظن لو طلبت من الله شيئاً ما فلا شك بأنه سيلبيه لي من دون تردد.

ثم تابع الشيخ حسين لخالتي: عندما قرأ عليّ الشيخ غازي سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، دمعت عيناي. سألت نفسي: ماذا فعلت حتى يلبي الله لي ما سأطلبه منه؟ فحبيبه تعذب كل هذا العذاب قبل أن يعطيه

الله كل ما يريد. قلت: لا بد من امتحان، ولولاه لما استطاع النبي أن يكمل رسالته. لقد صبر على امتحان ربه..

هذا ما قلته لنفسي بعد أن قرأ على يديّ الشيخ غازي تلك الفصول والأوراق من حياة النبي عليه الصلاة والسلام. وهكذا اعتقد أن أمامي امتحاناً كبيراً قبل أن يلبي الله ما أطلبه منه..

الامتحان

في تلك الليلة بعد أن لجأت إلى النوم استعدت كل أيام رمضان العشرة التي قضيناها، أبحث عن تلك الساعة، أو ذلك اليوم الذي بدأ الله عز وجل فيه امتحاني. تساءلت: هل بدأ الله في امتحاني دون علمي، كي أكون صادقاً، وأنجح عن حق لا عن باطل، فأدخل حقل ألغام دون أن أعرف، وأن أقطعه إلى الطرف الثاني منه فيلقاني أحدهم، ويخبرني بأنني نجحت في امتحان قطع الحقل دون أن أعرف الأمر! فيقول لي: كانت نيتك صافية وقلبك محباً.

سألت: هل هذه الليلة كانت امتحاناً لي ليعرف الله كيف سأتصرف؟ وعلى ضوء سلوكي يمكن له أن يجعلني من رجاله الأحباء.. عندها فقط سيلبي لي ما أريد..

لم أجب، تابع: قلت، نعم إنه الامتحان..

هذا الاعتراف دفع بي إلى التفكير من جديد: ولكن ماذا يريد مني اليوم كي أتصرف وأتوجه إليه؟ ثم سأل خالتي: لا شك أنك لاحظت أنني، بعد تلك الليلة تغيرت، طبعاً لم أتغير إلا في حدود ضيقة، فأنا في الأخير مجرد عبد بين يديه، ولا أقدر إلا أن أعيش هكذا عن قناعة شئت أم أبيت. لذا عدت بعد ذلك إلى ما كنت عليه، بعد قناعتي أنني ما زلت

خاضعاً للامتحان، وربما أعيش اليوم أجواء السؤال الثاني، أو على السعي للجواب عليه، ويمكن هناك سؤال آخر، ثالثاً، أو رابعاً..

هذا ما فكرت فيه، في تلك اللية..

ظل الامتحان مثل قضاء عالق بذهنه، يفكر بشيء من القلق وهو يحاور نفسه، لا بأس ليكن الامتحان هو الأمر الذي وضعني الله فيه، وأراد أن يعرف مدى التزامي به، وبكل ما رسمه لي في كتابه، ولكن ما الأسئلة؟ فأنا أعرف، وكلكم تعرفون لكل امتحان لا بد من أسئلة لتجيب عنها، وإلا كيف يمكن لله أن يعرف، على الرغم من أنه يعرف، لأنه عارف بكل شيء، بأنني لم أهتدي بعد إلى نوع الامتحان والأسئلة التي عليّ الجواب عليها.. ولكنني بالسليقة كنت أعرف أنه يمتحنني في الدين، في سور القرآن وآياته والأحاديث، وحياة الصحابة وأخلاقهم.. لا يمكن له أن يفكر في أن يمتحني في أمور أخرى، مثلاً مقدار معرفتي في اللغة العربية، أو في حل المسائل الحسابية، أو كتابة الشعر.. إلا أنني، وأنا أفكر، قلت لنفسي وأكدت لها رأيي، إن كنت استطعت الخروج من المحنة التي وجدت نفسي فيها بعد تلك الليلة الشيطانية التي لم تخطر على بالي، ولم أظن بأنها ليلة فاصلة في إيماني، أنا الذي كنت أظن بأن الله لا يمكن له أن يمسك علينا، نحن من نؤمن به، ونموت لأجله، أن لا يبقي ذاك النور على ذاك الحائط، لتجعل ابنة حماي مني مسخرة،

خاصة أمام زوجتي، وأمام ابن أختها، على الرغم من أنه مازال صغيراً، ولا أعتقد أنه يمكن له أن يستوعب مثل هذه الأمور.. إلا أنه..

تنهد بعد أن تنفس بعمق، وتابع: كان على اللهألا يخيب ظني، وألا يخذلني أمام امرأة، أعرفها.. صحيح هي مسلمة، وليست كافرة، إلا أنها غير ملتزمة، وقد سمعت منها فيما سبق كثيراً من التجديف كنت أنبهها إليه، لكنها كانت تقول لي دائماً: إن كان الله الخاص بك الذي تصلي أمامه في اليوم كذا صلاة يخيفك، فأنا إلهي لا يخيفني، لأنه لا يعرف الكره، إنه إله متسامح، لا يعذبني لأنني شتمته مرة وأحد أنبيائه. إلهي طيب يا شيخ حسين.

كنت لا أريد أن أخذل أمام ابنة حماي، إلا أن هذا لم يحدث. لم أفكر بتلك الليلة بطريقة سوية، ظننت أن الله سخر مني فجعل من شقيقتك أداة سخرية، ولم أستعد هدوئي إلا بعد ثلاثة أيام مؤكداً أن ما جرى ليس حدثاً يمكن للمرء أن يقف أمامه، وكأن الحياة بكاملها قد توقفت..

بعد ثلاثة أيام عدت إلى وضعي الذي كنت عليه، إلا أنني في داخلي لم أكن ذاك الشخص الذي كنته سابقاً، لم أعد الشيخ حسين. كنت

شخصاً آخر تماماً، ولكنني لم أظهر ذلك. ظللت أبطنه في داخلي كيلا يقول الكفار عني. لقد.. لا أريد النطق بها.. أتدرين..

التفت ونظر إليها طويلاً. كان متردداً، هكذا شعرت، ولكنها لم تعلق. أنتظرته أن يكمل ما كان قد بدأه، ولم يمر وقت طويل حتى قال متابعاً: كانت خالتي قد عرفت تفاصيل ما آل إليه زوجها الشيخ حسين. خافت في أول الأمر مما أخبرها، إلا أنها فيما بعد، أخذت تشكك في كل كلمة نطق بها، لأنها تعرفه، فهي التي تزوجته وهو في التاسعة عشرة من العمر بينما كانت هي في الخامسة عشرة، سنوات طويلة عاشت معه، وعلى يديه عرفت المزيد عن الله والنبي والصحابة. أحبتهم، خاصة أولئك الذين وقفوا معه وساندوه في بداية دعوته.. وهكذا رحل، قالت خالتي، لا يمكن أن يرتد عن الدين، أن تتغير قناعاته بسهولة، فقط لأن الله لم يدعمه في تلك الليلة، أخجله أمام شقيقتها، جعل منه أضحوكة. قال بصوت حزين: أتدرين.. حتماً أختك قالت عني في نفسها، إنني غبي. غبي لأنني اعتقدت أن الله سيسارع إلى نصرتي، فقط لأنني أصوم وأصلي متقرباً منه، وكأنه بحاجة إليّ.. حاشا وكلا..

في البداية، تقول خالتي: حاول أن يخفي ما جرى في داخله من تردد وارتباك وتشوّش الذي أصابه، إلا أنه مع مرور الوقت راح يتكشّف لي هذا الأمر يوماً بعد يوم. لقد فقد الشيخ حسين إيمانه، أو ضعف

الإيمان لديه، ولم يعد يقوم بواجباته بذاك الحماس الذي عرف عنه.. إلا أنني لم آخذ الأمر على محمل السوء، ولم أنظر إلى سلوكه الجديد نظرة خوف من أن أراه ذات يوم ككثير من رجال غير الملتزمين بفروض الدين والطاعة، رجال لم يعرفوا يوماً نطق الشهادة، أو ذكراً لله..

أذكر عندما فاتحته على استحياء بالأمر، وأنا أطلب منه أن يشرح لي الأسباب، نظر إليّ، ثم ابتسم، ما لبث أن ضحك وقال: ألهذا الحد يا فاطمة؟

شعرت بالذنب إلا أنني قلت له: لا أعرف. ولكنني غير مرتاحة مما أنت فيه.. ولم أتركه يعلق، فسارعت منهياً حديثي معه قائلة: أرجو أن يكون ما أنت فيه مجرد أمر عابر لا غير.. ثم أضفت: بصراحة موقفك أثّر فيّ أيضاً، لأنني بدأت أشعر بأنني أهدر وقتي في الصلوات هذه.

ضحك الشيخ حسين ولم يعلق.

لم يطل صمته وهو يحدق في عينيها، في عمقهما فيرى صورته البعيدة، إلا أنه لم يهتم بهذا الأمر، فتابع: في هذه الفترة كانت غريزة التساؤل قد نشطت وتفاعلت في داخلي بشدة وقوة، فراحت تدفعني إلى حدود "التجديف"، طبعاً لم تكن لدي رغبة إلى هذا الأمر، لم أتقصد

أن أكون "مجدفاً" إلا أن نزعة جنونية في أعماقي هي التي دفعتني رغماً عني إلى هذا..

عدت أتذكر، تابع حسن، كل ما استطعته من التذكر عن الشيخ حسين منذ تلك الليلة الرمضانية إلى بقية الليالي والأيام التي حدثتني فيها خالتي أحياناً عندما كنت أحاصرها بالأسئلة عنه، أو لأمي في أحيان أخرى.. ففي مرات كثيرة كانت تتحدث مع نفسها بصوت عالٍ كنت كلما أسمع عنه حكاية منها كانت تبعث في نفسي سؤالاً.. وأحياناً كان السؤال نفسه يتفتق عنه عدّة أسئلة. كنت أحاول أن أجد لها أجوبة في الكتب التي كنت أزيد من ساعات قراءتي لها. أسئلة لا أخضعها للصواب أو الخطأ، كان بالنسبة لي هو أن أجيب عنها أيّ جواب كان. ولم يكن مهماً إن كان مقنعاً أم لا.. المهم أن أرضي غروري وهو أنني أجبت!

وهكذا بعد أكثر من سنة وجدت نفسي أعيش في عالم من الفوضى الفكرية، فوضى ما قرأته، وفوضى ما أجبت به على الأسئلة التي كانت تنشطر الواحدة عن الأخرى بسبب قراءاتي، وخاصة تلك التي تتعلق بالدين والله والأنبياء. كنت دائماً أتذكر جدتي عندما كانت تحضنني، والفصل صيفاً، ونحن ممددون على الفراش فوق المصطبة.. منذ تلك الأيام والأسئلة تتوالد في نفسي كما وأنا طفل، أسئلة لم تجب عليها جدتي، وأيضاً جدي عندما كنت أطرحها عليهما، بالرغم من بساطتها،

لأنهما لم يأخذا أسئلتي بجدية، كانا يتعاملان معها على أساس أنني طفل في السابعة أو الثامنة! حتى أنهما، هكذا، بدا لي الأمر، لم يأخذا ما كنت أطرحه على محمل الجد.

وها أنا من جديد، شاب يافع يطرح أسئلة، ويريد أجوبة عليها. يريد أن يعرف الله، وكيف خلق هذا الكون، ولماذا لم ينزل بنفسه لينشر الديانات الثلاث، إنما حمّلها لأنبيائه الثلاث لينشروها بين خلقه، ويعرف الجنة والنار.. أسئلة كثيرة لم يجبني عنها أحد. حتى أستاذ مادة الديانة لم يكتف بأنه لم يجبني، إنما كان سبباً في طردي من صفه.

صمت طويلاً بعد أن أدار نظره عنها، وراح يحدق أمامه في النافذة المغطاة بستارة زرقاء سماوية اللون. ثم قال بصوت خافت كأنه يتكلم مع نفسه: ومنذ تلك السنة رحت أبحث عن الله لوحدي بين الكتب التي أكثرتُ من قراءتها.

بلع ريقه وتابع: في السنة التي ذهبت فيها لأداء خدمتي الإلزامية كنت قد وصلت إلى نهاية البحث والسؤال والجواب. وصلت إلى قناعة أن الدين حالة خاصة بإنسان ما وليس بكل البشر. إنسان يبحث عن مهّدئ وتوازن نفسي لا غير، قد يبحث عنه طويلاً، أو يولد عليه فيرتاح بأجوبة قديمة عن كل الأسئلة التي كان يطرحها الإنسان.. وهكذا ينقل

هذه الأجوبة العتيقة من جيل إلى جيل آخر، فيرتاح من البحث ووجع الرأس في أثناء بحثه عن الأجوبة الجديدة على أسئلته.

هذا ما توصلت إليه في تلك المرحلة من حياتي، في تلك السنة التي ذهبت في شهرها الحادي عشر إلى الجيش بعد أن قطعت علاقتي بكل القصص والحكايات والأساطير الدينية، وبعد أن خرجت من عباءتها الخرافية، لأنني وجدت أجوبة جديدة لأسئلتي التي توالدت على مر السنوات.

أما الشيخ حسين فقد بدا لي في ذلك الزمن أحد المتمردين الذين اكتشفوا أجوبتهم الجديدة على أسئلتهم القديمة بعد معاناة وتجربة مريرة عاشوها بالجسد والروح. كنت كلما أتذكره أعترف قائلاً: لولاه لما كانت رحلتي التي استمرت عشر سنوات في البحث عن العالم الذي أردته، والذي بلغ تعداده بالمليارات من الناس. لم يتوقع، بعد أن سكت، أن تسأله عن الوقت: كم الساعة؟ التفت إليها، ثم نظر إلى الساعة المعلقة بمعصمه، وأجاب: تقارب الخامسة. لماذا؟ ردت: الخامسة؟ علينا القيام. يجب أن أكون في البيت في السادسة والنصف، هكذا وعدت أمي، لأن أشغالاً علينا أن نقوم بها لأجل الليل، ففيه ستكون سهرة لأخوتي مع بعض أصدقائهم، سيبحثون في مشروع ما، وعندما سألت أمي، ما هو؟ أجابت: لا أعرف. لم يقولوا، وأنا لم أسأل.

لا بأس. قالها، وهو يتابع: يا الله.. ثم نظر إليها، وقال مداعباً: أتدرين؟ لقد مضت علينا أربع ساعات وأكثر؟

ابتسمت بخبث وقالت: حقاً؟ غريب لم أشعر بها. هل شعرت أنت بها؟

ابتسم وقال معلقاً: أنت خبيثة! وقام من الفراش بعد أن أبعد الشرشف عن نفسه فوقف عارياً إلا من سرواله الداخلي.

ضحك وقال: سأذهب إلى الحمام.

صرخت به: لا. دعني أسبقك لأنني على عجلة من أمري. ثم بعد أن تدخل الحمام وتستحم سأكون قد انتهيت. ضحكت، وتابعت: أنت تعرف أن أمور المرأة في تهيئة نفسها قبل الخروج من البيت أعقد من أمور الرجل.

ابتسم وهو يهز رأسه، ثم قال: تفضلي، الحمام لك.

ضحكت، ثم قامت، وهي تشد أطراف الشرشف حول نفسها ولم يظهر من عريها سوى ساقيها الأبيضين. فراح يتذكر القبلات التي طبعها عليهما.. وأغلقت على نفسها باب الحمام.

على الرغم من أنه لا يدخن شعر في تلك اللحظة برغبة في التدخين. لماذا سرت هذه الرغبة دون الرغبات الأخرى التي يمارسها، لا يعرف! هز

رأسه، وهو يتناول آخر زجاجة بيرة من السطل الذي لم يبقَ فيه قطعة من الثلج، إلا أن الماء كان بارداً، ولكنه لم يكن مثلجاً.. فتح الزجاجة وعبّ منها كمية لا بأس بها دفعة واحدة. لكنها للأسف لم تروه.

جلس على الكرسي ومد ساقيه أمامه، وهو ينظر إلى النافذة، محدقاً عبر زجاجها إلى ذاك الأفق الممزوج بخط أخضر بعيد من الأشجار فبتلك المساحة الواسعة من السماء الزرقاء التي بدت شفافة في تلك الساعة. التفت إلى باب الحمام الذي فتح، كانت ملتفة بثوب الحمام، وهي تجفف شعرها بالمنشفة الحمراء، وعلى وجهها بسمة يشوبها الحياء. ضحك وأراد المزاح معها، وهو يقوم من الكرسي قائلاً: أريد قبلاتي..

هربت منه ضاحكة وهي تقول: أخجل. هيا إلى الحمام فهو بانتظارك. وما إن تخرج حتى أكون قد انتهيت وجهزت نفسي. لقد تأخرت. الساعة قاربت الخامسة والنصف.

لم يضحك. مضى إلى الحمام بعد أن التقط ثوبه الأبيض الخاص به من المشجب، ثم أغلق وراءه الباب.

منع تجول

بعد سنة من الزواج، وفي ليل طويل، وكان وحيداً في البيت، لأن زوجته ذهبت إلى بيت أهلها لمساعدة والدتها في تحضير كعك العيد..

في هذا الوضع تمدد حسن على السرير، وراح يفكر في السنة الأولى من زواجه، ولكنه، وقبل أن يفعل ذلك، حاول أن يستظهر ذكرياته عن قصة الحب التي عاشها قبل الزواج مع زوجته.

في البداية احتار كيف يمكنه، وبأيّ طريقة عليه أن يسترد ذكرياته! فبدأ بالظروف التي أحاطتهما لشهور عدة برفقة العمل الحزبي الذي كانا يقومان به، فالحزب هو الذي كان سبباً في هذه اللقاءات التي كانت طويلة في بعض الأحيان، وقصيرة في أحيان أخرى، وهما يعملان جنباً إلى جنب في المنظمة التي ينتسبان إليها، هذا إلى جانب اكتشافه فيما بعد، أنه يعرف تقريباً معظم إخوتها، أو بعضهم على الأقل، خاصة أولئك الذين يعملون وينشطون في صفوف الحزب أيضاً. ويذكر أن ظروفاً بعينها، جمعته بهم فرادى أو جماعة، وقد عرف عنهم البساطة والمودة والاستقامة.. وكان ذلك قد بدأ مع احتقان الظروف السياسية أواخر السبعينيات بين السلطة وبين " الطليعة المقاتلة" التابعة لحركة

الإخوان المسلمين التي بدأت باغتيال رموز العلم والأدب والسياسة للسلطة وحلفائها على مستوى البلاد.

ضمن هذه الأجواء من الصراع الذي غطى البلاد راح التوجس يركب الناس، وخاصة أولئك الذين يتصدرون المراكز القيادية من مديري الاتحادات والمؤسسات الرسمية، والشخصيات المستقلة المتحالفة مع الحزب الحاكم، فانتشرت "الكولبات" أمام أبواب المباني الخاصة ومؤسسات الدولة، وانتشارالأجهزة الأمنية فيها حرصاً على حياة العاملين من الموظفين.

ضمن هذا الجو نما حبهما وكبر، هذا إلى جانب عملهما الحزبي الذي كانا يؤديانه كنشاط جماهيري لتحقيق سياسة الحزب بين الناس. لم يعرف حتى الآن كيف بدأ حبهما، وفي أي يوم أو شهر، إلا أن اكتشفا ذلك؟ اكتشف بأنه يحبها وهي تحبه! من دون سعيها إلى ذلك.. شعرا بذاك الميل الخفي كل تجاه الآخر. استغربا! كيف حدث هذا؟ فهما لم يفكرا بالحب، أو التقرب من بعضهما، على الرغم من أنهما كانا يلتقيان يومياً تقريباً. فهو لم ينظر إليها كفتاة يمكن له أن يقع في حبها، وهي أيضاً لم تنظر إليه كشاب يمكن أن تقع في حبه!

هكذا، كما يقال، ومن دون مقدمات، وقفا ذات يوم أمام بعضهما بعد أن انتهيا من عملهما الحزبي، ونظر كل واحدإلى الآخر، وكانا قد وصلا إلى المكان الذي يفترقان فيه، ليقول لها: تصبحين على خير. وترد عليه: وأنت بخير. إلا أنهما، في هذه الليلة، لم يقولا هذا. وقفا وكل واحد منهما ينظر إلى الآخر، كأنه تذكر أمراً ما، أمر عليه أن يؤديه. وهذا الأمر كان أن قال لها: أحبك..

ضحكت وهي تطرق، ما لبثت أن رفعت رأسها، بالرغم من نظرتها الغائمة، وقالت: لقد سبقتني. كنت أود أن أقولها لك منذ ثلاثة أيام.

في تلك اللحظة، ومنذ تلك الليلة في يوم من أيام شهر آذار، لم يتابعا الكلام حول الحب والمشاعر إنما التفتا بحدة إلى الجهة الشرقية عندما سمعا رشقة من الرصاص تخطط السماء بخطوط نارية صفراء، ثم تتالت الرشقات.

طوال ثلاثة شهور التي بقيت القوات العسكرية في حلب، بعد أن انتهت من حصارها وتفتيشها بيتاً بيتاً بحثاً عن عناصر تلك الجماعة التي أطلقت على نفسها "الطليعة المقاتلة" لحزب الإخوان، كانا يلتقيان مرة واحدة في الأسبوع، وكان لقاؤهما عادة يكون بعد أنتهاء دوامها في الجامعة. كان هناك أمران يشغلهما، أوضاع المدينة وقصة حبهما التي

راحت تكبر مع مرور الأيام، وتتوهج مشاعرهما وتتصاعد في كل يوم، ورغبتهما في اللقاءات تزداد، إلا أن الظروف لم تسمح لهما بذلك. كان الخوف يسيطر على المدينة، بينما راحت الحواجز تزداد لتقطع مفاصل الأحياء والشوارع، ويحاول الناس أن يتخطوها عبر الطرقات الالتفافية من أجل أن لا يمروا بالجنود الحاملين أسلحتهم، مع حقوق مطلقة في إيقاف الناس رجالاً ونساءاً وشيوخاً، وخاصة الشباب منهم، ليقوموا بتفتيشهم، والبحث في بطاقاتهم الشخصية بدقة.

هذا الجو قلل من لقاءاتهما، وكانا، ما إن يلتقيا حتى يتحدثا عن الأوضاع والأخبار عن القتل والاغتيالات ومداهمة البيوت في هذا الحي أو ذاك، يبحثان في أعمال "الطليعة المقاتلة" المتمردة التي قررت خوض معركتها إلى النهاية، ومن جهة أخرى كانا يبحثان في أمور حياتهما الخاصة، أحاديث عن الحب، وأسئلة عن الحياة، وأحلام، وتمنيات، ورسم صورة عن المستقبل، وأحياناً، وفي مرات قليلة كانا يتحدثان عن حياتهما المشتركة. وأحياناً يتكلمان في العموميات، كانت في غالبها عن الإخوة والأخوات والأقارب..

وهكذا، ولأكثر من ثلاثة شهور ظلا على هذه الحال حتى انتهت الحملة على المدينة، وتخففت الشوارع من بعض الحواجز، وقلَّت المداهمات. يومها تنهدا طويلاً، بعد اختفاء الجانب الذي شغل حياتهما كثيراً، ولم

يبقَ أمامهما سوى النظر في حياتهما اليومية والتفكير في المستقبل الذي ينتظرهما. وبالرغم من آثار تلك الشهور التي حملت لهما بعض المنغصات فهما لم يستطيعا أن يلتقيا بحرية، ومن دون حساب العواقب التي يمكن أن تحدث.. ففي الأسبوع الذي طوقت القوات العسكرية فيه الحي الذي يسكنه، ولم يُسمح لآهليه بالخروج من البيوت والانتقال من حيّ إلى آخر، حتى تلك الأحياء التي تتشارك حدودهما، لم يُسمح يتخطي الحدود المرسومة للحي المحاصر وتفتيش بيوته بيتاً بيتاً.

يذكر عندما دخلوا إلى البيت، كانوا ضابطاً وعنصرين، وهم بكامل أسلحتهم، الضابط يحمل مسدساً على جنبه والعنصران يحملان بندقيتين من نوع كلاشينكوف الروسية. كان الضابط مهذباً. أدار نظره في جو الغرفة وهو يتأمل مفروشاتها، وخاصة الكتب المرصوفة على رفوف المكتبة. سأله عن نوع الكتب، بعد أن قلّب صفحات بعضها، فأجاب. ثم سأل أسئلة تتعلق بأمور سياسية ومعيشية، ثم حيّاه بمودة وخرج الثلاثة من البيت، وهو يعتذر عن الإزعاج الذي سببه في التفتيش. لكنه أضاف: علينا أن نقوم بواجبنا كما عليكم أنتم أن تقوموا بواجبكم، أن تعلمونا عن هؤلاء القتلة إن عرفتم عنهم شيئاً.

ظل خلال المدة التي قضاها محاصراً في بيته، قضى أيامها، نهاراً في القراءة أو مشاهدة التلفزيون، وفي المساء كان يذهب إلى أصدقائه ضمن الحي فقط. أما ما أخبرته به هي عن أحوال حارتها، فيختلف عما كان في حيه، إلا أنها أضافت، لقد وقعت حادثة مطاردة أحد المطلوبين، استطاع الهرب عبر الأسطحة، فقد تنقل عبرها لمسافة طويلة، ثم اختفى في آخر الحارة. قالت: شعرت بالخوف عندما تذكرت حكايات جدتي عن أعمامي الذين كانوا، في تلك الأيام البعيدة، مطلوبين من قبل الأجهزة الأمنية في ايام الوحدة، كما الإخوان اليوم.. ففي كل لحظة كنت أتصور أن دقاً عنيفاً سيكون على الباب، وقبل أن يقوم أحد لفتحه ينكسر الباب، ويتناثر قسم كبير منه إلى الداخل، وأن تلك الطفلة الصغيرة التي كنتها في تلك الأيام، تركض إلى حضن جدتها لتختفي فيه، ثم تبكي بشدة.

كنت أستيقظ من هذا الكابوس بعد فترة، وأتذكر بأن الزمن هذا يختلف عن زمن ايام جدتي واعمامي. أرى اخوتي في البيت، وأبي يجلس أمام التلفزيون، أما أمي فكانت في سنواتها هذه كثيرة الصلاة والعبادة. رأيتها في الزاوية متوجهة إلى "القبلة" تستعد لصلاتها التي كانت كالعادة صلاة طويلة.

كان أبي يمازحها حيناً، ويذكر حقيقة ما كان يشعر به، حين يقول لها: يا حجة عندما تنتهين من الفرض والسنة ماذا يبقيك في الصلاة بعد ذلك؟ ثم يضحك، لا تنتظري من الله أن يبقى معك أكثر مما بقي ثم يضيف، حتى إبليس لن يستمر في قعدته وهو ينتظر أن تنتهي من صلاتك، ليأخذ الإذن منك ويرحل. سيرحل يا حجة بعد أن غلبتهِ في صلاتك إلى امرأة أخرى، في مكان آخر، ليحاول أن يلهيها عن صلاتها.

كنا جميعاً نضحك إلا أمي. كانت تبربر بكلام غير واضح، وهي تلملم سجادة صلاتها، وتطويها، وتدسها بين الفراش.

ثم ماذا؟

لا تجيب.

يضحك.

فهذا الجو المضطرب والمشحون، والأخبار عن معارك، وصدامات جرت هنا وهنالك في أزقة المدينة، وبعض البيوت التي كانت مقرات سرية لجماعة الإخوان، ومحاولات الهرب، على الرغم من ساعات منع التجول الطويلة، والاشتباكات المسلحة في بعض الأحياء التي عُرف عنها التعاطف مع حركة الإخوان، في هذا الجو العام عاشا قصة حبهما.

لم يلتقيا يوماً، إلا وكانت الأحداث الدموية في بعض الأحيان، تأخذ أكثر ساعات لقائهما والحديث عنها. لهذا قرر أن يلجأ إلىأمر لم يرده في يوم من الأيام، من أجل أن يلتهيا عن الكلام عن هذه الأحداث، وأن يلتفتا إلى نفسيهما، فسألها: أخبريني، هل كان هناك شخص ما قبلي في حياتك؟

ابتسم وهو يحس بحرج السؤال، ثم تابع: إن كنت تجدين حرجاً في الجواب فيمكنني أن أبدأ أنا، إن أردت طرح السؤال نفسه عليّ، لكي أشجعك على ذلك.

ظلت صامتة دون تعليق، كأنها غرقت في نفسها، وراحت تفكر بالجواب، أو بالحرج لسؤاله المفاجئ. ظلا يتابعان سيرهما حتى آخر الحديقة، حيث اعتادا على الجلوس هناك، على كرسي قديم، ينفتح على مشهد لصف من الأشجار تعلوها سماء زرقاء صافية.

التفتت إليه، وقالت بطريقة مضحكة، وكلمات متقطعة: لا.. ليس لديّ مانع.. ولكنك فاجأتني. ضحكت. طبعاً سأسألك أنا أيضاً أن تحدثني عن علاقاتك السابقة مع النساء. ضحكت: لا بأس، ابدأ أنت من أجل أن أجمع أفكاري، وأرتب ذكرياتي..

أمسك براحة يدها، وهو يضحك، ويقول: أولاً، كأنك تظنينني زير نساء، حتى تطلبي مني أن أحدد لك عدد البنات. تابع، وهو يضغط على أصابع يدها: لا شك أن لي، أقصد كانت لي، بعض العلاقات في فترات مختلفة من حياتي، والأولى منها، كانت أيام مراهقتي. إلا أنني، أعترف، لم تكن أي واحدة منها جادة بالنسبة لي، إلا واحدة، وهي التي أعطتني درساً في الحياة كما يقولون.

كانت علاقاتي علاقات عابرة لأجل التسلي لا غير. لم أفكر بمستقبل أي واحدة منها لتنتهي بالزواج.. كلها، وهي ليست كثيرة، لم تتخطَ الثلاث أو الأربع علاقات، كأي شاب لا يرغب في الالتزام..

سكت قليلاً، ولم يتابع إلا عندما سألته: والعلاقة التي قلت عنها، كانت جادة، ماذا كان مصيرها؟

ضحك، وقال: سآتي على ذكرها.. كانت هي الأخيرة من بين علاقاتي، وكنت يومها في الثانية والعشرين. فتاة مسيحية، معلمة صف خامس ابتدائي، في مدرسة للطائفة الإنجيلية..

عندما أفكر اليوم بتلك العلاقة، أشعر بأن الأمر الرئيسي الذي دفعني لتكون جادة، هو بسبب التزاماتي الحزبية والفكرية، بمعنى أن أفكر بالزواج من الفتاة، هو فقط لأنها من دين آخر، فأنا ما آمنت به

من الأفكار، هي التي دفعتني إلى ذلك، ففي الموقف الديني، كنت قد قطعت صلتي تماماً مع هذا العالم الغيبي. كنت مقتنعاً بأن أولئك الأنبياء، ما هم سوى "مصلحين اجتماعيين" أرادوا تغيير العالم من حولهم نحو الأفضل، وعلى الصورة التي يريدونها ويحلمون بها. أما قضايا القومية فقد نظرت إليها دائماً من موقف إنساني بحت. فقد آمنت مبكراً بأن الإنسان هو الأهم لا دينه أو قوميته، وعزلت نفسي عن الأفكار، والمواقف المتعصبة، والمتشددة دينياً كانت أم قومياً. فقد خلق لي هذا الأمر كثيراً من المشاكل مع الناس، إلا أنني لم أهتم بها، ولم أحاول أن تأخذ من وقتي زمناً طويلاً بالتفكير بها.

لهذا، كنت أحاسب نفسي وأسألها، إن كنت عملت على تنفيذ ما كنت أؤمن به من الأفكار، أم لا؟ كنت دائم المحاسبة لنفسي بشأن هذا الأمر، عليّ أن أطبق ما أؤمن به من أفكار وقناعات اجتماعية. هذا كان دأبي دائماً. لهذا أخذت علاقتي مع الفتاة المسيحية جانباً مهماً من تفكيري، فقررت الزواج منها إن لم تقف في وجهينا مصاعب غير قضية الدين.

استمر حبنا ما يقارب السنة والنصف. السنة الأولى قضيناها في الحب دون التفكير بأي أمر آخر، حاولنا أن نمتع نفسينا بكل مباهجه، وألا يشغلنا عنها شيئ لم نفكر سوى بالحب خلال أيام السنة التي

عشناها.. وما إن جاءت الشهور الستة التالية، حتى اقتنعت تماماً بالزواج منها، خاصة رأيت فيها الفتاة التي حلمت بها، كانت تملك روحاً شفافة، وعقلاً راجحاً، وإرادة قوية لا تردها مشكلة أو معضلة عن الوقوف أمامها والاستسلام لها. كانت تجهد نفسها بالعمل حتى تحل المشكلة التي تعترضها.

منذ الشهر الأول، وكان شهر أيلول، فاتحتها بموضوع الزواج، وطلبت منها أن تعمل على حل المشكلات التي قد تعترضنا بسبب اختلاف ديانتينا.

لم تعلق. أهملت ما قلته لها، واستمرت في حديثها الذي كنت قد قاطعتها إياه، وكان الحديث ثانوياً، حول الصراع الذي كان قد نشب في الآونة الأخيرة ما بين والدتها وخالتها حول إرث بعد وفاة والدتهما، أي جدتها.

لم أعلق، ولم أكرر ما طرحته عليها. قلت لا شك بالأمر قد فاجأها، لهذا لم تعلق عليه بكلمة واحدة، لذا تركت الأمر إلى يوم آخر، لربما يكون أكثر ملاءمة من اليوم.. وهذا ما كان، وبعد ثلاثة أيام، عدت وسألتها الرأي في زواجنا؟ كان يومها قد مر أكثر من سنتين على عملي مدرساً في ثانوية "فيصل الملك" لمادة الأدب العربي. أي كنت مؤهلاً من

الناحية المادية لأتحمل المسؤولية. فقالت معلقة على اقتراحي: لماذا تريد أن تشغلنا بأمور الزواج عن الحياة الجميلة التي نعيشها. يقولون. ضحكت، بعد الزواج يموت الحب مهما طال من الأيام والشهور، ولكنه لن يبلغ سنوات.

ظننتها في البداية تمازحني بكلامها، فقلت لها معترضاً: هؤلاء الذين يتحدثون عن موت الحب بعد الزواج، هم أصلاً لم يتذوقوا طعم الحب قبل الزواج، حتى وإن أحبوا الذين يريدون الزواج منهم، فهم يعرفون الزواج، أما الحب فلا يعرفونه. ثم سألتها: وأنت ما رأيك بعيداً عما نقلته من الأقوال؟

سألتني: هل أنت جاد فيما تقوله؟

أجبتها: طبعاً. لو لم أكن جاداً لما طرحته عليك. ثم ها نحن في السنة الثانية من قصة حبنا، أعتقد بأن المدة الماضية كافية لمعرفة كل واحد منا للآخر؟

قالت: لا بأس سنفكر.. ولكن دعنا اليوم من الموضوع، لندع مناقشته ليوم آخر نكون مهيئين فيه أكثر لهذا الأمر.

قلت: لا بأس.

تابع: ظلت تتهرب من مناقشة أمر الزواج، ومستقبلنا في العيش معاً أكثر من ثلاثة شهور، حتى تشكّل لديّ انطباع بأنها لا تريد الزواج بي. لربما لم تجد بي ما كانت تحلم به. أو أنها لم تقتنع بي كفارس أحلامها، لذا تحاول أن تمتد المدة أكثر فأكثر؟

هذا الأمر أغضبني، فبدأت أفكر بقطع علاقتي بها، إن كانت لا تريدني فلماذا عليّ الاستمرار معها، ثم أنا لست من الشبان الذين لا يمانعون في التسلية باسم الحب مع الفتيات. لهذا أخذت أنتظر المناسبة التي سأقول لها: وداعاً.

في الشهر السادس بعد السنة الأولى، تم لقاء بيننا بالمصادفة، كنت عائداً من البلد إلى البيت، بينما هي كانت ذاهبة إلى السوق لشراء بعض الأشياء النسائية.. أمسكت يدي دون أن ترد على تحيتي لها، ثم قالت بصوت مخنوق: تعال. أريد أن أحدثك بأمر..

توجهنا إلى الحديقة، وكانت أقرب مكان يمكن أن نلوذ به بالسرعة المطلوبة، قطعنا المسافة ونحن صامتين. إلا أن داخلي كان مضطرباً، وأنا أطرح الأسئلة على نفسي، بعد أن شعرت بأن الأمر الذي تريد قوله، سيئ.

وصلنا إلى الكرسي الذي اعتدنا الجلوس عليه، وقبل أن أسألها ما الأمر، رأيتها تجهش بالبكاء بصوت مسموع، بالرغم من أننا في حديقة عامة يمكن أن نثير اهتمام الناس. سألتها: ما الأمر؟ لماذا تبكين؟

لا أريد أن أتحدث عن تفاصيل الموقف الذي وجدت نفسي فيه. كان ببساطة أن قالت: أحبك. لكنني لا أستطيع الزواج بك. أنت تعرف الخلاف الديني الذي بيننا. طبعاً سبب عدم قدرتي على الزواج منك، ليس أنا سببه إنما أختاي روز وإيملين. فإن تزوجتك فلن يتزوج أحد منهما. لن يرضى أحد من الزواج من فتاة متزوجة من رجل من غير دينها. ستبقيان عانستين. وأنا لن أكون سبباً في تعكير حياتهما.

بحثت الوضع بيني وبين نفسي، على الرغم من أنني صُدمت، وجرحني موقفها في الصميم، إلا أنني عذرتها، لا بل أكبرت فيها الموقف النبيل تجاه أختيها..

وهكذا انتهت قصة الحب التي كانت بيننا.

سألته: وكيف انتهى الأمر بينكما؟ أقصد كيف تم الوداع؟

أجابها: كان الموقف مريراً. تصوري أن اثنين يحبان بعضهما لكنهما عاجزان عن الاستمرار، ويجبران على الافتراق، وأن يذهب كل واحد منهما في طريق.

أتدري، سألته: لقد عشت مثل هذه اللحظة، إلا أننا لم نكن قد اعترفنا بالحب. كنا ما نزال في فترة الإعجاب. كانت علاقتنا أشبه بالصداقة، ولكن مع شيء من الامتياز! صداقة من نوع خاص مع التفكير بإمكانية تحول الصداقة إلى حب؟

تابعت: في سنتي الدراسية الأولى في الجامعة، جمعتنا عدة لقاءات بصورة عفوية، غير مقصودة. لم يكن أي واحد منا يفكر في ترتيبها، ومع التكرار أصبح يفكر في ترتيب هكذا لقاءات. وهذا ما كان. كنت قد ارتحت له في لقاءاتنا السابقة، وهو كذلك. فظللنا لمدة ثلاثة أشهر على هذه الحال. كنت ما إن أعود إلى البيت حتى أفكر به، وأسأل نفسي إن كان باستطاعتي أن ألقاه غداً؟ إلا أنني في الوقت نفسه كنت أسخر من نفسي ومن حالة الحب الغامضة هذه.

سكتت طويلاً قبل أن تتابع: ذات يوم غاب عن الكلية لمدة أسبوع، لم أستطع أن ألقاه عندما بحثت عنه في مقصف كلية الحقوق التي كان يدرس فيها، فقلقت، ورحت أفكر بأسباب غيابه، قلت، قد يكون

مريضاً، فهو من مدينة حماة، جاء إلى حلب للدراسة.. في اليوم الثامن، وكان يوم الثلاثاء رأيته يدخل المقصف ويتوجه إليَّ مباشرة مبتسماً.. وقف أمامي ثم سحب كرسياً وجلس، كان ما يزال على ابتسامته. اعتذر، وهو يقول: آسف. كان عليّ أن أخبرك بسفري. هذا، وإن انتسابي لكلية الحقوق كان أمراً مؤقتاً، لأنني كنت أسعى دائماً للانتساب إلى الكلية الحربية. وقد فعلت. وبعد صمت: فأنا منذ صغري كنت أحلم بالانتساب إليها. كان خالي ضابطاً، على ما يبدو قد انتقلت إليَّ عدوى حبه للجيش. لم أعلق على كلامه سوى بكلمة واحدة: مبارك. وهكذا، انطفأ الحب قبل أن يبدأ، أو ينير حياتنا، وتوقف كل شيء على حدود الحلم فقط.

ظل ينظر إليها، وهو يتساءل بينه وبين نفسه، إن كان هذا كل شيء؟ أو كانت قد حدثته بصراحة، ومن دون حذف جوانب ما من قصتها؟ إلا أنه لا يحق له أن يسألها عن تفاصيل حياتها، قبل أن يتعرف عليها، فترك الأمر لها، إن أرادت أن تحدثه فيه أم لا..

ضحكت، وقالت: سأحدثك عن علاقة أخرى. عندما كنت في الخامسة عشرة من العمر كانت القصة نوعاً من صبوة المراهقة، مع الابن الأكبر لجيراننا. كان في سنته الأخيرة من المرحلة الثانوية، أما أنا فكنت في الصف الثامن الإعدادي، اقتصر حبنا على لقاءاتنا

الصباحية، عندما كنا نخرج من البيت إلى المدرسة، كانت تقتصر على الابتسامات الخجولة، وبعض الكلمات وتحيات الصباح، والسؤال أحياناً عن أحوال الدراسة وفي آخر الزقاق كنا نفترق كل إلى مدرسته.

بعد صمت تابعت: ولكن القصة انتهت بشجار بين أخي وبينه، وكان شجاراً بالكلام. فقد أحرجه أخي عندما قال له: ألا تستحي على نفسك أن تستغل فتاة لم يجف حليب أمها على فمها بعد، وأنت الرجل الذي تستعد لتقديم شهادة البكالوريا؟ ضحكت، وقالت: أتريد الحقيقة، لقد شعرت بقهر عندما وصفني أخي بفتاة صغيرة لم يجف حليب أمها على فمها بعد..

وضحكا.

طفل الشجرة

تأمل حسن طفلته الوليدة طويلاً. شعر بالفرح لأنه أصبح أباً، ولأنه بات يشعر بالسعادة كلما قال: هذه ابنتي. كانوا يضحكون منه، ويقولون له: طبعاً هي ابنتك!

ثلاثة أيام بلياليها، لا يعرف ما يفعل، ولا يحسن التصرف. كل دقيقة أو أكثر يأتي إلى سرير الطفلة، ينظر إلى وجهها الوردي الجميل.. فيضحك فيما بينه وبين نفسه، وهو يقول بغرور: إنها جميلة، تشبهني.. نعم تشبهني. هذا الفم الصغير ذو الشفة السفلى الممتلئة، هو فمي. وتلك الشامة الصغيرة التي على خدّها الأيمن تشبه الشامة.. ولكن شامتي تقع على خديّ الأيسر. أما شعرها.. فتوقف عن المتابعة، متابعة وصف شعر ابنته، لأنه لم يقدر أن يصف لونه، إن كان أسود أو خرنوبياً كلون شعره. ضحك وتابع: لا شك بأن لونه سيتغير، سيميل إلى اللون الخرنوبي مثل شعري.

أخرجه صوت زوجته مما هو فيه. رفع رأسه عن طفلته النائمة في سريرها إلى زوجته مبتسماً لها، وهي تقول: ما بك؟

ضحك: ما بي من شيء، فأنا أتأمل وجهها الجميل الذي يشبه وجهك..

ثم تقدم منها، وجلس على طرف السرير الذي كانت متمددة عليه.

سألته: أأنت سعيد بها؟

أعاد جذعه المنحني إلى الوراء، وقال: كيف لا. أنا في منتهى السعادة.

سألته: هل خطر ببالك لو أنجبت لك ذكراً، لكان الأمر أفضل، ولشعرت بسعادة أكبر؟

أبداً. قالها بحزم. لم أفكر بهذا لحظة واحدة، ولست من الذين يفكرون بهذه الطريقة. ثم من قال لك أنني من أنصار الأولاد الذكور دون الإناث؟

ضحكت، وقالت: أمازحك. ولكن بالرغم من هذا أريد أن أعرف حقيقة مشاعرك إن كنت حقاً سعيداً، لأنها ابنة لا ابن..

غضب منها، وقال: إياك أن تقولي هذا الأمر مرة ثانية، سأزعل منك..

مدت يدها وأمسكت أصابعه، وقالت: لا عليك أمامنا سنوات طويلة لأنجب لنفسي ذكراً..

ضحك، وهو لا يعرف كيف طفت تلك الذكرى البعيدة في نفسه، يوم كان عائداً من منزل أحد الأصدقاء، وكانت الساعة حول الحادية عشرة ليلاً..

قال لها: أتدرين لو جلبت ذاك الطفل الذي لقيته مرمياً في حوض الشجرة، أمام مشفى التوليد، لكان لديك اليوم طفلاً متبنى عمره أكثر من خمس سنوات..

كانت دهشتها قد أخذت مداها، حين سألت: كيف؟

ظل ينظر إليها، ولكنه ما لبث أن قال: سأسرد عليك القصة..

ذات ليلة من ليالي الصيف، وأنا عائد إلى البيت من منزل أحد الرفاق، وكنا قد انتهينا من اجتماعنا الحزبي، فقررت أن أطيل الطريق، لأنني لو اختصرته، لكان لزاماً عليّ أن أمر بجانب مبنى "فرع أمن الدولة"، ومنه أعرج إلى الشارع الذي يفضي إلى بيتي. بالرغم من هذا قررت أن أطيل الطريق. وكان الطريق الذي اتخذته، يمر بالقرب من مشفى التوليد، ومنه أعرِّج إلى الشارع الفرعي حيث أتابع طريقي، بعد ذلك إلى البيت.

كان الليل يكاد أن ينتصف والسكون مخيم، إلا فيما ندر من حركة سيارة، أو عابر سبيل، فالحي حي سكني لا يوجد فيه حوانيت ودكاكين سوى مشفى توليد يقع آخر الشارع الفرعي الذي ينفتح في نهايته على الشارع العام، وما إن اقتربت من المشفى حتى سمعت صوت بكاء ضعيف. عرفت أنه صوت طفل صغير لا غير، فأدرت وجهي إلى المشفى، تحديداً إلى الطابق الثاني والثالث للمبنى.

كنت كلما اقترب من المشفى، أو بالأحرى من بابه الرئيسي الأسود كان صوت الطفل يعلو ويصبح أكثر وضوحاً. شعرت، بالصوت يأتي من خارج المشفى، لأنه لا يمكن لصوت طفل وليد أن يكون بهذا العلو وقوة الوضوح من الطابق الثاني أو الثالث من المبنى. كنت في تلك اللحظة قد وصلت إلى باب المشفى، حيث يقبع أمامه حوض فيه شجرة زيتون باسقة. تأملت الحوض حينها ارتفع صوت الطفل، وقفت أنظر إليه.. إنه طفل مرمي في حوض الشجرة بالقرب من باب مبنى مشفى التوليد.

تلفت فيما حولي طويلاً كأنني أبحث عن والديه، أو عمن تركه هنا.

لم أعرف التصرف! ماذا أفعل؟ وصوت الطفل يحفر في نفسي، كان عليّ أن اتصرف، فتوجهت إلى" كولبة" أمام أحد البيوت، على ما يبدو يسكنه أحد المسؤولين، وأخبرت من فيه بأمر الطفل. توّجه معي أحد

العناصر من الثلاثة الذين كانوا في "الكولبة" إلى حيث كان الطفل، فقام العنصر برفعه من حوض الشجرة والكشف عنه. سمعته يشتم من كان وراء هذا العمل الإجرامي، ويقول: إنه صبي.

نعم. كان صبياً.. أخذناه إلى المخفر، فكتبوا محضراً في الواقعة، ثم ذهبنا به إلى دار اللقطاء حيث أودعناه فيها.

عندما عدت إلى البيت، رأيت والدتي جالسة تنتظرني بقلق كبير، فليس من عادتي التأخر ليلاً وكانت الساعة قد بلغت الثانية صباحاً تقريباً. سألتني عن سبب تأخري، فأخبرتها بالحادثة..

بكت أمي، وشتمت أولاد الحرام الذين لا يخافون الله، ثم قالت لي: لماذا لم تأت به يا بني. كنا قد ربيناه نحن. كنت في تلك اللحظة حزيناً جداً، فأجبتها: لو كنت متزوجاً لجلبته معي..

ساد الصمت بينهما، كان كل واحد منهما ينظر بعجز إلى الآخر. كان يرغب في أن يقول لها: لو جلبته، لكان لديك اليوم الصبي الذي تحلمين به. أما هي فلم تقل شيئاً. فقط رأى الدموع تطفر من عينيها بصمت.

الرحلة الثالثة

[1]

بعد سنوات من الزواج، وإنجاب ثلاثة أطفال، صبيان وأنثى، والدوام في عملين، الأول في المؤسسة التي تعمل فيها، والثاني نشاطها الحزبي الذي تمارسه يومياً بعد عودتها من العمل.. بعد هذا الذي قالته في نفسها، أضافت: لقد تعبت!

خرجت الجملة معبرة عن تعبها، لا يعرف إن كانت تشكو أمرها له، أم لنفسها؟ شغله كثيراً ما قالته. لأنه فكر به طويلاً. فهي لم توضح عن أي تعب تتحدث، تعب العمل في المؤسسة التي تشتغل فيها، أم تعب العمل الحزبي اليومي، الروتيني الذي بات غير مجدٍ. عمل لم تعد نتائجه تشجع على الاستمرار فيه، فهو عبارة عن تكرار للكلام والشعارات، والعمل السياسي الذي لم يعد له علاقة بالسياسة، على الرغم من كثرة الاجتماعات واللقاءات، وكتابة التقارير عما أنجز من نجاحات، وبعض النقد للإخفاق مع ذكر المصاعب التي واجهت العمل اليومي للمنظمة التي تنتمي إليها.. وكانت تلاحظ عدم الصدق في حقيقة الإنجاز، وروح الاتكال، وشيء من النفاق لبعض المسؤولين، وإهمالهم للعمل تحت حجج واهية، وغير حقيقية.

في النهاية كانت تشعر بروح الكسل والموات بين جميع الذين تعمل معهم إلا فيما ندر من بعضهم، وسبب ذلك، تعتقد وتظن، لأنهم جدد في المنظمة، لم تمضِ سنة على وجودهم فيها.. فحماسة الأفكار والأحلام ماتزال متوهجة في نفوسهم، هي التي كانت تشعل روحهم في العمل اليومي، لتحقيق الأهداف التي ترسمها، عادة مع القيادة العليا للمنظمة. أما التعب بسبب العمل في المؤسسة التي تشتغل فيها، وهي المسؤولة والمديرة لإحدى أفرعها، وتحت إمرتها خمسة من العاملين. امرأتان وثلاثة رجال؟ وكان معظمهم لم يتخطوا الأربعين من العمر. كانت هي أصغرهم لم تتجاوز الثالثة والثلاثين من العمر.

في البداية ظنت أن التعب الذي تشعر به مؤقت، لأن هناك بعض الأعمال تنجز كما هو مطلوب، بسبب بعض الإهمال، ولكن ما إن يتم إنجازه حتى تعود الأمور إلى ما يجب أن تكون عليه. إلا أنها وجدت نفسها أمام حقيقة، أن لا شيء يجري على أرض الواقع كما يجب أن يجري، ليس في أفرع المؤسسة فقط، إنما في الفرع الذي ترأسه أيضاً. فإصلاح أمر في مديرية المؤسسة العامة، لا يتم قبل استدعاء رئيس هذا الفرع أو ذاك، وبعد حديث طويل، ونقاش مع مدير الفرع تخرج بنتيجة أن سبب العطل، أو الأعطال التي وقعت في أفرع المؤسسة العامة هو بسبب الأعطال الواقعة فيها الفرع أو ذاك، أي تقع المسؤولية على

الموظف لا على المؤسسة العامة، ومديرها. في البداية ظنت أن أسباب الأعطال، على الأقل في الفرع الذي تترأسه، سببه هو عدم ملاحقة العمل يومياً، ومتابعته بجدية، لذا كانت تلاحق العاملين أثناء عملهم، ومراقبتهم المضنية لتنقيذ واجباتهم دون تأخير، كيلا تجد المؤسسة العامة سبباً في وقوع أخطاء لديها كما كان يزعم المدير العام.

هذا الأمر، بالنسبة لها، كان أمراً يسيراً، لأنها ظنت، ما إن تصحح الخطأ، حتى يتوقف تعبها الذي باتت تحس به يومياً، بعد أن تراكم على مدى السنوات التي مرت على بدء عملها في المؤسسة، بعد تخرجها من الجامعة، وباتت تحس بالإرهاق الذي لا ينتهي مع نهاية دوامها، وعودتها إلى البيت لترعى أولادها وزوجها، ومايتطلبه البيت من أعمال.

ذات يوم، وهي في المطبخ، سارحة، دخل عليها، وسألها عندما وجدها على حالة السرحان تلك، ما بها؟ أتشكو من شيء؟

التفتت إليه دون أن تجيب، لأنها تفاجأت بسؤاله، فلم تعرف بماذا تجيبه، فالأمور التي كانت تفكر بها جعلتها تسرح عما حولها. في البداية قالت: لا شيء.. لا شيء سوى بعض السرحان..

توقفت عن الكلام، مفضّلة ألا تقول شيئاً، كانت تظن: حتى لو أخبرته بمتاعبها، فماذا يمكنه أن يفعل لها؟ هل يمكنه إيجاد حل، أو اقتراح ما. هو لا يعرف أسباب المشكلات التي تعانيها.

سمعته يقول: لا.. هناك ما تشتكين منه! وبعد صمت: قولي ما بك، قد أساعدك؟ خرجت من المطبخ متوجهة إلى غرفة المعيشة وهي تقول: مشكلات! وهل في هذا العالم غيرها.. كبيرة أم صغيرة؟ مازال واقفاً بباب المطبخ، وهو ينظر إلى ظهرها، وفي الوقت نفسه يستمع إلى ما تقوله. ثم سار خلفها عندما اختفت وراء باب غرفة المعيشة.

دخل وراءها إلى الغرفة، كانت قد جلست على الأريكة التي تُستعمل أحياناً سريراً خاصة ساعة القيلولة النهارية.. جلس إلى جانبها بحركة بطيئة، محاذراً إصدار صوت، وكأن أحداً ينام إلى جانبه.. وانتظر منها أن تكمل ما كانت قد بدأته من كلام.

نظرت إليه طويلاً، ثم قالت: كيف يمكن أن تعيش في جو كله عسكر، من أعلى الرتب إلى أدناها؟ محترفين، أو يقضون خدمتهم الإلزامية. هذا إلى جانب مجموعة من المدنيين، نساء ورجال تحتاجهم المؤسسة في تنفيذ أعمالها.. عالمان مختلفان، عالم لا يعرف سوى الأوامر، يخضع صاحب الرتبة الدنيا إلى صاحب الرتبة الأعلى، يخضع

في كل كلمة يقولها أو أمر يصدره دون أن يجرؤ على الاعتراض، أو إبداء الرأي. عليه أن ينفذ فقط.

سكتت قليلاً، ثم تابعت: أما العالم الثاني، هو نفسه، ولكنه عالم متغير، وغير ثابت، وغير محترف. سنتان يقضيها في المؤسسة، ثم يُسرح منها إلى بيت أهله، ليعيش حياته المدنية من جديد..

لقد لاحظت، تابعت، أن العالم الثاني، بالرغم من أنه متمم للأول، من حيث الوضع، إلا أنه، في النهاية، من الطينة نفسها" مجتمع عسكري". مع اختلاف في رخاوة القوة في إصدار الأوامر. عالم يشعر بأنه ينتمي إلى عالم الموظفين المدنيين أكثر منه إلى عالم المؤسسة العسكرية.

أما المدنيون فهم لا يعرفون التعامل مع شتى رتبهم سواء علت أمدنت.. هم في حالة توتر دائم، أكان ذلك خلال الحديث، أم العمل، أم طرح الأفكار والآراء المخالفة لما تلقوه، من أجل الأفضل. إلا أنهم لا يجرؤون على ذلك، لهذا تراهم ينفذون العمل بآلية، من غير اهتمام إنهم ينفذون ما يُطلب منهم فقط.

سكتت طويلاً، قبل أن تتابع: أما نحن، النساء، فأشبه بشيء زائد عن هذا العالم بالنسبة لهم، لا أحد يهتم، وإن حاول تراه مهتماً بجمال

قوام فلانة، وحلاوة وجه علانة.. وهات يا غزل، غزل مسموم غايته "التطبيق" لا غير. أما أعمالهن التي توظفن من أجلها فلا أحد يسأل عنها وإن سألوا، فيكون للانتقاد والتقليل من جهودهن، مغلفاً بتهديدات شتى، ولا يكون ذلك الاهتمام بجودة العمل، بل الترهيب، والضغط لأجل المآرب الشريرة..

عندما سكتت لم يجد كلاماً يمكنه أن يبدأ به سوى: لقد باتت الحياة غامضة! سكت، ولم يعرف ماذا يضيف، ولكنه تساءل: ماذا عنيت بأن الحياة أصبحت غامضة؟ لم يجب. بالأحرى لا يعرف الجواب!

ظل صامتاً، على الرغم من رغبته في الكلام، على الأقل، مخففاً عما شكت منه، من معاناتها في العمل، إلا أنه لم يستطع، فهو لا يعرف طبيعة عملها إلا بصورة عامة، لا يعرف تفاصيله. لهذا ظل صامتاً، وهو يشعر في قرارة نفسه بالذنب، لأنه ساكت صامت، لا يعرف كيف يتعاطف معها، لربما هكذا تفكر زوجته الآن، وتقول: هو لا يدعمني، لا يبدي أي مشاعر تجاهي يخفف بها معاناتي. لهذا، وتحت ضغط هذه المشاعر، قال لها أول فكرة خطرت على باله: ما رأيك أن نبحث لك عن عمل آخر، بعيداً عن هذه المؤسسة العسكرية التي لا تعرف من القائمين عليها سوى اصدار الأوامر، وعلى الآخرين، حتى لو كانوا من العاملين المدنيين، تنفيذها؟

أجابته: أتعتقد لم أفكر بهذا الأمر؟ لقد فكرت. ولكن المشكلة في اختصاصي، اختصاص لن أجد أية مؤسسة يمكن لها أن توافق على توظيفي.. لا ملاك لاختصاصي سوى في سلك التعليم. نعم التعليم فقط. والتعليم أنا لا أحبه. ليس لديّ القدرة والصبر عليه. تصوّر أن تجد، في كل صباح، أكثر من أربعين طالب وطالبة ينظرون إليك، ينتظرون أن تشرح لهم دروساً في الرياضيات! ضحكت، وهي تتابع: حتماً، بعد الدرس الأول، سأكون قد فقدت عقلي..

أتدري، تابعت: في المخبر، كلنا مدنيون، لا يوجد عسكري واحد، إن كان يحمل رتبة أو من دون رتبة، حتى نحن، كمدنيين، قد بدأنا، في بعض الأحيان نتصرف مع بعضنا كعسكريين، فأنا آمر معاونتي، ومعاونتي تأمر الذين أدنى منها مرتبة في العمل.. وهكذا، حتى إننا في بعض الأحيان، عندما نجد أنفسنا في هذه الحالة غير الطبيعية، نضحك، ونسخر منها، ثم نبدأ في تنفيذ السخرية عملياً، فأقول لمعاونتي، سيادة النقيب ممازحة، وهي ترد قائلة، نعم يا سيادة الرائد، ويضحك بقية العاملين، ويمارسون بدورهم ما مارسناه أنا ومعاونتي..

شارك زوجته ضحكها الساخر دون أن ينطق بكلمة.. ما لبثت زوجته أن عادت إلى وجومها، وهي تقول: لا شك أنني أتفهم ظروفهم. ولكنهم لا يفهمون ظروفي كمسؤولة، هم يظنون أنني أستطيع مساعدتهم، خاصة

في مجال ظروفهم المعيشية، مثل العلاوات والمهمات التي تضيف بعض المال إلى رواتبهم الشهرية.. ولكنني لا أستطيع، لو كنت أستطيع، لكنت أفدت نفسي، قبل أن أفيدهم، وقد أخبرتهم بهذا الأمر أكثر من مرة، إلا أنهم لا يقرون بصدق ما أقوله لهم. يظنون أن وضعي المادي جيدٌ يظنون أنني أعمل مدرسة في مجال الدروس الخصوصية بعد انتهاء دوامي في المؤسسة!

هذا إلى جانب عشرات الحكايات التي يُسمعونني إياها، وكلها تتحدث عن الظروف المعيشية الصعبة. كنت أحياناً أمازحهم، ولكنني في قرارة نفسي كنت أتمنى ذلك، وكنت أقول لهم، وأنا أضحك: ليس أمامكم سوى الإضراب، أو المظاهرة من أجل زيادة رواتبكم، هذا هو الحل الوحيد، وهذا الأسلوب يُستعمل في كل بلاد العالم. كانوا لا يشاركون ضحكتي، إنما ينظرون اليّ بطريقة السائل: كيف يمكنك أن تتفوهي بهذا الكلام؟ ألا تخافين؟ كنت أقول لهم موضحة: أنا أمزح. ثم أضيف كامتثال للأمر: الأفضل لنا أن نقنع بما نحن فيه.

قالت: لو كانت هذه المعاناة تمر مرة في الشهر، أو مرتين، لتحملها الإنسان، أما أن يعيشها يومياً، فلا يمكن تحملها، فالألم لا يحتمل.. ويمكن للإنسان أن يتحمله على مضض مدة ساعة أو ساعتين في

اليوم، أما أن يعشيه طوال اليوم، ويحس به لمدة أربع وعشرين ساعة، فهذا فوق طاقة البشر.

تابعت بعد أن لاحت ابتسامة حول فمها: الخمسة.. كل واحد منهم يحدثني عن حياته، يعرض عليّ سؤالاً مبطناً: كيف يمكن لي أن أساعده.. في البداية شعرت بالاستياء منهم، وأنا أقول لنفسي: ماذا دهاهم؟ لماذا يطلعونني على حياتهم؟ ثم كيف لي أن اساعدهم؟ هل يريدون أن أحل مشاكلهم المزمنة؟ أم إنهم يفضفضون بما يعانونه من القهر؟ فهم لا يعرفون أنني أعاني مثلهم، لكنني لا أشكو، فالشكوى لغير الله مذلة، وليس من عادتي فتح صفحات حياتي ليقرأها الناس، أو أن أدعوهم لقراءتها، منتظرة كلمة إشفاق أو تعاطف، أو شيء من الدعم المعنوي. وكلهم، دونما استثناء حدثوني عن حياتهم العائلية، وعن مشكلاتها بعيداً عن المشكلات المعيشية التي يعانونها، حتى إن النساء منهن أطلعوني على أدق تفاصيل حياتهن ومعاناتهن مع أزواجهن وأولادهن، ليس هذا وحسب، إنما حتى مع أقرباء أزواجهن.

في البداية، كما قلت، شعرت بالامتعاض، لكنني أصبت بشيء من الفضول لمعرفة المزيد عن حياتهن الداخلية، بحجة الاطلاع الذي يعطيك خبرة حياتية تكسبها عن طريق غيرك. تستطيع أن تعتمد عليها في حل مشاكلك في المستقبل إن حدثت معك.

واليوم، تابعت، عندما أحاول أن أفرد حادثة ما حكاها لي رشيد، عن حادثة أخرى حكاها عبد الرحمن، أو أن خديجة سردت عليّ تلك الأحلام الجميلة التي عاشتها، وهي في مرحلة الحب، قبل أن تتزوج من رجلها، أو ما أخبرتني به مفيدة عن تلك الوقائع التي حدثت، وتحدث يومياً بينها وبين حماتها التي تعيش معها. أو حتى تلك القصص الصغيرة التي كانت تنقلها لي فاطمة عن جاراتها، وبعضاً من أقربائها..

أذكر اليوم، أن كل ما قالوه لي، وسردوه عليّ، وأخبروني به، أو حتى تلك الأسرار العائلية التي همسوا بها قرب أذني، كل هذا اندمج ببعضه واختلط وأصبح عالماً واحداً، عالماً معقداً لا أستطيع الفكاك منه، وايجاد الحلول له، فأنا اليوم لا أعرف من الذي حدثني بهذه الحكاية، وأي واحدة سردت القصة الأخرى.. حتى النهايات لكل الوقائع والقصص والأخبار لم أعد أذكرها، لم أعد أذكر إن كانت هذه النهاية لتلك القصة، أم لغيرها..

كل الذي أحفظه اليوم عن ذاك العالم المعقّد الذي تكوّن وتراكم لديّ عبر السنوات الماضية من ذاك العالم البسيط الذي عرفته، منذ أن كنت شابة، أصبح اليوم معقداً، لا بل شديد التعقيد، حتى إني أقف عاجزة أمامه، لا أقدر على حل جزء صغير من جانب من جوانبه.

عندما سكتت. ضحك لها، وقال: وما زلت شابة!

كانت قد همت في أن تكمل حديثها، إلا أن جملة زوجها ألجمتها. نظرت إليه باستغراب بعد أن تساءلت: ماذا يعني؟ ثم سألته: ماذاعنيت؟ وقبل أن يفتح فمه ويجيب، ضحكت، وقالت: آ.. ها أنت تجاملني..

أجابها: لا والله. ماقلته هو الحقيقة. أنت مازلت زوجتي الشابة الجميلة. وبعد صمت، تابع بحزن: ولكن المشكلة.. أنا لا أعرف الاسترسال في التعبير عن مشاعري. أسكبها كدفقة ماء من صنبور تجمعت المياه فية طويلاً.

المهم. شكراً.. ضحكت: لقد قطعت عليّ الحديث..

قال: نعم. لقد قصدت أن أقاطعك بجملتي هذه، لأقول لك: أنت تعذبين نفسك عوضاً عن الآخرين. نعم صدقت. ولكنني بذلك أفضفض عما أعانيه أيضاً!

لزما الصمت قليلاً، وخلاله شعر برغبة حقيقية في التقرب منها، وملاصقتها، ليتأمل وجهها عن قرب، فهو منذ مدة طويلة لم يفعل هذا.

لم يقترب منها وينظر إلى عينيها. كان يلاصقها في السرير فقط، أثناء النوم.. قاطعت ما كان يتخيله: ما بك؟ كأنك تريد أن تقول شيئاً؟

تحرك من جانب الأريكة التي كانا يجلسان عليها. تحرك حتى لاصق جنبها الأيسر بجنبه الأيمن، ثم أحاط كتفيها بساعده، وشدّ بكفه أرومة كتفها، وراح يتأمل وجهها. كان التعب الذي تحدثت عنه حقيقياً. لقد ترك آثاره على تقاطيع وجهها الذي بان عليه بعض التغضن.. تذكر أن عشر سنوات قد مرت على زواجهما..

ضحكت بارتباك، ثم قالت: ما بك؟ أتحس بوجع ما، أو..

ضحك، وقال مجيباً: لا.. كل ما في الأمر أنني استعدت بعض الذكريات التي تكونت خلال السنوات الماضية من زواجنا. ثم لا أدري لماذا أشعر ببعض تأنيب الضمير؟ فأنا، أشعر كأن حياتنا التي نعيشها، هي التي أريدها، لأنها هادئة لا مشكلات فيها، لا غضب، ولا شجار، ولا زعل من هذه القضية أو تلك مما مرَّ بنا. حتى إنني في بعض الأحيان أحس بأنني أصبحت شيخاً راح يميل إلى السكينة والهدوء. خاصة بعد أن كبر الأولاد، ولم يعودوا صغاراً..

قاطعته: نعم. هو الروتين الذي، على ما يبدو، رسمناه لأنفسنا دون أن يرسمه أحد لنا. ثم تابعت: لقد فكرت بدوري بما أخبرتني به. فقد

سألت نفسي أكثر من مرة عن سبب ذلك، فلم أجد صورة أفضل من الصورة التي رسمتها أنت عن الأسباب، كنت أقول: أنتما رسمتما الصورة، ولا تريدون الخروج من إطارها. لأنني، تابعت: كلما رسمت الصورة الأخرى التي أردتها، كنت أفشل. كنت أصل إلى قول: لم نحاول أن نغير الطريقة التي نعيشها، نغير الصورة التالية: منذ الصباح الباكر ننطلق إلى العمل، نعود منه في الرابعة بعد الظهر، نتناول الغداء، ثم أقوم بمراجعة دروس الأولاد لنهرع بعد ذلك إلى أداء نشاطنا الحزبي هنا وهناك، في هذا الحي وذاك، مع الرفاق ذوي المنبت الفقير، حيث تعم أجواء الفقر والتخلف، أو نرحل إلى آخرين، في أحياء لا يسكنها سوى الأغنياء أو ممن هم متوسطو الحال! وهكذا لا نعود إلى البيت إلا في الساعة التاسعة أو العاشرة مساءً. عادة نعود والتعب قد أخذ منا ما أخذه.. وقبل أن تبلغ الساعة الحادية عشرة يكون النوم قد غافلنا، ورمانا فيه إلى صباح اليوم التالي.. وهكذا يتكرر الروتين نفسه في اليوم التالي..

سكتت لحظة، ثم سألته: أم أنا مخطئة؟

هز رأسه نافياً ذلك، معلقاً: طريقة في الحياة نحن اخترناها، لا أحد فرضها علينا. أجابته: نعم. وبعد صمت، تابعت: لقد أرهقني التعب.

[2]

ثلاث ليال لم يأخذ قسطاً من النوم. كان يفكر بكل ما قالته زوجته عن تعبها باحثاً عما قالته في نفسه، وهكذا طوال الليل، وقبيل ساعة الفجر، غرق في النوم، تعباً ويأساً من التفكير الذي لم يوصله إلى حل. فهو يعرفها. عندما تقول: لقد تعبت.. هذا لا يعني أن جملة قالتها.. لا أبداً، إنما بعد اعترافها هذا ستأخذ موقفاً ما؟

فكر، ثم قال لنفسه: وأنت ألم تتعب؟

طوال السنوات الماضية لم يفكر في يوم من الأيام بالتعب، فقد عمل طويلاً من أجل تحقيق حلمه، ولكنه فشل في ذلك، حلم كان مؤمناً به، فاكتشف بعد سنوات: هناك خطأاً ما في الحلم، واعوجاجاً في بنائه.. سابقاً لم يسخر من نفسه، كما يسخر اليوم. كان جاداً في نظرته تجاه العالم. كان يعود إلى البيت تعباً، بعد ساعات طويلة من العمل في صفوف المنظمة الحزبية التي ينتمي إليها، على الرغم من شعوره هذا، كان ما إن يصل البيت، حتى يخلع ثيابه، وينقع قدميه فى الماء الساخن ليرتاح من التعب، فيشعر بالراحة، ويصفى ذهنه.. كان جسمه يعود إلى حالته الطبيعية، بعد ذلك يفكر في تناول الطعام وشرب الشاي، وأكل بعض الفواكه.. ثم يذهب في الحديث مع زوجته، ملاعباً أولاده إن كانوا

مستيقظين، لأنه كان، في كثير من الأيام، يعود إلى البيت متأخراً، فلا يراهم سوى في أسرّتِهم نياماً. كان يسأل زوجته عنهم، فتجيبه: أكلوا ولعبوا، وأدوا واجباتهم المدرسية، ثم ذهبوا إلى أسرتهم.. وكما تراهم غارقون في النوم.

كان يقف قليلاً بقربهم، يتأمل وجه كل واحد منهم على حدة، وهو يشعر بالسعادة، فيبتسم لهم، ثم يرفع رأسه إلى زوجته، ينظر إليها بامتنان، وما يلبث أن يقول لها: هيا.. لندعهم في نومهم.

كانا يخرجان بعد أن يطفئا النور عليهم، ويتابعان سيرهما إلى غرفة المعيشة، وزوجته تسأله: هل ارتحت؟

ينظر إليها ويجيب: طبعاً. لماذا السؤال؟

تجيبه: رأيتك، متعباً جداً.

هز رأسه، أن نعم، ولكنه، تابع: ياليت كل التعب مثل هذا التعب الذي له حل، ألا وهو الجلوس مقدار ساعة من الزمن، أو أقل، حتى تشعر بأنك فضفاض تلعب بك الريح.

ضحكت زوجته وسألت: كيف؟

يعني، أجابها، ثم ضحك.

مثل هذا التعب له حل، وهو لم يشك منه في يوم من الأيام.

هدأت نفسه قليلاً، وهو يغمض عينيه، محاولاً أن يفكر بأمر غير أمر التعب الذي تحدثا عنه، إلا أنها لم تفصح عن أي تعب، على الرغم لو حاول التفكير في تفاصيل ما قالته، وصرّحت به لكان عرف عن أي تعب تحدثت، أو على الأقل لخمّن نوع التعب.

فتح عينيه. كان الجدار الذي أمامه مائلاً قليلاً! لا يدري لماذا تذكر الشيخ حسين عليه رحمة الله. إلا أنه، عرف الآن، كل ما جرى في تلك الليلة العجيبة والغريبة بين الشيخ ووالدته.. فضحك، وهو يعتقد بأن أمه كانت امرأة خبيثة على الرغم من طيبة قلبها، فهي دائماً رفضت رفضاً تاماً، أن ينتصر عليها رجل ما. كانت على قناعة بأنها تضاهي الرجل في كل شيء. ولم تظن، أو تفكر، أو تقل، إن الرجل أفضل من المرأة في كذا، أو كذا..

عاد يحدق في الجدار من جديد، رآه مستوياً، ليس فيه ميل! ابتسم فيما بينه وبين نفسه، وهو يقول: هذا غباء.. فيما تفكر به. كيف يمكن للجدار أن يكون مائلاً؟

إذن، قال، ما هذه الحالة التي رأى فيها ما رأى؟ لم يجد جواباً على تساؤله.. إلا أنه، بعد طول صمت، وهو ينظر إلى الجدار، عادت ذاكرته

إلى خمس وعشرين سنة إلى الوراء، يوم كان في الجيش يقضي خدمته الإلزامية، وكان- هذا ما يذكره تماماً- قد مضى على خدمته أكثر من سنة. كان يقول لجميع من حوله، ومن دون مناسبة، لم يبقَ لي هنا، في هذه الغرفة سوى تسعة شهور. وكان يذكّر نفسه ويُطمئنها إلى أن الشهور تركض كفرس، ولن يلبث أن يجد نفسه فجأة في الشهر الأخير من خدمته، لا بل في اليوم الأخير..

ذات يوم كان جالساً عند صديقه الحلبي محسن صبيح، في "براكة المحروقات" التي كانت تحت إمرته.. محسن هذا، كان يتقدم عليه في الخدمة بخمسة أشهر، كان على أبواب التسريح. ولم يبق له سوى ثلاثة شهور حتى يعود مدنياً، ويرحل إلى أهله في حلب. كان محسن يعمل في حياته المدنية في مجال السياحة والفنادق، خاصة تلك التي تحوي مطاعماً خاصة بها لتقديم الفطور والغداء والعشاء لزبائنها. لهذا كان بارعاً على الرغم من قلة المواد، في ترتيب الطاولة بقليل من الأطعمة.

يذكر، عندما تعرف عليه، سأله باستغراب: ما الذي دفعك إلى "براكة المحروقات" هذه، وأنت الطباخ الذي يشهد لك؟ لماذا لم تعمل في المطعم العام للواء، أو في مطبخ نادي الضباط؟

نظر إليه طويلاً، ثم أجاب: أتظن بأنني لم أفكر بهذا الأمر؟ لقد فكرت.. إلا أنني تذكرت، في الجيش لا أحد يعرف قيمتك كطباخ، سيعاملونك كعبد، قد تمر أياماً طويلة دون أن تسنح لك إجازة، أو سهرة، أو جلسة مع الأصدقاء.. ولأنك طباخ، فعليك أن تكون جاهزاً لخدمتهم في كل ساعة من ساعات اليوم..

لهذا، تابع: عندما سألوا إن كنت حقاً طباخاً، أخبرتهم: لا.. كنت مجرد نادل في لمّ "البوش" عن الطاولات في المطعم الذي كنت أعمل فيه قبل قدومي إلى الجيش.. فتخلوا عني وانتهى الأمر.

علق على كلام محسن: على كلٍ هذا ليس بالأمر السيء. فأنت سيد روحك هنا، في غرفة المحروقات هذه، لا أحد يأمرك.. ثم لديك مهام محددة، وهي أسبوعية، إن أديتها في يوم أو يومين، سترتاح بعدها بقية أيام الأسبوع.

كان محسن ينظر إليه مستمعاً لما يقوله، بينما في الوقت ذاته، كان يقول في نفسه: على ما يبدو لا يعرف معاناة هذين اليومين اللذين يتحدث عنهما، فمعاناتهما تضاهي معاناة أيام الأسبوع بأكمله، خاصة في أيام الشتاء، عندما يكون البرد قارساً، وأنت متسلق سطح الصهريج تملأ الخزان بمادة البنزين أو المازوت، فتتطاير المادة بفعل الهواء فتّبتل

من قدميك إلى رأسك، لتظل بعد ذلك، طوال الأسبوع تعاني من رائحة المازوت أو البنزين، حتى إنها تمنعك من النوم، لأنها، الرائحة، ستستقر في داخل خياشيمك، هناك في تجاويف أنفك، لا الصابون ولا الماء يمكن إزالتها.. ستزول مع مرور الوقت، وما إن تتخلص منها حتى يأتيك الموعد الجديد لأن تذهب إلى الكازية لملء الخزان.. هكذا طوال أسابيع الشهر والسنة..

ضحك، وهو يتابع لمحسن: نيالك. طوال أيام الشتاء لا تنقصك التدفئة ليوم واحد، وهذا الأمر وحده كفيل بأن يجعلك راضياً عن حياتك هنا، في براكة المحروقات هذه..

قاطعه محسن: دعنا من هذا الأمر. لديَ رغبة في كأس من العرق، ما رأيك؟

فاجأه محسن بالاقتراح، ولكنه ابتسم، وقال: لا مانع لديّ..

ظننت، قال محسن: ستقول لي: لا أشرب، أو إنه من المحرمات..

ضحك، وأجاب: هو من المحرمات، ولكن الله غفور رحيم.. سيغض نظره بسبب ما نحن فيه من المعاناة.

وضحكا..

إذاً. قال محسن. جهّز العدّة، أشار إلى خزانة في الحائط، ستجد كل شيء هنا. سأذهب إلى النادي لجلب بعض الثلج، فالعرق من دون الثلج، حتى في أيام الشتاء لا يستساغ.

لا بأس. قال.

خرج محسن، وهو يقول: لن أتأخر..

قام إلى الخزانة، وأخرج منها كأسين، وبعض العلب من لحوم سمك الطون والبقر، وبعض المازة من زيتون وعطون وجبنة، ثم مملحة، وضع فيها بعض الملح والكمون والفلفل الأسود.

قام بصفّها فوق الطاولة، وراح ينظر إليها برضى، بالرغم من هذا، كان ما يلبث بين فينة وأخرى يعيد ترتيبها من جديد، كأنه يجهزها لاستعراض ما. جلس على الكرسي، ثم رفع رأسه، وراح ينظر أمامه، إلى الحائط.. فلاحظ تموّجاً ما عليه. ظن أول الأمر بأن الدهان هو السبب، إلا أنه لاحظ أن التموّج ليس ثابتاً، إنما يتحرك تحركاً بطيئاً، بالكاد أن يُرى! ماذا؟ هل سكرت قبل أن تشرب؟

ضحك من نفسه. ماذا يقول محسن إن أخبره بذلك؟ حتماً سيضحك. لا.. لن يكتفي بالضحك، قد يظن بك الظنون؟

محسن هذا، كان متقدماً عليه في الخدمة الإلزامية، أكثر من خمسة أشهر، فقد تسرح في أواسط 1966، عاد إلى حلب، ولم يكن فرحاً للأمر. في البداية استغرب، وهو يتساءل: كيف يمكن لعسكري أن يتسرح من الجيش ولا يفرح لهذا الأمر؟ يخلع عن نفسه اللباس الخاكي المبرقع، ويرتدي ثياب الحياة المدنية، أي أن يلبس ما يريد من الألوان، ويختار الموضة التي يريد، ينام في الساعة التي يريد، ويستيقظ متى يريد. يخرج من البيت، أو يبقى فيه طوال اليوم، أي دون أمر أو التزامات؟ كيف يمكن لرجل أن يعيش هذه الحياة من دون أن يفرح؟

حاول أن يسأله عن ذلك إلا أنه لم يفعل. قال: ربما مزاجه هكذا. قد يكون فرحاً في داخل نفسه، ولكنه لا يريد لأمر ما إن يظهر هذا الفرح للعلن.

ففي أول إجازة، بعد أن تسرح محسن، ذهب في زيارة له، فرحب به كثيراً، وسأله اسئلة إن دلّت فتدل على حنينه إلى تلك الحياة التي عاشها في قرية "مسعدة"، وإلى "براكة المحروقات"، والصيد أيام الجمع والعطل الرسمية. فسأله: ماذا تفعل هذه الأيام؟ ضحك، وقال: لا شيء سوى الشغل.

عملك نفسه، أم غيرته؟

ابتسم: نفسه. فهو الوحيد الذي أجيده، وهو الوحيد الذي يمنحني مبلغاً جيداً من"البخشيش"، والعلاوات التي تفتقر إليها الأعمال الأخرى.

ثم طلب منه، في نهاية الزيارة، أن يزوره في المطعم، قال له: سأطعمك لحماً ومزة، وكأساً من الويسكي لن تنساهم طوال حياتك.. هز رأسه وأجاب: سأحاول..

كانت هذه أول زيارة لصديقه محسن وآخرها أيضاً. لقد أتته فيما بعد أخبار مقتله في حرب تشرين الأول 1973، عندما استدعي للاحتياط.. فأصيب بشظايا قنبلة، نقل على إثرها إلى المشفى، ثم توفي فيها بعد ثلاثة أيام متأثراً بجروحه.

حزن عليه كثيراً. على الرغم من أحواله النفسية غير الطبيعية، كان دائم القلق، لا يشعر براحة في أي مجلس.. يبدو غريباً عن الجو المحيط به، غير منسجم مع الذين من حوله، دائم الشرود، صامت في معظم الأحيان.. هذه الصورة لم يرسمها لمحسن إلا بعد أن افترقا بعد تسريحه، فقد ظل لوقت طويل يفكر به. شعر بأنه شاب غريب الأطوار.

دخل محسن مبتسماً، أغلق الباب وراءه وراح يتأمل الطاولة، وهو يحمل ثلاث علب من سمك الطون الصغيرة، وكيساً مملوءاً بقطع الثلج..

ضحك وقال: وكأنك كنت تعمل في مطعم، على الترتيب هذا. تابع وهو ما يزال يقف أمام الباب من الداخل: أحسن كرسون لا يقدر أن يرتب أفضل من هذه الطاولة..

وضع العلب جانباً، ثم أفرغ الثلج في سطل من الألمنيوم مع ملعقة طعام لرفع الثلج بها، ووضعه في الكؤوس. قال لمحسن: لا شك أنك تجاملني.. فأنا لم امدّ في يوم من الأيام مائدة إلا إن كانت للشرب، أو لطعام الغداء أو العشاء.. قاطعه محسن: لا والله.. ثم تابع: على الرغم من هذه عليّ أن أرتبها لتكون طاولة خاصة بالشراب..

ضحك، وقال لمحسن: ألم أقل لك..

لم يرد محسن، إنما انهمك في عمله، ففتح علبتي طون، وعلبة لحم بقرية، ووزعها على الصحون، ورتّب حقق الممالح الصغيرة، حيث وزّع فيها الملح والكمون والفلفل الأسود..

رفع رأسه عن الطاولة، وسأله: أتريد قليلاً من الفلفل الأحمر؟

فاجأه محسن بسؤاله، فأجاب: لا يمنع قليلاً منه..

سكب كمية قليلة من الفلفل الأحمر في عينة من المملحة، وهو يقول: انتبه، إن كنت لا تحب الحار مثلي، فإياك أن تكثر منه.. رشة منه تكفي ليلهب لك حلقك.

ثم جلس وراح يسكب في الكأسين قليلاً من العرق، ويزيده بعض الماء، فانقلب إلى مشروب أشبه بالحليب، ثم أضاف قطعتين لكل كأس من الثلج، وهو يسأله: هل يكفيك كعبا ثلج؟

اجابه: يكفي كعبان..

رفع محسن كأسه، وراح يتأمله، ثم قال له: بصحتك.

رفع كأسه، وهو يجيب: بصحتك..

ورشفا من كأسيهما رشفة كبيرة، وقبل أن يتناول أي واحد منهما شيئاً من الأطعمة، قال لمحسن: أتدري.. نظر إليه محسن، وهو ينتظر منه أن يكمل، فقال له:

كي لا تقول سكر صاحبنا قبل أن يبدأ بالشرب، سأقول لك أمراً شعرت به في غيابك وأنت تبحث عن الثلج..

سأله محسن: ما هو؟

هذا الحائط الذي أمامي..

سأله: ما به؟

أجابه: رأيته، يتماوج، وكأن خيالاً من الماء يتراقص عليه. فاستغربت ذلك، وسألت نفسي: ما هذا الذي ينعكس على الحائط.. حتى إنني تلفت فيما حولي، أنظر إلى بقية الجدران إن كانت بدورها تتراقص عليها تموجات المياه، فلم ألمح شيئاً. كانت، كل الحيطان ساكنة، معتمة في بعض زواياها، ومضيئة في أخرى..

ضحك.. إلا هذا الجدار.. طبعاً ضحكت من نفسي، وقلت: ها أنت تعاني من سكر مبكر، من "الريحة" كما يقولون. ثم قلت مصححاً: أنت ترى صورة تموجات على الحيطان، أما الحيطان فثابتة لا تتحرك، ولا تنزاح عن مكانها. لو رأيت الحيطان هي التي تتحرك، لكان من حقك أن تقول عن نفسك سكران قبل أن ترتشف من الكأس رشفة واحدة. لا بل قبل أن تسكب كوباً منه..

بعد صمت تابع: أتدري، هذه الواقعة حدثت معي أكثر من مرة. لقد عشت واحدة منها قبل سبع سنوات. ولكن في تلك المرة كنت أعرف السبب، أما اليوم..

قاطعه محسن: كيف؟

أجابه: سأختصر لك الحكاية التي عشتها كما قلت قبل سبع سنوات. ذات يوم، وأنا فتى يافع، في الثالثة عشرة، عشت صراعاً حاداً مع الدين، والأنبياء والكتب، وكل المقدسات التي عرفها الناس. لم أعرف الأسباب في تلك الفترة. إلا أنني عزوت الأمر، هكذا حاولت فيما بعد أن أقنع نفسي، أن بذرة التمرد الديني قد بدأت معي يوم سمعت من أمي قولاً قالته لقريب لنا، وكان رجل دين بسيط. قالت: لو كان الله عادلاً لما تركنا فيما نحن فيه من فقر، ولما أغدق على"عزو آغا" الذي، عندما يبدأ بالشتم والكفر لا يتوقف عنهما إلا بعد أن يصارع الله ويتغلب عليه، ويجالس الشياطين يرتشف الخمر معهم، ويسكرون ويذهبون في مطاردة ملائكة الله في كل الشوارع والأزقة، ويهدمون جهنم، لا يبقون عليها حجراً فوق آخر. أما الجنة، فكانوا يضحكون منها، ويقولون عنها: حتى بيت الخلاء أنظف منها..

كانت والدتي تقول سائلة: كيف يسمع الله كل هذا الكفر بحقه، ثم يزيد "عزو آغا" مالاً على مال، وجاهاً على جاه في كل يوم يمر عليه؟

أعتقد، أو هكذا أظن بأن هذه المعادلة التي سمعتها من والدتي، معادلة الفقر لعائلة تعرف الله وتخاف منه، ومعادلة الغنى لعائلة لا

تعرف الله، ولا تجيد سوى الهزء بكل ما أخبرنا عنه في كتابه الكريم. أذكر فيما بعد، أن هذه المعادلة، هي التي دفعتني إلى السؤال الدائم حول الدين والحياة والله وإبليس والأنبياء، وكل القصص والحكايات التي عرفناها من الكتب الدينية المتنوعة..

قال محسن، وهو يقاطعه برفع كأسه: بصحتك. ألم ينشف ريقك؟ لقد نشف ريقي؟

ضحك، وهو يرفع كأسه، ويقول: آسف.. لقد نسيت نفسي. بصحتك.

وتناول كل واحد منهما رشفة من كأسه. ثم تناول قطعة من سمك الطون وتناولها بتلذذ، بينما محسن يقول: هذا النوع من سمك الطون هو الأفضل من بين جميع الأنواع. وهو مصنوع في المغرب. أنت تعرف سمعة المغرب في مثل هذه الصناعات الغذائية. أنا شخصياً أفضّلها على الصناعة الإسبانية.

علق: بصراحة لست من محبذي أكل السمك. لا أعرف لماذا؟ إلا أن المشروب هو الذي يجعل سمك الطون المعلّب طيب المذاق بالنسبة لي. أنا أفضّل اللحم البقري المعلّب..

اللحم البقري جيد. قال محسن. إلا أنني أفضّل لحم سمك الطون على غيره، فهو لذيذ ويذوب في الفم.. ثم كما قلت أنت: هو لذيذ مع المشروب بصورة خاصة.

تابع محسن، سائلاً: أتدري. لقد فتحت بأحاديثك الدينبة، رغبة الحديث في نفسي، أنا أيضاً عانيت من تلك التساؤلات الدينية ذات يوم، إلا أنني لم أقف عندها كثيراً. تخطيتها دون أن تترك لديّ ما يقلق.. ولكن على ما يبدو، أن الأمر كان لديك أكثر تعقيداً. إن كنت تريد أن تستمر في حديثك فلا بأس. ضحك، على شرط أن يكون بينه انقطاعات لنتناول رشفة عرق ولقمة أكل..

ضحك، وقال: لا مانع.. ثم تابع: عندما اتخذت قراري أن أهمل الدين وملحقاته، وألا أتعامل معه بجدية، لأنني لم أعد مؤهلاً لذلك، شعرت براحة نفسية كبيرة، شعرت بأن عبئاً ثقيلاً قد أزيح عن كاهلي. عبء جعل حياتي لا تعرف الاستقرار والهدوء والطمأنينة التي يحتاجها الإنسان في كل يوم من حياته. شعرت في تلك الفترة كأنني وجدت الطريق الذي عليّ سلوكه، وهذا ما حدث بعد ذلك.. على الرغم من أنني كنت في بعض الأحيان، عندما أجد نفسي أمام معضلة لا بد من حلها، أو، على الأقل، إيجاد مخرج لها، كنت في هذه الحالة فقط، أتذكر الدين والله وكل الأنبياء والكتب السماوية. كنت أقول: كل المؤمنين، في

مثل هذه الحال، يتركون الأمر لله، هو الذي يستطيع، ولا أحد غيره.. وهكذا يرمي العبء عن نفسه ويوكل الله عليه، وكأنه يقول له: خذ، حلّ هذا الأمر فأنا عجزت عن حلّه.

في هذه الحالة فقط كنت أتذكر الله. الله الذي يعتقد به المؤمنون من كل الأديان والمذاهب والطوائف. إلا أنني كنت ما ألبث أن أبتسم ساخراً من نفسي، قائلاً لها: وهل من الضروري أن تحل المشكلة الآن؟ دعها قليلاً، لتصبح، أو لينضح عقلك، وأنت تفكر في حل لها.. ليمضي بعض الوقت حتى تنضج.. ثم أعلق: كل الفاكهة لا تسقط عن أشجارها قبل أن تنضج. وكذلك المشكلات لا تحل قبل أن تنضج حلولها.. عندها فقط سترى نفسك تحل الأمر وتفككه ببساطة. قد يأخذ منك الحل، وقتاً طويلاً، أو قصيراً، ولكن في النهاية ستجد الحل.

كنت أضحك، وأقول: إذاً أنت لست بحاجة لله لكي يحل لك مشاكلك. لا تكن اتكالياً..

والآن؟ قال محسن سائلاً.

أجابه: لا شيء.. لم يعد أمر الدين يهمني، ولم أعد أفكر به.. أما أمور الآخرة التي أحياناً أفكر بها، فأقول: لا يمكن لإله خلقني، أن يعذبني لهذا السبب أو ذاك، فالله أكبر من ترهات يمكن لأحدنا أن يفكر بها.

كاسك..

ورفع محسن كأسه وقرعه، وهو يقول: بصحتك..

وما إن ارتشف محسن من كأسه رشفة، وتناول قطعة من الخبز بعد أن غمسها في صحن الحمّص، ودسها في فمه، حتى قال، وهو يلوكها: بالنسبة لي، لم يستغرق، أمر الدين كل هذا الزمن الذي استغرقه معك. لقد اتخذت منه موقفاً.. لم يكن الدين يسببلي مشكلة، إنه دين، وكل إنسان له دين، مهما اختلفت هذه الأديان، أو هؤلاء المتدينون. عشت حياتي من دون أن أفكر به، إلا في أنه خير مطلق، وعلى الإنسان أن يعمل خيراً في حياته، أن يصارع نزعات الشر ويزيحها من نفسه، ويزيد نزعات الخير. أما ما تبقى من أن عليك كذا وكذا، حتى تكون إنساناً صالحاً.. فلم أقتنع بمثل هذا الكلام ابداً. لأن ما أعرفه، أن الله خير، فكيف له أن يعاقبني، أنا الذي سعيت إلى الخير طوال حياتي، وابتعدت عن الشر؟ أما أن يعاقبني لأنني لم أصلِ، أو أصوم..؟

بعد صمت طويل، تابع محسن: هكذا كانت علاقتي مع الدين، وما زالت اليوم. ثم ضحك، وقال: لنعد إلى تموجاتك التي رأيتها على الحائط، هل ما زالت موجودة، فأنا لا أرى سوى حائط يميل إلى الوساخة أكثر منه إلى النظافة.

ابتسم وأجاب: لا. على ما يبدو أن بعض الذكريات هي التي أعادت تلك الصورة عن التموجات إلى ذاكرتي، فأن عكست على الحائط المسكين..

وضحكا..

بعد سنوات طويلة، وبعد موت محسن إثر جراحه في حرب "تشرين1973"، يذكر.. في لحظة غامضة انبثقت صورة محسن في ذهنه، هذه الصورة، طبعاً، لم ينسها.. إلا أنه لم ينظر إليها نظرة جدية، ولم يفكر بأنها تعني شيئاً يمكن التفكير به. كانت الصورة، كما قال، غامضة، ولم تتوضح في ذهنه إلا بعد مرور سنوات.. وخلالها غابت عنه، كما غاب محسن بدوره عن ذاكرته. أو بصورة أدق تراكمت عليه كثير من الصور والوقائع والأحداث، وغطته تحتها بالكامل. يذكر أن المرات التي لاحت الصورة في ذهنه، عندما كان يحادث بعضهم عن الدين، وكيف أن هذا الأمر لم يعد يشغله، حتى صورة الله التي رسمها هو بنفسه في ذاته، كانت تختفي ولا يبقى لها أثر.

في أحد الأيام، وكان جالساً مع صديق قديم، من أيام الخدمة في الحيش، في قرية" مسعدة" سأله الصديق: هل تذكر محسن رحمه الله؟

في البداية لم يتذكر، ولكنه ما لبث أن فطن إليه، فقال له: طبعاً..

قال صديقه: ذات يوم تناقشنا طويلاً، أنا وهو، فيما كان من أمور حولك.. لقد أخبرني عن إعجابه بك وبوضوح ما تفكر به، وبالثقة التي تملكها في نفسك..

تساءل: وما الأسباب التي دعتكما للحديث عني؟

ابتسم الصديق، وقال: لقد اعترف محسن بأنك أثّرت عليه في قناعاتك الدينية، حتى بات ينظر إلى الدين بالطريقة التي تنظر أنت بها إليه.

قال لصديقه: لم ألمس، في تلك المرة الوحيدة، التي تناقشنا فيها بأمور الدين، أنني أجدت الحديث حتى أمكنني، أو أمكن لحديثي أن يؤثر به ذلك التأثير..

ضحك الصديق بشيء من الخبث، وقال: حقاً أنت..

وتوقف عن التذكر، ولم يرغب في إتمام الحديث، لسبب وحيد، وهو عدم جدوى النقاش بين إنسان تقليدي ينظر إلى الدين نظرة تقليدية مقدسة، وبين آخر ممتلئة روحه بالتساؤلات حول شؤون الحياة، ومنها الدين.

[3]

بعد سنوات من نشاطها الحزبي، في منظمة النساء، تستطيع اليوم أن ترسم صورة واضحة، وتفصيلية لكل المجتمع النسائي الذي عرفته خلال تلك السنوات، وكل الفئات الاجتماعية.. من الفئة الريفية، إلى الفئة المدينية من الأحياء الفقيرة، إن كانت النسوة من المدينة القديمة أو الحديثة. وعلى الرغم من تباين بيئة وأخرى، إلّا أن جميعها، مع اختلافات بسيطة بل غير عميقة، كانت تعاني من سلطة الرجل، وتسلّطه بدرجات مختلفة.. فالمرأة من أصول ريفية كانت معاناتها أشدّ من المرأة المدينية.. فعند الشكوى، كنّ يشتكين من أمر رئيسي تقريباً، هو: الموقف من المرأة..

كل رجل، من الريف أو من المدينة، عرفته كان متسلطاً بشكل عام لا يقبل المجادلة، ولا تُكسر له كلمة، خاصة ابن المدينة، لا يستمع إلى زوجته، ولا يعمل إلا برأيه..

هذه الصورة، هي صورة تقليدية، نمطية عن حياة المرأة، ولم يكن ثمة اعتراض من النساء عليها، إلّا في حالات نادرة، وعادة تكون فردية، فترتفع بعض الأصوات باحتجاج بعض النساء اللواتي كنّ من المُنتجات، لديهن دخل كموظفة، أو حرفة تعمل بها.

عرفت أيضاً، أن تلك الاحتجاجات على الرغم من أنها ايجابية، إلّا أنها كانت في النهاية تنتهي دون نتائج، كانت أشبه بفقاعة، ما تلبث أن تنفجر وتتلاشى. كانت تعرف، أن المرأة التي احتجّت لأمر ما ضد زوجها، أو والدها، أو أخيها.. أو أي ذكر من الذين يحق لهم إبداء الرأي بحياتها، ستشعر بالقهر والخيبة، لأن احتجاجها يذهب سدى، لم يفلح في أمر أرادته.. ولكنها، في الوقت نفسه، كانت، على المستوى النفسي، ترتاح. إذ تشعر بأنها، كما يقولون " فشّت خلقها".

هذا ما عرفته بخبرتها، وكانت شاهدة عليه خلال تلك السنوات التي استمرت لأكثر من عشرين سنة من نشاطها في منظمة النساء لتوعيتها ومعرفة حقوقها ككائن اجتماعي التي رسمتها الدساتير في فقرات وبنود على الورق.

واليوم، عندما تتذكر تلك السنوات تشير بشيء من الأسى والخيبة، بشيء من العبث وإضاعة الوقت الذي تراكم لسنوات وسنوات. فهي اليوم تشعر كان ذلك كله، ذهب أدراج الرياح.

هذه القناعة التي كانت قد وصلت إليها، منذ أكثر من سنة، سردتها لإحدى المناضلات من رفيقاتها، في إحدى المناسبات الاحتفالية. لم تستغرب الرفيقة المناضلة مما قالته لها، ولكنها أدركت أن الرفيقة، هي

أيضا فكرت ذات يوم بما تفكر هي به اليوم، إلّا أنها، اعتبرت الرفيقة، أن ما تمر به المرأة وعائلتها من المصاعب المعيشية، وأحياناً من الصراعات الفردية مع الأزواج، لأسباب عدَّتها في معظم الأحيان، غير ذات أهمية، وليست بحاجة إلى فتح معركة مع شريكها، إلّا أنها أضافت: على الرغم من أن مثل هذه الشجارات تبدو تافهة، في الحقيقة، لكنها سبب الخلاف الرئيس، وهي أيضاً، أعمق مما يظهر على السطح. برأيي، تابعت الرفيقة: هو عدم النقاش والإفصاح عما يجول في صدور النساء، وترك الأمور دون مناقشة، فالمرأة ترهب قول رأيها.. لذا تتراكم الأخطاء حتى يصل ثقلها إلى حدّ لا تعود قادرة على حملها.. وهنا يحدث الانفجار بصورة غير واقعية، ولأسباب غير حقيقية. هذا ما قالته الرفيقة المناضلة.. فأجابتها: أنا أوافقك الرأي.. ثم ما لبثتا أن انجرتا إلى حديث طويل عن جدوى ما تقوم به المرأة؟ فهي تكرر ما تقوم به مئات المرات، فخلال السنوات العشر الماضية على الأقل. تساءلت: ماذا كانت النتيجة؟ لا شيء يحسد عليه، لا جديد تكوّن ولا قديم مات، إنما العكس حدث، ويحدث في كل يوم يمر. حتى أن معظم النساء، وضحت للرفيقة المناضلة، يتغيبن عن الاجتماعات بحجج غير مقنعة، بعدم الحضور والمشاركة في عمل المنظمة.

في النهاية، قالت: أصابني اليأس، فقلت لنفسي: ماذا أفعل للواتي ترفضن حضور الاجتماع؟ هل أذهب واشدّهن من شعورهن؟ هل أرفع عليهن سلاحاً؟ وما إن سكتت حتى تابعت موضحة للرفيقة: ظاهرة أخرى بدأت تتفشى لم تكن موجودة فيما سبق، وهي أنه في كثير من المرات، كن يستعجلن إنهاء الاجتماع بحجة أن لديهن أعمالاً في البيت عليهن القيام به والانتهاء منه..

هزت الرفيقة المناضلة رأسها متسائلة: وما الحل؟ ظلت تنظر إليها من دون أن تقدر على الجواب، وتقديم حل ما، وقالت: لا حل!

هذا يعني سنظل نلف وندور حول أنفسنا، ويكذب بعضنا على بعضنا في أننا حققنا ما تعهدنا به من برنامج العمل الذي أقرّه المؤتمر، إن دورنا في المجتمع، وخاصة الجانب النسائي منه، كان أقل من واحد بالمئة.. هذا إن لم نقل، في بعض الأحيان صفراً..

تذكرت، ذات يوم، وأثناء محاضرة، كان يلقيهاأحد المسؤولين، في كادر المنظمة إذ قال: إن المعركة مع الإخوان، انتهت لصالح التقدم، لصالح الديمقراطية والقوى الوطنية..

في تلك اللحظة شعرت بأن المسؤول، إما أنه يكذب، أو لا يعرف ماذا جرى، وماذا يجري في المجتمع الذي نعيش فيه. فقالت له: أما أنا يا

رفيق فأرى أن الإخوان: قد خسروا المعركة العسكرية، لكنهم ربحوا المعركة الاجتماعية. فقد انقلب المجتمع، وخاصة بين النساء، للعودة إلى الوراء.. حتى إنها تواقحت، عندما أشارت إلى مجموعة من الرفيقات الموجودات في الاجتماع، وكان الحجاب يغطي رؤوسهن: انظر حولك.. لتعلم ماذا حل بالمجتمع؟

حاول المسؤول أن يبرر، أن الجو العام والبيئة التي نعيش فيها، علينا احترامها، وعدم استفزازها، أي أن نراعي مشاعر الناس.

طبعاً، لم تناقشه، ولم تقل له: أنت مخطئ. وعليك ألا تبرر الخطأ..

دائماً كانت تعود إلى الماضي، تفكر به وببعض الوقائع منه، وكلها كانت تتعلق بالأحلام التي تجول في رأسها. كانت في بعض الأحيان تظن نفسها على سفر، وما إن تنطلق من حلب حتى تمر على مجموعة من القرى الكثيرة قبل أن تصل إلى مدينة حماة أولاً. ومنها تنطلق مرة أخرى باتجاه مدينة حمص، لتمر أيضاً على مجموعة أخرى من البلدات والمدن الصغيرة قبل أن تصل إلى مدينة حمص.. وهكذا حتى تصل إلى العاصمة دمشق.

كانت تضحك وتقول: أخيراً تحقق الحلم. وصلت إلى المدينة التي قصدتها، فيها سأجد كل ما كنت أطمح إليه. عدالة. حق. حرية.. تتجول

في شوارعها المزدانة بأعلام السلام، وعلى واجهات مبانيها أبيات من الشعر تتحدث عن الحب والعمل والتعاون.. أما خلفها، على جبل قاسيون وقمته فتجد كل الحياة التي حلمت بها، وعملت لأجلها طوال تلك السنوات.

هكذا كانت تفكر، وتحلم بأن الأمور ستجري معها، كلما سعت إلى تحقيق حلم من أحلامها. ستحقق الحلم الأول، قد يكون عن العدالة، ومنه ستنطلق إلى تحقيق حلم آخر، عن التعاون.. ومنه إلى حلم الحق والأخوة، وهكذا إلى آخر حلم من أحلام ورثتها عن أعمامها وأخوالها، وكل الذين يشاركون في هذا العمل والنشاط الإنساني على الرغم من السجون والمنافي.. الخ.

فكرت بكل السنوات التي عملت فيها من أجل تحقيق ما كانت تصبو إليه. إلّا أنها، كانت في النهاية تشعر بالحزن وتحس بالخيبة، وبشيء من الندم والغضب، وصعود النقد في نفسها، وهي تقول: كيف لم تفكر بأن تحقيق ذلك أمر مستحل؟ وأنه مجرد حلم بعيد المنال. كانت تسأل نفسها: هل كان أعمامها وكل الذين معهم، كانوا على خطأ؟ وكيف لم يفكر أحد منهم بمثل ما تفكر به الآن؟ ولم تكن لتجد جواباً..

تعود إلى الماضي، وتحاول أن تتذكر جانباً محدداً منه، تسلط الضوء عليه، تكشفه، لترى تفاصيله.. على الرغم من أنه لم يكن غامضاً إلّا أنها كانت على قناعة، أن فيه شيئاً غير جليّ، فهي لم تنظر إليه بجدية. كانت قد أهملته. لماذا؟ هي لا تعرف. لا تذكر تلك الساعات التي كانت تنظر إليه. كانت تمر عليه بنظرها فقط، لم تنظر إليه بغية دراسته، أو معرفته. كانت تظن بأنه واضح، وأن أمره غير مهم. هناك جوانب أخرى لها الأولية والأهمية الأكبر، عليها أن تركز عليها، وأن تعرف تفاصيلها..

لهذا عادت، بعد مرور سنوات كثيرة، لتفكر بذلك الجانب الذي يبدو لها اليوم غامضاً، لا كما كانت تظنه واضحاً، لا يحتاج إلى بذل الوقت للتفكير به. هذا الأمر لم يشغلها سوى في السنة الأخيرة. أما قبل ذلك فكانت أمور أخرى تشغلها..

أطفالها الثلاثة..

في كثير من الليالي، عندما كانت تضعهم في أسرتهم. كانت تقف بالقرب من رؤوسهم. تبتسم لتلك الوضعية غير العادية التي كانوا ينامون عليها. كانت تستغرب وتقول لنفسها: يمكن أن أفهم، أن ينام أحدهم على هذه الوضعية الغريبة بعض الوقت. أن ينام طفل على ظهره ويميل بجسده إلى اليمين، مع وضع يده- كفه اليسرى تحت خده-

ويظل على حاله طوال الليل من دون أن يتحرك، وإن تحرك فيكون لتغيير وضعية نومه، ثم ما يلبث أن يعود إلى وضعيته السابقة من جديد. فقد رأت هذا الأمر غريباً غير مفسر! لو أن واحداً منهم نام على هذه الوضعية، ربما كان استغرابها أقل، أما أن ينام الثلاثة على وضعية واحدة، فالأمر يدعو إلى التساؤل.

سألت زوجها ذات يوم عن هذا الأمر. استغرب الزوج، ثم قال: لم ألحظ ذلك! أحقاً ينامون على الطريقة التي وصفت؟ ابتسم. سأشاهدهم الليلة وهم نيّام. ثم ابتسم، وتابع: أعتقد ليس الأمر غريباً، فهم إخوة، وهذا الأمر المشترك بينهم، لا يجب أن نراه غريباً!

هؤلاء الأطفال الثلاثة، عندما كانوا ما بين الثالثة والسابعة، فكرت في أكثر من مناسبة، إن كانوا سوف يحققون أحلامها، لأنها ذات يوم، قالت لزوجها، لا أعتقد بأن، في حياتنا، أن يتحقق أيّ حلم من أحلامنا؟ أحلامنا في العدالة والحرية.. ولكن قد يراه أولادنا..

يومها علق زوجها بقوله: لا تتشاءمي.. صحيح الأمور معقدة ولا تدعو للتفاؤل، لكننا لسنا يائسين في نظرنا إلى قضيتنا. وانتهى الجدال بينهما. فلم تعد تفكر به، إنما راحت تفكر فقط بأطفالها الثلاثة، أن يقطعوا الطريق ذاته الذي قطعته هي وزوجها معاً حتى اليوم.

استنكرت في نفسها، أن يعاني أطفالها المعاناة نفسها.. فأشفقت عليهم مبكراً. وقد عاشت صراعاً: فعليها ألا تبخل بالجد والوقت والعمل الحزبي. كانت تريد بذلك أن تخفف من أعباء أطفالها، وتعمل لتهيئ المستقبل، إن هم ساروا في الطريق ذاته. فعليهم ألا يعانوا مثلهما، أو أكثر.. كانت تضحك وهي تنظر إليهم، وهم يلعبون من دون أن يعرفوا بما تفكر هي به، وقالت: أيتها الخرقاء بماذا تفكرين؟ مازال أمامهم طريقٌ طويلٌ حتى يصلوا إلى العمر الذي عليهم أن يتابعوا طريق آبائهم وأجدادهم. ثم تصحح: يا خرقاء لا أحد يفكر بهذه الطريقة؟ وكما المثل، قالت لنفسها: لا ترفع ثوبك قبل أن تصل إلى النهر. سيضحك منك كل من سوف يراك على تلك الصورة.. وبعد سنوات، تضحك وهي تتذكر المثل: لا ترفع ثوبك..

بعد انهيار المنظومة الاشتراكية، وتفكك الاتحاد السوفييتي، واستقلال جمهورياته الأوربية وبعض الآسيوية، كان أولادها قد بلغوا سناً تتراوح بين العاشرة والخامسة عشرة، عندما دخل ابنها البكر، وكانت في المطبخ تقوم بترتيب الفوضى التي لحقت به ليلة أمس، جاء بعض الرفاق إلى البيت.. سهروا معاً. إلّا أنها لم تتابع معهم، فقد قامت بالواجب الضروري تجاههم، ثم أوكلت المهمة إلى زوجها.

في تلك الليلة كان النقاش قد بدا حاداً بين زوجها وبقية الرفاق، وكانوا ثلاثة. في البداية حاولت الاستماع إليهم، إلّا أنها، فيما بعد، أهملت الأمر وغرقت في النوم.

ساعة الظهيرة، كان ابنها قد عاد من المدرسة، وكان في آخر المرحلة الإعدادية، وهو يستعد للانتقال، في نهاية العام الدراسي إلى المرحلة الثانوية. دخل عليها وسألها دون مقدمات: هل حقاً.. البلد الذي كان يبني الجنة، هنا على الأرض قد انهار وتدمر؟

توقفت عما كانت تقوم به، عندما كانت تحاول أن تضع مجموعة من الصحون الزجاجية في المكان المخصص لها. تجمدت يدها على الصحون. إذ فاجأها السؤال. ثم إنها لم تتوقع أبداً أن يكون ابنها قد استمر بالاهتمام بمثل هذا الأمر، فهي منذ مدة طويلة، كانت قد كفت عن الحديث عن النظام الاشتراكي الذي يترأسه الاتحاد السوفييتي الذي يحاول، هو وبقية الشعوب المحبة للسلام والاشتراكية بناء الجنة على هذه الأرض، وبين النظام الرأسمالي الاستعماري الاستغلالي، قاهر الشعوب ومستغلها الذي يترأسه الغرب، وخاصة أمريكا. كانت قد توقفت عن الحديث في هذا الأمر، لأن القضية برمتها باتت في مهب الريح منذ أكثر من سنتين. فقررت ألا تصدع رؤوس الأولاد بهذه الحكاية. حكاية الاشتراكية وبناء الجنة على الأرض.

عندما بلغ ابنها الحادية عشرة كانت قد بدأت الحديث عن العالم العادل الذي يجب أن يعيش الناس فيه، كل الناس، من كل القوميات والأديان ومختلف الأعراق. لأن الإنسان أخو الإنسان. لا يفضُل أحد على آخر إلّا بعمله وإنتاجه وتقديم الخير لبلده. ذات يوم تدخلت ابنتها، وهي في التاسعة من عمرها، وقالت: ماما. أليس الدخول إلى الجنة.. لا يتم إلا بعد الموت؟ هذا ما قالته المعلِّمة لنا.. قالت بأن الإنسان سيدخل الجنة جزاء عمله الخيّر والصادق الذي عليه أن يعمله.

أجابتها: نعم يا شطورة. لكنني أتحدث عن جنة أخرى. جنة هنا. يمكن لنا أن نبنيها بالتعاون، تعاون الناس بعضهم مع بعض..

قاطعتها الابنة مرة ثانية: ماما: هل تختلف الجنة هنا عن الجنة هناك، بعد أن نموت؟

أنبّت ابنتها قائلة: لا تتحدثي عن الموت. نحن نتحدث عن الحياة.

شعرت الابنة بالإحباط، لكنها سألت: ماذا يعني أن نموت؟

لم ترد أن تؤنبها مرة أخرى، لذا قالت لها: ناوليني كوب ماء..

قامت الابنة إلى المطبخ، بينما هي استمرت في الحديث مع ابنها، تقول: نعم. لقد انهار.. ولكن هذا لا يعني أن الأحلام التي يحلم بها الناس، من أمثالنا، أن يتوقفوا عن بناء الجنة.

سكتت وظلت تنظر إليه. ظل الابن بدوره ينظر إليها، وقد بدا عليه أنه لم يستوعب ما قالته، إلّا أنه فضّل السكوت على إعادة السؤال، أو طرح سؤال آخر يماثله. سألته: من أخبرك ذلك؟

تشجّع على الكلام من جديد، فقال: لقد سمعت البابا ورفاقه البارحة يتحدثون به.

هزّت رأسها ثم قالت له: لا تهتم بما قالوه. لديك دروس عليك الاهتمام بها. والتفكير بالنجاح، خاصة، وأنت في السنة القادمة ستكون في مرحلة جديدة لتنتقل بعدها إلى الجامعة..

هزّ الابن رأسه موافقاً.

قالت في نفسها: لا أعرف من الذي يكذب على الثاني، أنا، أم المعلمة؟

على الرغم من أنها تكره الكذب إلى حدّ القطيعة، مع كل من كانت تراه يكذب. كانت تقول: كل شيء إلّا الكذب، لأن لا علاج لمضاره. فقد قال النبي في حديث، كانت قد سمعته من جدتها، أنه خفف من عقاب الزنى والسرقة إلّا الكذب. فقد اعتبره خطيئة لا تغتفر: إذن لماذا تكذبين؟

سابقاً كذبت على أولادها، عندما كانت تقول لهم، هناك من يحاول أن يبني الجنة على الأرض. طبعاً في تلك الفترة، كانت مقتنعة تماماً بهذا الأمر. كانت تعتقد بأن الإنسان يمكن له أن يفعل ذلك، أن يبني الجنة على الأرض. أما اليوم فقد عرفت أنهذا الأمر، ما هو سوى حلم، فالإنسان يتمنى لو وجدت جنة على هذه الأرض، قائمة على الحرية والعدالة الاجتماعية.. أما كذبة المعلمة، عندما كانت تقول لتلاميذها، وأولادها من بينهم: سيذهب الإنسان إلى الجنة بعد موته، إن كان صالحاً متعبداً، ومحباً لأخيه الإنسان. لقد كذبت على ابنتها التي سألتها عن هذا الأمر الذي قالته المعلمة لأنها، في تلك السنوات، لم تكن تؤمن بمثل هذه القصص والحكايات. كانت تؤمن بالواقع الذي يعيش فيه الإنسان فقط بواقع عليه أن يغيّره، إن أراد أن يغيّر حياته، ويعيش في الجنة التي عليه أن يبنيها هنا على الأرض.

تساءلت: أحياناً تكذب، ولكنك لا تعرف بأنك تكذب، إنما تكتشف كذبك غير المقصود بعد سنوات منه. لهذا لا يوجد شيء ثابت لا يتغيّر. كل شيء يتغيّر مع مرور الأيام. والدليل انهيار المنظومة الاشتراكية وتفكك الاتحاد السوفييتي.

قبل سنوات عشر لو أخبرها أحد ما بهذا الأمر، لضحكت منه، وعدته مخبولاً، أو في أحسن الأحوال، عائد من حفلة سكر لم يستيقظ منها بعد.

قبل سنوات عشر، عندما كان أولادها الثلاثة صغاراً، وكانت هي وزوجها يجاهدان في سبيل حياة أفضل لهما ولأطفالهما، كانت ترتاح عندما تفكر بمستقبل أولادها الدراسي، أو على الأقل بمستقبل اثنين منهم. كانت تقول: سيدرسان في جامعات البلدان الاشتراكية. وكانت تقول: أنا أفضّل جامعات الاتحاد السوفييتي، هذا ما كانت تقوله لزوجها. كان يبتسم، ويقول: ليتخطوا المرحلة الإعدادية أولاً قبل التفكير في دراساتهم الجامعية. كانت تجيب عليه: طبعاً.. أقصد بعد أن يحصلوا على الثانوية العامة. عندما يصبحون شباباً..

كان يقاطعها، ويقول: ها أنت تقولينها. عندما يصبحون شباناً، فهم ما زالوا يافعين، أكبرهم ما زال في الأول الأعدادي. كانت تسكت على مضض..

يا الله.. كم كانت تلك الأيام، على الرغم من أعبائها وتعبها، كانت مريحة، كنت تطمئن إلى الغد. لا تعرف الخوف منه.. فصورة الغد كانت جميلة، رقيقة، غير مؤذية.. هكذا كانت تفكر..

أما اليوم.. فأنت لا تطمئن إلى ساعة من ساعات يومك. تشعر بالقلق النفسي، والضغط المعيشي، والخوف من غائلة الأيام القادمة، وعلى الرغم من هذه الحقيقة إلّا أنها ظلت، في السنتين الأخيرتين، تبدي فيما بينها وبين نفسها بعض النقد لذلك العهد الذي سُميّ بعهد الاشتراكية، وحلم البشرية في بناء جنتها على هذه الأرض، بعد أن ينتصر فيها العدل على الظلم. هذه الجنة التي راح العالم كله، وخلال أكثر من نصف قرن يعمل من أجلها.. وكانت توجه النقد إلى كل خطأ، مهما كان صغيراً. كانت تراه هنا وهنالك في صفوف التنظيم الذي تعمل فيه. كانت تحتد، وهي تقول شبه غاضبة: إن كنا نحن القدوة لا نستطيع أن نكون أسوياء في حياتنا، وخاصة في أعمالنا اليومية، فكيف يمكن لنا أن نطلب من الآخرين أن يكونوا أسوياء؟

كان زوجها، عندما تتوجه إليه بالكلام، وتفصح عن احتجاجها. كان يقول لها: أنا معك بكل كلمة نقد تبدينها. علينا نحن الذين نعدُّ أنفسنا مثالاً وقدوةً، يجب أن تدلَّ تصرفاتنا على ذلك.

يصمت. ثم ما يلبث أن يتابع: ولكن.. عليكِ عدم إظهار ردود أفعالك بهذه الحدّة. الغضب والانتقاد بصوت حاد يترك أثراً سلبياً، لدى الآخرين. لن تحصلي على موقف إيجابي منهم، بالعكس قد يتصرفون

ضد ما تريدين حتى لو كنت على موقف صحيح.. لذا فالأفضل أن يكون النقد هادئاً، ودوداً، معبراً..

على الرغم من قناعتها بكلام زوجها، إلا أنها كانت لا تقدر على ذلك. كانت لا تتحكم بأعصابها أمام أي خطأ تراه، أو اعوجاج يمارسه الآخرون. كانت تقف من المخطئين موقفاً حاداً، قوياً تكاد أن تتهمه بالتخريب..

هذا الأمر ترك في نفسها الماً، فهي تريد الإصلاح، ولكنها لا تستطيع أن تصل إلى ذلك بالطرق الإيجابية التي اقترحوها عليها، حتى إنها في إحدى المرات تلقت توبيخاً للطريقة الانتقادية التي مارستها ضد إحدى الرفيقات. هذا الأمر أحبط من عزيمتها فجعلتها كسولة في البداية، ثم غير مبالية، ما لبثت أن أهملت الأمر وراحت لا تهتم بما تراه بعيونها من العيوب والإهمال لدى الآخرين. ثم مالبثت أن فقدت الثقة بالعمل الذي تقوم به حتى إنها عدَّته عملاً بلا جدوى ومضيعة للوقت، وراحت تبتعد عن التنظيم الذي كانت تعمل فيه.

ولكنها، للحقيقة، ظلت تحلم مع الناس الذين عملت معهم من أجل ذاك العالم القائم على العدل، من أجل تلك الجنة القائمة على الحق والحرية على هذه الأرض. ظلت تحنّ، بعد ذلك، لسنوات طويلة إلى تلك

الأيام القديمة التي كانت فيها، ما تزال شابة، في مقتبل العمر، وفي سنوات الدراسة الثانوية، ومن ثم الجامعية. ظلت تتذكر كل تلك الأيام التي شكّلت انعطافاً في حياتها، وخاصة بعد أن تعرفت على زوجها الذي منحها الثقة بنفسها. فالمرأة مثل الرجل يمكنها أن تنهض إلى تحقيق الحلم العالمي الذي تعمل من أجله البشرية.

لكن خيبة إثر خيبة أخذتها إلى حالة يأس تام. ولم يعد يهمها سوى الاهتمام بأولادها أكثر فأكثر.. بدءاً من دراستهم، إلى وسواس مراقبة صحتهم، وتربيتهم الأخلاقية.

ضربت حولهم طوقاً من القوانين والشروط والمحاذير! ولا يكاد يمر يوم إلا وتلقي عليهم محاضرة في الاهتمام في الدراسة، أو بمادة من المواد ترى أحدهم قد تأخر فيها. وتأنيباً يكون قاسياً في إهمال هذا أو هذه في بند من بنود الصحة التي كانت قد كتبتها على اللوح وعلقته في آخر الممر.

ذات يوم عاد زوجها من العمل، وكانت الساعة تقارب الرابعة، فوجد حركة متمردة، أو ثورة قامت بين زوجته وأولاده. لقد ثاروا عليها جميعاً. وكانت حجتهم: أنها قطعت عليهم الهواء فهم لم يعد يستطيعون التنفس. فقد أغلقت عليهم نوافذ الحرية.

عندما دخل البيت، انسحب الأولاد إلى غرفتهم. أما زوجته فأدارت ظهرها إليه منسلّة إلى المطبخ. لم تتكلم.. دخل إلى غرفة النوم، خلع ثيابه، وارتدى منامته، ثم دخل إلى الحمّام قضى حاجاته، ثم خرج متوجهاً إلى المطبخ، حيث كانت زوجته.

عندما دخل المطبخ كانت زوجته جالسة على كرسي قائم حول طاولة الطعام. كان ظهرها له.. شعر بأنها ليست على بعض، فدار حول الطاولة، ثم اختار كرسياً أمامها وجلس عليه. كانت غائبة عما حولها وبقايا دموع عالقة بأهدابها. استغرب مشهدها هذا، وقبل أن يسألها: ما بها؟ قالت معتذرة: أنا آسفة. لم أستطع اليوم أن أطبخ. وما زال لدينا بقايا رز وفاصولياء في الثلاجة.

سألها: ما بك؟

أجابت بصوت مخنوق: الأولاد..

استغرب: ما بهم؟

كادوا أن يفقدوني عقلي. فهم لا مبالون، منرفزين، يردون من دون حياء. ثم تابعت: لا أعرف ماذا دهاهم؟ كانوا على غير هذه الصورة. لا.. لم أرهم في يوم من الأيام، هكذا.. كأن جناً تلبسهم.

ابتسم، وقال: ماذا حدث اليوم حتى رأيتُهمُ على ما كانوا عليه؟

اليوم، أجابت، كانت النتيجة، أما الأسباب فأمور متراكمة. منذ مدة لاحظت منهم تصرفات غير طبيعية. يأكلون وينصرفون عن الطعام دون أن يغسلوا أيديهم وأفواههم. وما إن أدخل عليهم حتى يغلقون الكتب التي يدرسون فيها بحركة احتجاجية، وإن كان أحدهم يكتب وظيفته فيغلق الدفتر ويرمي بالقلم، ويحاول إلهاء نفسه بأمر ما.. اليوم رأيتهم عائدين من المدرسة، في تصرف مشين.. ضد ابن جارتنا التي تسكن في الطابق الخامس. والغريب في أمرهم، أصبحوا يشكلون عصبة، فسوء سلوكهم وتصرفاتهم أصبحت جماعية، ليس لواحد دون الآخر، إنما أصبح الجميع على السلوك السيء نفسه. كأنهم على اتفاق. عندما سألتهم عن أسباب تصرفهم ضد ابن الجارة، احتدوا في أجوبتهم، وكان جوابهم واحداً: هو الذي بدأ. هو الذي حاول أن يفركش ميادة، وكان يضحك كالأبله، ثم هرب منا صاعداً إلى الأعلى، إلى بيته. طبعاً كانوا يكذبون عينك عينك. تفاجأت بكذبهم.. هم الذين تحرشوا به. عمار أمسك بحقيبته المشدودة على ظهره، وميادة القردة أمسكت بأذنه وراحت تشدها له. أما خالد فراح ينكش خاصرتيه.. اليمين مرة واليسار أخرى. قلت لهم: أنا لم ارَ ما تقولونه عن ابن الجارة. أنا رأيت تصرفاتكم أنتم معه، كانت تصرفات سيئة جداً وسلوك معيب. نحن لم نُرَبِكم هكذا، نحن.. وانفجر الثلاثة في وجهي، لم يدعوني أن أكمل. لقد

صدمت بتصرفاتهم. مع دخولك أنت.. أتدري، أشعر كأن الله يعاقبنا على ما كنا فيه! لقد نسينا الأولاد أمام المهام التي كنا نقوم بها. لم نهتم بهم كما كان علينا أن نفعل. كنا نظن أن الجو السائد في البيت كفيل لوحده أن يتلقوا دروساً في التربية الحسنة..

ابتسم زوجها وقال بصوت هادئ: اطمئني.. لقد أعلنوا عن غضبهم أمامك، وهذا جيد. جيد لأنهم لم يعلنوا عنه خارج البيت، على الآخرين من أصدقائهم، أو أن يفرغوا غضبهم وعنفهم في الأشجار. لقد رأيت كثيراً من الأطفال يحاولون اقتلاع غرسات الأشجار الجديدة في الشارع، أو تكسير أغصانها، وحتى تحطيم الأشياء في السيارات الواقفة، حاويات، صناديق البريد..

هؤلاء، تابع: يمارسون عنفهم وغضبهم خارج البيت، أي لن يكون هناك دور من قبل آبائهم ضد هذا العنف الذي لا يرونه.. لذا احمدي ربك، كما يقولون، بأن أولادك مارسوه أمامك، ومعك، محتجين عليك، ولربما عليّ أيضاً..

ضحك، أي إنهم ثاروا عليك، قاموا بثورة ضدك.. أقصد علينا أن نسأل عن الأسباب. منهم أولاً، بهدوء وحنكة. لكي نجد لها الحلول..

سكت زوجها طويلاً، قبل أن يقول بشيء من النقد: أعتقد، وربما أكون مخطئاً.. أنت السبب. لقد حاصرتهم من كل الجهات. لم تتركي لهم جهة للهروب كما يحدث في الحرب. أنت تطاردينهم في أحوال الصحة والدراسة والتربية.. وتضيقين عليهم السبل.. هذا ما أعتقده. على كلٍ.. الجيد في الأمر، أننا في أول الطريق. علينا أن نعرف أسباب ذلك.. منهم. والآن. أنا جائع. حضّري ما يوجد من الطعام، لأنني أكاد أن أموت من الجوع.

حاضر..

قالتها، وقامت لتحضير الغداء، وهي تتابع: صدقاً.. لقد تعبت.

[4]

سألها: أين؟

أجابت: لا أعرف. فقط أخبرني، بأنه بحث عنه اليوم في المدرسة، ظناً منه قد نسيه فيها، بعد انتهاء درس الديانة البارحة، إلّا أنه لم يجده..

ظل ينظر إليها، ينتظر منها أن تكمل: ماذا يمكن أن يفعل تجاه هذا الأمر؟ فتابعت: لهذا أرى أن"تستوهب" له نسخة جديدة، أثناء عودتك..

هزّ رأسه، أن نعم..

خرج من البيت قبل موعد الاجتماع الحزبي بعدّة ساعات. بعد أن شعر بضيق في صدره، فأراد أن يغيّر الهواء والجو، مختلطاً بالناس، لأنه أحس برغبة قوية إلى السير في الشوارع، لا على التعيين. أيّ شارع كان.. المهم أن يمشي. فانساق وراء قدميه، ذاهباً معهما إلى كل الأمكنة التي يمكن أن تأخذه إليها.

كان رأسه فارغاً، وعقله كسولاً، هكذا شعر، يعوم الضباب على صفحته، لهذا سار دون غاية.. انقطع عن العالم من حوله، عاد إلى

نفسه دون أن يفكر بشيء ما.. لكنه، في لحظة مباغتة، شعر بشيء من التعب. تعب خفيف دب في عضلتي ساقيه، في الربلتين تحديداً. تعب ممزوج بوجع، وجع تشنجي. وقف.. ومع وقفته، اضطر للخروج من داخله، ليعاين المكان الذي وقف فيه.. وكم كانت المفاجأة كبيرة، عندما وجد نفسه أمام مقهى "القصر" المغلق. مقهى مر بعدة أدوار بعد أن باعه أصحابه. فمن مقهى للألعاب الالكترونية، إلى مكان لبيع الأحذية، ثم مكاناً للصرافة.

ابتسم، غير مصدق. تلفت حوله، كأنه حط في مكان لا يعرفه، مكان يريد أن يكتشفه. ضحك وهو يتابع طريقه، ويعود بذاكرته لأكثر من خمس وثلاثين سنة. إلى تلك السنوات التي كان ما يزال فيها شاباً. ولم يكن قد تخطى مرحلة المراهقة بعد، وهو يفكر في المستقبل الذي يجب أن يكون عليه، بعد أن بدأت السياسة فعلها في حياته.

ضحك كأنه يسخر من نفسه: لم يكن في يوم من الأيام من هواة العمل السياسي. حتى إنه لم يعرف معنى كلمة" السياسة" بأبعادها الاجتماعية والاقتصادية قبل أن يبلغ العشرين من العمر. عندما كان يسمع بها، يظنها إحدى الماركات لبضاعة ما.. وعندما عرف بأن السياسة ليست ماركة بل هي نشاط اجتماعي خطر، ثم راح يفتش عن معانيها ومقاصدها. وبرغم ذلك أخذ يفكر بالانخراط فيها كمغامرة ليس إلا،

قبل أن تصبح نشاطاً اجتماعياً خالصاً، ومرتكزاً حياتياً له.. وهذا المقهى، قال، الذي أصبح خلفي كرّس أولى معارفي السياسية. وعلى أيدي من؟ ضحك: على أيدي ثلاثة أشخاص كانوا يترددون على المقهى..

كانوا بالنسبة إلى بقية زبائن المقهى"أشخاص بطرانين"، ومقهى" القصر" مثله مثل بقية المقاهي، لا بدأن يكون له بعض المهرجين.. هكذا كانوا في نظر الزبائن. إلّا أنه لم يهتم بما كان يتقوّل زبائن المقهى عليهم، حتى إنهم أطلقوا عليهم لقباً ساخراً، كانوا يلقبونهم بالفرسان الثلاثة.. كلنا نذكر رواية "الفرسان الثلاثة" للكاتب الفرنسي" ألكسندر دوماس.

لقد شغلوه، في البداية، بأفكارهم، إلا أنه في الوقت نفسه، كان يجد في حياتهم بعض التنافر.. كانوا يؤمنون بأفكار الاشتراكية الخاصة بالطبقة العاملة، أما سلوكهم وتفاصيل حياتهم اليومية فتتناقض وأفكارهم تماماً. ولما كان لا يعرف شيئاً عن الأفكار الاشتراكية سوى عمومياتها، فلم يقدر على الفصلبين السلوك والأفكار.. ولم يكن ليعطي هذا الجانب اهتماماً حتى يناقشه فيما بينه وبين نفسه. فقد وجد فيهم مثالاً يمكن له، لا أن يقتدي به، إنما هو مثال للتساؤل، والدعوة إلى التفهم والاستماع إليهم، ومن ثم التقييم..

ذات يوم، سأل نفسه، بعد أن دبّ خلاف حاد بينهم، وكاد أن يفرق بعضهم عن بعض.. سأل: ألا تظن أنك بحاجة إلى القراءة العميقة للافكار التي يؤمن بها هؤلاء حتى تستطيع أن تقيّمهم، وتقرر أين تكون المواقف الصحيحة؟ قال لنفسه: إن الثلاثة على حق. أو الثلاثة على خطأ؟ لا بد أن أحدهم، أو اثنين منهم على حق..

ومن هذه التساؤلات بدأ بالاطلاع على الفكر الاشتراكي، وظل خلال ثلاث سنوات يقرأ كتب ماركس وأنجلز ولينين. ولا يعرف كيف اعتقد، في تلك السنوات البعيدة، بأن ما جاء فيها من أفكار في شتى تصانيفها. فلسفة، اقتصاد، سياسة، مجتمع، وأخيراً التاريخ! هي الحقيقة التي كان يبحث عنها، هكذا شعر منذ سنوات شبابه الأول. فهو كان دائم التفكير في الحياة وتناقضاتها، دائم التفكير والبحث عن أجوبة لأسئلة تصدع رأسه عن الله، والأنبياء، والأديان، والكون..

يسأل، لماذا هو ابن رجل فقير، وعادل ابن رجل غني؟ لماذا يجب العمال أن يكون لهم حزبهم الخاص بهم؟ لماذا عليهم أن يقودوا المجتمع إلى مجتمع يسوده العدل والحرية؟

قبل أن يخوض هذه المعركة التي فرضها على ذاته، كان قد وجد نفسه يتخبط بين الأسئلة والأجوبة، حائراً لا يعرف التصرف.. لهذا ترك

الأمر، وعاد إلى الثلاثة الذين كانوا وراء انغماسه بالفكر الشيوعي والاشتراكي. أو بصورة أدق، كانوا الحافز في دفعه إلى البحث عن أجوبة لكثير من الأسئلة كانت تلح عليه. فما كان منه، إلا أن جعل من هؤلاء الثلاثة حافزاً للقراءة فيما كانوا يؤمنون به، فكثيراً ما كان يسمعهم، في نقاشاتهم، يبحثون في أمور الحياة. وكان، قبل أن يلتفت إلى نقاشاتهم، يجهل ما يقولونه! وكان عقله غير قادر على فض ذلك الغموض الذي ينتابه ولم يكن قادراً ليجيب على الأسئلة المقلقة التي كانت تثقل صدره.

ذات يوم تساءل: إن كان الله قد خلق هذا الكون العظيم، فمن يا ترى خلق الله؟ على الرغم من سور القرآن وآياته التي تقول بأنه أزلي، لم يلد ولم يولد؟ كيف يمكن لهذا الإله أن يرسل ثلاثة أنبياء، ويحمّل كل واحد منهم كتاباً، وكل واحد منهم يقول عن كتاب النبي الآخر غير صحيح، محرّف، أو تم تحريفه..

بعد سنوات استطاع أن يجد أجوبة لمعظم أسئلته، قد تكون الأجوبة ليست مقنعة وكاملة، إلَا أنها كانت أفضل ما توصل إليه كأجوبة على أسئلته.. كانت الماركسية واللينينية هي أساس هذه الأجوبة.

عاد بذاكرته إلى الثلاثة، الفرسان.. وأجواء المقهى وكراسينه، وزبائنه الآخرين. عاد بذاكرته إلى ذلك الزمن البعيد وفي نفسه الكثير من الحنين.

أنهى اجتماعه باكراً، لأن جميع الرفاق الذين حضروه، أكدوا ضرورة اختصار وقت الاجتماع، وكان لكل واحد منهم حجته، وضرورة خروجه باكراً ليلحق بأمر يخصه.

لم يعارض، لأنه وجد في معارضته عدم فائدة، لأنهم إن رضوا بالبقاء، وحسب تجربته، لن يكونوا حاضرين ذهنياً في الاجتماع، جسمياً فقط سيكونون في الاجتماع، أما أذهانهم فلا.. فقال لهم: كما تريدون.. وخرج كل واحد منهم يسعى إلى مبتغاه. لذا، استغل الفرصة، وعرج في طريقه إلى شارع المكتبات في حي " أغيّر- اقيول"، خاصة، أن له فيه صاحب مكتبة، يمكن أن يجد لديه ما أوصته به زوجته، وهو نسخة من القرآن لابنهما خالد الذي أضاعه بعد خروجه من درس الديانة، ويذكر أنهم كانوا يضعون حصة الديانة في نهاية الدوام.

يتذكر: حياتهم، وهم تلاميذ- طلاب، لم تختلف عن حياة طلاب وتلاميذ اليوم، على الرغم من اختلاف الزمن، فالطالب -طالب في أي

زمن كان- خاصة آخر ساعة من وجوده في المدرسة، التي يعتبرها الطلاب سجناً لا مكاناً للعلم..

وصل المكتبة، وكانت الساعة تقارب الخامسة عصراً، فوجد رجلاً يقف على طرف السجادة، وهو يؤدي صلاة العصر.. وما أن انتهى الرجل حتى سلَّم عليه. وأردف: تقبّل الله..

رد صاحب المكتبة: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ثم تابع: منّا ومنكم صالح الأعمال..

وراح كل واحد منهما ينظر إلى الآخر، ما لبث أن سأل: أين الحاج محمود؟

أجابه الرجل: ذهب في عمل. أنا شقيقه. خير؟

أجابه، وهو يبتسم: كل خير. أريد نسخة من القرآن الكريم من أجل الدراسة.

سأله: أي صف؟

أجابه: التاسع.

صعد الرجل سلماً قصيراً، بخمس درجات لا غير، وتناول من أحد الرفوف نسخة، ونزل، وهو يقول: هذا يفي بالغرض. فيه شرح وتفسير في الحدود الدنيا. تفيد الطالب في فهم دروسه.

تناوله من الرجل، ثم راح يقلب صفحاته، وما لبث أن أغلقه، وقال: شكراً. ثم سأله: كم سعره؟

شيء ما حدث لشقيق صاحب المكتبة.. فرآه في أكثر من حالة، رآه ينتفض، بعد أن اعوّج فمه عندما حاول الكلام، رآه يرتجف كأن رجفة أمسكت به وغيّرت حاله، رآه يحمّر ويزرّق ويصفّر.. استغرب مما رآه من أحوال شقيق صاحب المكتبة! إلا أنه تخطى الحالة، بعد أن ظّن بأن الأمر يعود إلى مرض عصبي مزّمن يمر به الرجل بين حين وآخر.. إلا أن الرجل قاطع فيما كان يفكر به، عندما قال: عفواً أستاذ. أودّ أن أبدي لك ملاحظة عامة..

تفضل..

عادة، تابع الرجل: لا يقال عن القرآن الكريم، كم ثمنه؟ يقال: كم استوهابه؟ فالقرآن الكريم لا يُعامل كبقية الكتب، حتى الدينية منها، فهو يُعامل بإجلال.

سكت لحظة، ثم تابع: عندما يستوهبه شخص ما، نتعامل مع المبلغ الذي استوّهب به القرآن، أن نرفع من الرأسمال، الاستوهاب.. ثم ما تبقى من المال، أي الربح، كما هو في حالات بقية الكتب، على طرف، يُجمع المبلغ، ثم يُسلم إلى إحدى الجمعيات التي تساعد الفقراء والمعوزين واليتامى في حياتهم. لذلك..

قاطعه بابتسامة، وقال: أنا آسف. بكم يمكن استوهابه؟

العفو- قال الرجل: خمسمئة ليرة..

تكرم. قال، وهو ينقده المبلغ.

خرج..

خرج إلى عالم ليس العالم نفسه عندما دخل إلى المكتبة! عالم الواقع، والحياة المتدفقة، وزعيق السيارات، والدراجات النارية، والعربات والمركبات، وحركة الناس، وأصواتهم وضحكاتهم، وصراخ النساء على أولادهن..

خرج من المكتبة إلى عالم غير العالم الذي سبق دخوله إلى المكتبة. كان العالم، هكذا شعر، من حوله ساكناً. تشعر بأنك أمام فيلم

صامت، بالأبيض والأسود. تبتسم، وأنت تنتظر دخول "شارلي شابلن" إلى المشهد الذي أمامك في ايّ لحظة.

انحدر من نزلة "شارع ميسلون" إلى "حي الجابرية"، وصورة وجه شقيق صاحب المكتبة لم تبرح مخيلته. كان ما يزال فماً- كان وجهه مجرد فم- وهو يلقي محاضرته حول شراء القرآن واستوهابه. شعر كأنه شريط كاسيت ما إن تضغط على زر المسجلة حتى يكرر لك ما قاله.. هذه المحاضرة أعادته إلى ذاك اليوم، يوم كان في الصف الثالث أو الرابع الابتدائي. ذكرته من جديد بكلام المعلم، في درس الديانة. وكان الدرس الأخير من يوم الخميس على ما يذكر. كان المعلم يتحدث عن الموضوع نفسه، عندما قال: ليس لائقاً أن نقول، كم ثمن القرآن؟ عندما نود اقتناء نسخة منه. علينا أن نقول: كم استوهابه لصاحب المكتبة.

وتحدث المعلم بمحاضرة طويلة، تشبه مضمون محاضرة شقيق صاحب المكتبة، ولكن في زمن آخر، زمن عمره أكثر من خمس وثلاثين سنة. زمن آخر.. لكن المحاضرة لم تتغير.

يذكر.. منذ تلك الأيام كان فضولياً، دائم السؤال، يريد أن يعرف كل شيء، ويجادل سواء كان الجواب لا يقنعه، لا يراه دقيقاً.. في ذلك اليوم

البعيد، أراد أن يقول لمعلمه: ولكن، في النهاية يأخذ البائع- صاحب المكتبة- ثمناً للقرأن، مالاً، نقوداً، كما أخذ اليوم شقيق صاحب المكتبة مبلغاً قدره خمسمئة ليرة. إذاً.. لماذا نستبدل كلمة" الثمن" بكلمة" استوهاب"؟ وماذا كان سيتغير لو لم نقل استوهاب؟ على الرغم من أن المعلم كان قد شرح لهم الفارق. كان الفارق، هو المكانة، القيمة المعنوية. يجب ألا نعامل القرآن الكريم كأي كتاب.. فأنت في الأخير تشتري كتاباً لله، وليس كتاباً كتبه أحد البشر..

كان يريد، في ذلك اليوم البعيد أن يناقش المعلم في هذا الأمر، إلا أنه لم يستطع، فاليوم هو يوم خميس، والدرس درس ديانة، وهو الأخير من دروس يوم الخميس، آخر أيام الأسبوع، والتلاميذ ينظرون عبر النوافذ إلى خارج الصف، ينتظرون على أحرّ من الجمر قرع جرس الانصراف، يريدون الانطلاق، يريدون انتهاء المعلم من الدرس الذي لم يعد يهتم أحد به من التلاميذ، ولا يفهمه. كل ما يريده في تلك اللحظة، هو الخروج، الانصراف، والركض إلى البيت..

لهذا لم يستطع في ذلك اليوم أن يناقش معلمه فكرة الفارق بين الشراء والاستوهاب. فالشراء والاستوهاب، في الأخير.. ستدفع مبلغاً من المال، أي بالنسبة للشاري لا فرق بينهما ما دام سيدفع مالاً.. ودق الجرس، جرس انصراف التلاميذ.

ظلت هذه القضية (قضية شراء القرآن واستوهابه) تشغل باله طويلاً، يستطيع أن يقول، طوال فصل الدراسي الأخير بالكامل. ثم خفّت حدّة تفكيره بها. إلا أنه كان بين فترة وأخرى يعيد الموضوع إلى ذهنه، ما يلبث أن ينساه. ويذكر اليوم بأن الموضوع لم يخطر بباله منذ أكثر من عشرين سنة، نسيه تماماً. ولم يثره بهذه الحدّة سوى شقيق صاحبه، صاحب المكتبة.

وهنا طرح على نفسه سؤالاً، كان بالأحرى عليه أن يطرحه على نفسه، منذ أن سمع من زوجته البارحة، وهي تطلب منه شراء نسخة من القرآن لابنهما خالد. فزوجته لم تقل أشتري، إنما قالت: استوهب..

لا يعرف، لا بل يستغرب الآن، كيف لم يفكر بقول زوجته التي طرحت أمراً كان قد نسيه منذ سنوات طويلة؟ كيف لم يفكر، ولم يسأل عن أسباب قول زوجته، استوهب؟ ثم متى كانت مثل هذه الأمور تشغل بالها، فهي لم تكن في يوم من الأيام قريبة من أجواء الدين وتعاليمه؟ لا بل لم تكن في يوم من الأيام تهمها مثل هذه القضايا، فهي منذ أن كانت صبية- مراهقة قطعت صلاتها بالدين، ولم تعد تتذكر من شعائره وممارساته شيئاً، لا بل كانت تستاء منه، وتعلن ذلك كلما حل شهر رمضان الغليظ، كما كانت تقول عنه. كانت تقول: إن النفاق يتجلى فيه بأحسن صورة وأجلها. كانت تقول: من أجل طقس سنوي،

على الناس، جميعاً، وليس فقط على الذين يمارسونه، أن يختبئوا كلما أراد إنسأن ما شرب كأس ماء، أو عليه أن يحاذر أثناء فطوره، ألا يحرّك ملعقته، خوفاً من أن يسمعه جاره الصائم في المبنى. هنا، في هذه اللحظة، بعد أن تذكر ما قالته زوجته حول استوهاب القرآن، تساءل: ماذا حدث؟ وكيف حدث؟ ولماذا؟

شعر باضطراب في عقله، عندما أراد تذكُّر سلوك زوجه، على الأقل في الشهور الأخيرة، فراح يرتب ذكرياته عن تصرفاتها، وكلامها في كل ما كان يتعلق بالدين، أو ما يوحيه في حياة الإنسان اليومية.. يذكر أنها تركت التنظيم النسائي منذ عدة سنوات. تركته، لأنها كما قالت: عبث لا غير، لا يمكن أن تقنع امرأة بحريتها، وهي تضع حجاباً، وتؤمن بأن من حق زوجها أن يتزوج من أربع نساء..

كان يضحك. كان يقول لها: هذا هو دورك في أن تقنعي هذه المرأة بأنها كائن إنساني لا يختلف في الحقوق والواجبات عن الرجل..

كانت تجيبه: ولكنها لا تقتنع، وإن اقتنعت تجد نفسها ضعيفة، لا تقدر على مجابهة الظروف والتقاليد والثقافة الاجتماعية. هز رأسه بقوة، وهو يهمس: ماذا حدث كي تقتنع اليوم، بأن المرأة عاجزة عن مقاومة ثقافة الناس وما اعتادوه؟ لا بأس، ربما ييأس الإنسان من

إصلاح أمر من الأمور، ولكن كيف يمكنه أن يصبح جزءاً من تكريس ذلك اليأس؟ أن يصبح هو أداة تيئيس؟

أعاد جملتها:" أن استوهب نسخة من القرآن، لأن خالد أضاع نسخته في درس الديانة".

ظل سائراً وهو عاجز عن الأجوبة على الأسئلة التي طرحها على نفسه، إنه أصلاً، لم يحاول التفكير في يوم ما، بأن مثل هذا الأمر يمكن أن يحدث مع زوجته. يمكن لها أن ترتد عن العالم المادي، الواقعي، إلى عالم افتراضي، غيبي مليء بالقصص والحكايات والأساطير والخرافات؟

ضحك ساخراً، وهو يتابع: ها أنت تقرر، متسرعاً، إنها عادت إلى الإيمان بعوالم غيبية، يسمونها، ظلماً، روحية، عالم يأخذك، ينسيك كل مشكلاتك اليومية من حياتية عامة، لتعيش في الوهم، على أنه العدل، إن كان هناك من يحس بظلم، سيأتي على يد الله في الدنيا الآخرة، أن تظن بأن الله لن ينسى من ظلمك في هذه الدنيا. وأنت رجل فقير، ضعيف، والظالم قوي وغني.. لذا تعجز عن الوصول إلى حقوقك المسلوبة. أو على الأقل، ستحصل على كل ملذات الحياة وأطايبها التي حرمت منها في هذه الحياة الواقعية، في الدنيا الآخرة، إن حققت رغبة الله في عبادته.. فمن السهل أن تقيم في اليوم صلواتك بانتظام، وأن

تقرأ القرآن بين فترة وأخرى، وأن تعدل، وألّا تكذب، ولا تزني، ولا تسرق. وإن استطعت القيام بهذه الأمور فستكافأ بجنة فيها كل ما حرمت منه في حياتك الدنيوية. ضحك بصوت قوي، ثم بتر ضحكته، وهو يقول: ولكن من المستحيل أن تقنع زوجتك بهذا العالم الوهمي. ذلك مستحيل..

أراد أن يكمل حديثه، إلا أن صوتاً في داخله، هتف به: أنت تتخيل المستحيل، ولكن هل عرفت الأسباب التي جعلت زوجتك تراه ممكن الحدوث؟

[5]

لأول مرة انتابها شعور بأنها تغيرت تغيراً بيّناً وواضحاً، فاستغربت من ذلك، لكنها ما لبثت أن أهملت الأمر ولم تحفل به، فقد بدا لها- هكذا شعرت- أنه أمر عادي، عادي أن يتغير الإنسان، وأن يجد نفسه على ما هو عليه من التغير..

طبعاً لم تكن مسرورة لذلك، ولم تكن حزينة أيضاً. لقد تغيّرت ضمن تحولات نفسية لم تقصدها، ولم تسعَ إليها، فمنذ صغرها كانت ترسم في خيالها صورة عن الحياة الأخرى التي ستنتقل إليها بعد الموت. تلك الصورة الغيبية التي استقتها من كتب دينية أثارت اهتمامها في مرحلة معينة من حياتها.. فذات يوم خطر ببالها، أن تسأل نفسها: كيف يمكن للمرء الذي يؤمن بهذه الحياة الغيبية التي يمكن أن يقال عنها، حياة افتراضية، وهو يعيش حياة الواقع المادي، الملموس، والمحسوس في كل يوم، ويعاني مشكلاته الجمّة؟ كيف يمكن له عيش التناقض في حياته؟ أن يعيش، في الوقت نفسه، حياتين؟ يعمل للعيش في حياته الواقعية، وفي الوقت نفسه، يعمل من أجل حياته الغيبية، الثانية التي سيعيشها بعد موته؟ فيذهب في قراءة الكتب ويطالع التفاسير لتلك الكتب،

ويعدَّها صورة حقيقية سوف يراها في حياته الأخرى بعد موته. كانت تحاول أن تتأمل تفاصيل الحياة في الكتب التراثية- الدينية؟

ذات يوم- تتذكر- أن فضولاً ما دفعها للبحث عن تلك الحياة الغيبية في حياة الناس، وخاصة أولئك الذين يحملون شهادات جامعية في شتى العلوم التجريبية، والإنسانية. لكنها لم تستطع أن تكمل بحثها.. فقد شغلها في تلك السنة أمر دراسة ابنتها التي تراجعت في الفصل الثاني من العام الدراسي.. وكانت بين حين وآخر، تتناول كتاباً من الكتب التراثية- الدينية التي باتت، في الآونة الأخيرة، تشتريها بسبب الفضول لا غير.. هكذا قالت لزوجها، عندما ابتسم، وهو يقلّب بعضاً منها، ما لبث أن قال لها معلقاً: أبعد الكتب العلمية تشترين هذه الكتب التي، في معظمها، مستمدة من حكاياغيبية.. ما الذي تجدينه فيها؟ ماذا وجدت في كتيِّب "علامات الساعة"، أو كتاب " تفسير الأحلام" لابن سيرين؟!

ارتبكت، بعد أن شعرت بشيء من الخجل، ثم قالت: لا أعرف! لعله الفضول لا غير. لم يعلق زوجها على ما قالته..

كانت تسرق بعض الساعات في اليوم، لتقرأ في آخر كتاب قد اشترته، أو ما ابتاعته من الكتب منذ أكثر من سنة، ولم يسنح لها الوقت سوى تقليب صفحاته. هذا إلى جانب ما قاله زوجها عن الكتب، فأخذت

تتساءل: لا أدري لماذا، في ذلك اليوم، انتابني شعوران. الأول هو الخجل من نفسي، لأنه كان محقاً، عندما قال: أبعد الكتب العلمية التي تبحث في العلوم المعاصرة التي تدفع عقل الإنسان إلى التفكير بما هو الأفضل له، تعودين إلى كتب عفا عليها الزمن، وقراءتها لن تفيد في شيء، بل هي مضيعة للوقت؟ أما شعوري الثاني، فكان رد فعل عفوي على موقفه. هكذا شعرت، المستخف بي، وبما أطالعه. لذا لم تتوقف عن التفكير بموقف زوجها، وهي تقول، كأنها ترد عليه: وماذا فيها إن قرأت الكتب الغيبية لأعرف ماذا فيها؟ وكيف كان القدماء يفكرون؟

ظلت في الأيام التالية على ردة فعلها، وإن كانت قد خفت إلى حدّ ما، فسألت: لماذا نظن، أن جميع هذا التراث معيق للتقدم والتطور؟ ظلت فترة طويلة مشغولة عن كتبها، ليس بسبب دراسة ابنتها، إنما بسبب شعورها المتردد بما كانت تؤمن به، وبين انتقاد زوجها الخفي في قوله: قراءتها مضيعة للوقت لا غير.

كانت، ويا للغرابة، وهي في هذا الجو، وصراعها الخفي مع موقف زوجها، على الرغم من أن زوجها كان قد أهمل الموضوع، ولم يعد يتحدث فيه، بعد موقفه ذاك، فانعكس هذا الجو على نومها، وما كانت تراه من أحلام. فقد نشطت الأحلام لديها وكثرت إلى درجة مثيرة للتساؤل! فهي لم تعد قادرة على النوم سوى أقل ما يمكن من ساعات

الليل، وفي بعض الأحيان، كانت تقوم بعد منتصف الليل، بعد أن تفشل حتى في إغماض عينيها. وأحياناً، وكانت قليلة، ترى أحلاماً عن ماض قديم جداً.

ضحكت ذات يوم، وقالت لزوجها: أتدري؟ لقد بدأت أرى أحلاماً قديمة في نومي.

هز رأسه، وكأنه يقول لها: لم أفهم! ماذا يعني أحلاماً قديمة؟

أجابته: بدأت أرى من جديد جدّتي وأعمامي وأمي..

ظل ينظر إليها، كأنه ينتظر منها أن تكمل. قالت: هل تذكر الأيام التي حدثتك عن أفراد أسرتي وأقربائي بداية تعارفنا؟

هز رأسه، أن نعم.

تابعت: هؤلاء الشخوص الذين عشت معهم سنوات طويلة، قبل أن يرحلوا عن دنيانا إلى دنيا الحق، بدأووا يظهرون في أحلامي.. حتى إنهم في بعض الأحيان يظهرون قبل أن أغمض عينيّ، فكثيراً ما رأيت أمي تفتح الباب، وتدخل إليّ، لتمد سجادة الصلاة، وعلى رأسها ذاك الغطاء السكري اللون الذي اشتريته لها، ذات يوم، في عيد الأم..

تتابع: بينما أنا جالسة على السرير، أسند رأسي إلى مسنده، أقرأ في كتاب ما. كان دائماً يبقى بلا عنوان، مجهول المؤلف، ولم يخطر في يوم من الأيام، أن أتساءل عن اسم المؤلف، أو أحاول أن اقرأه..

كانت عندما تنتهي من صلاتها، تظل راكعة، وظهرها لي، ووجهها إلى خزانة الثياب. لتقول لي، سائلة: ألم تتحجبي بعد؟ ثم تتابع، وهي تلم أطراف السجادة الصغيرة: العمر قصير يا ابنتي. لا تغفلي عن الله، لأنه لا يحب الغافلين..

تتابع بعد فترة: كنت، كلما أحاول أن أجيبها، كانت تختفي من أمامي..

ضحكت، حتى إنني في بعض الأيام كنت أسأل نفسي: ماذا يحدث يا.. هل فقدت عقلك؟ لا أجيب، لكنني أستمر ملتفتاً حولي، أبحث عنها، لأنها منذ لحظات كانت تصلي أمامي. منذ دقائق تحدثت معي.. ولكن! أين ذهبت؟ تابعت: وذات مرة قمت عن السرير، واتجهت إلى المطبخ، فلا بد لي أن أراها كعادتها تعد لنفسها كأساً من الزهورات التي تعودت عليها منذ سنوات طويلة. منذ أن كانت شابة، فأجد المطبخ فارغاً.. أضحك، وأعود لأكمل نومي من جديد، وأنا أتساءل: ماذا يحدث لي؟

قاطعها زوجها قائلاً: على ما يبدو أن هناك أمراً يشغلك فتريدين من والدتك أن تساعدك فيه؟ ثم يتابع بعد حين، بشيء من العتاب: الموتى لا يحلون مشاكل الأحياء يا عزيزتي.

ويمضي خارجاً..

بعد دقيقة من خروج زوجها من البيت، ران صمت عميق على جو غرفة المعيشة، حيث كانت تجلس. صمت لم تحس به فيما سبق من الأيام. صمت من نوعٍ خاص. حتى يمكن أن يقال عنه، احتل البيت بالكامل.. خيم، هكذا شعرت، غيمة ثقيلة فوق رأسها، قبل أن تنزلق وتحط على صدرها.. نعم صدرها، إلا أنها على الرغم من ذلك، من ثقل الصمت، كان ما يحيط بها يساعدها على التحمل، كان يساعدها على التخفف من الضغط. فقالت، ولا تعرف لماذا قالت ذلك: أعتقد بأنه على شيء من الحق، وعلى جزء من الحقيقة أيضاً، فالأمر يؤكده علم النفس، فالتفكير بشيء ما ربما تراه في المنام حلماً أو كابوساً.

بعد صمت، سألت نفسها: حقاً. ما الأمر الذي يدفعكِ إلى أن تتذكري والدتك، رحمها الله، بعد كل هذه السنوات من وفاتها؟ أنت التي لم تأخذي، في يومٍمن الأيام، بما كانت تنصحك به؟ وكانت جلّ نصائحها تتعلق بأمور الدين، وما يخص المرأة منه. ثم العمر قصير يا ابنتي، وعلى

الإنسان ألا يغفل الله وكتابه. لم تأخذي بنصائحها سوى بروح رياضية كما يقولون، فكنت تردين عليها، أن تدعو لك من أجل أن يقودها الله إلى الطريق الذي تتمناه لك.. ثم تابعت: لولا أمر ما، أو أمور تحرك في داخلك هذه القضايا القديمة، لما سعيت إلى والدتك وذكراها، كأنك تحاولين أن تجلبينها إليك في المنام. كانك تطلبين منها أمر ما، مساعدة، مثلاً. أو تريدين أن تُؤكدي الأمر في نفسك، لأنك فقط رأيت والدتك في المنام. حجة لا غير، تتخذينها من أجل أن تبرري أمراً تريدينه أنت، لتقولي، ليس لنفسك فقط، إنما لكل الذين من حولك، بدءاً من زوجك وانتهاءً بأبعد الناس عنك من الأقرباء. ترفعين الثقل عن كتفيك، ثقل انتقالك، لتضعيه على كاهل والدتك التي ترينها في أحلامك، أثناء النوم.

بعد طول تفكير، فيما قالته في نفسها، شعرت بشيء من الغضب: لا.. الأمر ليس هكذا. إنما. توقفت عن الحديث مع نفسها، بعد أن شعرت بأنها تهرب من حقيقة باتت تضغط على نفسها، حقيقة تريد إلباسها ثياب العواطف والذكريات أمام الآخرين. تريدين، قالت، تبرير سلوكك لتقولي: لولا دعواتها المتكررة، عندما أراها في المنام، لما فكرت بما أفكر به اليوم.

مرة أخرى توقفت عن الكلام، واعترفت بأنها لا تقول الصدق، لا تقول ما تريده، إنما تتخفى وراء الأحلام وزيارات والدتها في المنام لها.. إلا

أنها تجرأت لتعلن عن رغبها الدفينة التي باتت تصارعها من أجل أن تخرج إلى العلن، ألا تبقى في خبايا نفسها تمور وتمور.. قالت: عليك أن تجابهي نفسك أولاً، قبل أن تجابهي الآخرين. ردت عليها تلك الرغبة بشيء من السخرية: ماذا فيها لو تغيّر الإنسان؟ خاصة عندما يجد راحة في تغيّره، وتحوله من قناعة إلى قناعة أخرى، أو حتى إلى قناعات عدة؟

هذا الصراع الذي نشب في صدرها، وهي تناقش نفسها، لم يستطع أن يخرق الصمت المخيم عليها، وعلى جو غرفة المعيشة حيث تجلس، فقامت إلى المكتبة الخاصة بها، تريد كتاب " الحجامة الإسلامية"، أرادت بذلك أن تتحرك في الجو السائد لا غير!

للحظة، لحظة لا غير نسيت الكتاب الذي كانت تريده.. اختفت كل الكتب المرصوفة أمامها فوق رفوف المكتبة، وفي اللحظة التالية تذكرت ضحكة زوجها عندما كان يقول لها: ها أصبح لك مكتبة خاصة، ليس هذا فقط، وكتب أيضاً.

كانت ترد عليه: نعم، لأنني لا أجد ما أريد قراءته أحياناً في مكتبتك.

تذكر.. يظل على ضحكه، وهو يقترب من المكتبة، ويبدأ في قراءة عناوين الكتب المرصوفة على الرفوف بشيء من السخرية: وهل هذه الكتب، وأشار بيده إليها، هي التي تريدين قراءتها؟ هل ينقصك علوم،

طبعاً يجب وضع كلمة "علوم" بين قوسين، تتحدث عن القيامة، وعلامات ظهورها، وعذاب القبر، وأدعية الأولياء، والرقيات الشرعية لكسب المال، والشفاء، والصحة، و..

لم يكمل. اكتفى بأن ترك وراءه ابتسامة ساخرة، فيها شيء من المرارة، وعاد إلى متابعة ما كان قد توقف عنده بعد أن نظر إليها طويلاً: لن تجدي في هذه الكتب سوى عالم بعيد عن الحياة والواقع، عالم غيبي، أو عالم افتراضي أزرق.. ثم تابع باستنكار: لا أدري كيف تستسيغين هراء الغيبيات هذه التي تعمل على تعطيل العقل، وتتركه لعالم الجهل؟!

سألته: هل انتهيت؟

أجابها بصوت فيه شيء من الانكسار: غريب! تحولك هذا! من امرأة تحمل شهادة جامعية في العلوم الفيزيائية.. ثم عملت لسنوات في مجال تحرير المرأة، إلى عالم الغيبيات هذا، ودفعها إلى الخروج من المجتمع المنغلق الذي لا يرى في المرأة سوى وعاءً جنسياً! يراها كائناً بيولوجياً أدنى من الرجل، وكائناً اجتماعياً من الدرجة الثانية.

أرادت أن تقول شيئاً ترد عن نفسها هذه التهمة، إلا أنها وقفت عاجزة عن الرد على كلامه الذي كان واقعياً، وصحيحاً. ولكنه، هكذا تراه

اليوم، أصبح من الماضي بالنسبة لها. هي اليوم، في دخيلة نفسها، غير ما كانت عليه فيما مضى من السنوات.

عادت إلى ما كانت قد توقفت عنده.. عندما اختفت كل الكتب في مكتبتها، وأصبحت مجرد صورة غائمة، غير واضحة الملامح، بقي القرآن الكريم ظاهراً، متفرداً، متجسداً أمام عينيها..

في تلك اللحظة، تذكرت من جديد، ولا تعرف كيف، واحدة من الذكريات التي لم تنسها ابداً؟ لقد ظلت طوال حياتها، إلى اليوم تدور في ذهنها، لأنها كانت مضحكة، وفي الوقت نفسه حزينة. كانت قد رأتها، وهي في الثالثة عشرة من عمرها..

كانت من عادة جدتها، أن تستيقظ باكراً في صباح كل يوم جمعة، لتنكّب على قراءة القرآن الكريم طيلة الصباح، على الرغم من أنها لم تكن تجيد القراءة، ولكنها بصورة عفوية، كانت تحفظ كثيراً من السور القصيرة، تحفظها عن ظهر قلب، فتذهب في قراءتها مراراً وتكراراً.

وذات صباح، كانت حاضرة على مشهد ضحكت منه طويلاً، وقع ما بين جدّتها وأصغر أعمامها، فقد كان من عادة عمها أن يمازحها في مثل هذه الحالات، عندما كان يراها منكبّة على القرآن تقرأ فيه. فكان يعاكسها، يدور حولها، وهو يصدر بعض الأصوات تتوافق مع حركاته

التي كان يقوم بها، من رقص ودوران حولها، وهو يحاول أن يخطف القرآن منها، فكانت تنهي قراءتها بجملة "صدق الله العظيم"، ثم تضمه إلى صدرها، وهي تصرخ بابنها، أن يدعها. إلا أن عمها كان كلامها هذا يزيده في الحركات، والرقص الذي كان يقلد فيه القبائل الإفريقية البدائية، كما شاهدها في بعض الأفلام. وكان المشهد دائماً ينتهي بينهما، أن تذعن له، ولكنها كانت تشترط عليه أن يذهب ليتوضأ قبل أن يمسك بالقرآن. كانت تقول له مذكّرة: لا يمسه إلا المطهرون. لم تكن تعرف معنى هذه الجملة في تلك السنوات البعيدة ولم تكن تهتم في معرفة ذلك. كان المشهد بالنسبة لها، هو الأساس.

كان عمها يضحك طويلاً، ثم يتقدم منها، ويلفها بيديه الطويلتين، وهو يقبل رأسها، ويقول لها: آه يا أماه، لو أعرف ماذا تفهمين مما تقرأين؟ ثم يضيف: أنا نفسي لا أفهمه عندما أقرأ فيه. إنه أشبه.. آه يا أمي!

كانت جدتها تقول له: ليس مهماً أن تفهم ما تقرأ. المهم أنك تقرأ كلام الله، ثم الإمساك به فيه خير وبركة.

تذكر لم يكن المشهد ينتهي عند هذا الحدّ. بل كان الجزء الأول منه، وكان المشهد مضحكاً بالنسبة لها. أما المشهد الثاني فكان حزيناً. كانت

تحزن لحزن جدّتها، تبقى حائرة وهي تتساءل: ألا تلاحظ، جدّتها، أن ما كان بينها وبين ابنها، هو شيء من المزاح؟ ألا تعرف مزاج وسلوك ابنها الذي لا يعرف سوى المزاح، حتى إن بعض أصدقائه كانوا يضحكون، ويقولون له: والله العظيم لديك القدرة على إضحاك الموتى..

بعد خروج عمها كانت جدتها تغلق القرآن، تقبّله ثلاثاً وترفعه في صندوق قديم، كان من ضمن جهازها، يوم تزوجت جدّها منذ أكثر من خمسين سنة. كانت، كثيراً ما تألمت لحزنها، تحزن لتصرفات عمها. وعندما كانت تضحك، وهي تحتضن جدّتها، وتقول لها: لا تزعلي منه فهو يمزح. أنت تعرفين عمي كم يحب المزاح، ليس معك فقط، بل مع الكل.

كانت تقول: أعرف. لكنني أخاف عليه. أخاف أن يُغضب الله من تصرفاته هذه. ومن يُغضب الله يا ابنتي مصيره نار جهنم.

كانت تصمت طويلاً، وتغرق ملامح وجهها في حزن شديد، ثم تتابع: كيف يمكنني أن أراه، بعد عمر طويل، في النار يُعذب. يعذبه الله بسبب مزاحه، ليمزح معي، مع الناس، ولكن مع الله، فهذا حرام. حرام يا ابنتي..

تذكر، عندما كانت جدّتها تعود إلى حالتها الطبيعية، تفكر بكلامها، وتتساءل: أيمكن لله أن يعذب عبده من أجل مزاحه؟ كانت تظن بأن جدّتها تغالي في الأمر بعض الشيء، ولكنها، في الوقت نفسه، كانت تعلق: من حقها أن تخاف على ابنها من العذاب الأبدي. فهي تتمنى له جنة الخلد، ولكن.. على ما يبدو أن الوصول إليها أمر صعب، وليس بهذه السهولة. بحاجة إلى طاعة الله طاعة عمياء.

كانت تنسى حالة جدّتها مع ابنها في بعض الأحيان، وتذهب في التفكير في هذا الأمر. ولكن.. وهي، في تلك السنوات، كانت شابة صغيرة، لم تكن الأمور واضحة لها..

صمتت قليلاً، وراحت تفكر في تلك السنوات التي قالت عنها، بأن الأمور لم تكن واضحة لها. ولكنها اليوم.. عادت تفكر بها، تحاول عبر قراءتها أن تتوضح لها، أن يجلو الغموض عنها.. ولكن مع الأسف ما تزال غامضة وغير واضحة، لا بل زادت غموضاً، فترك هذا على سلوكها شكوكاً بغرابة تصرفاتها، حتى إن أولادها باتوا، هكذا لاحظت عليهم، ينظرون إليها نظرة قلقة، كأنهم يتساءلون: ماذا حدث لها؟ ماذا يعني أن تغير طريقة عيشها بغير طريقة العيش التي تعودوا على أن يروها بها، منذ أيام طفولتهم حتى اليوم.. وهم الذين تخرجوا من الجامعة، وباتوا على أعتاب بناء أسر خاصة بهم؟ هذا.. وقد أكد زوجها هذا الأمر

بالنيابة عنهم. فقال: لقد سألوني: ماذا في الأمر؟ تابع: لم أجبهم. قلت لهم: لا أعرف. اسألوها أنتم.

تذكر.. ضياعها في تلك الشهور الثلاثة التي اضطربت فيها أحوالها النفسية والعصبية، أولاً مع نفسها. وثانياً مع أولادها، وثالثاً مع زوجها..

كانت تنتظر في كل ساعة أن يتقدم أحد أولادها، ويسألها: ما بك؟ ما الأمر الذي تغيّر حتى تغيّرت أنت هذا التغيّر؟ فهم يريدون معرفة السبب. وهذا من حقهم.. لا يمكن لهم أن يظلوا يفكرون بوالدتهم، ويتساءلون عن الأسباب التي غيّرتها مئة وثمانين درجة كما يقولون، من امرأة كانت تستهجن كل الحكايات الخرافية والغيبية، امرأة ولدت في أحضان حياة تنفتح على العلم والمنطق، امرأة عملت زمناً طويلاً لتخليص المرأة من قيود عبوديتها البيولوجية للعادات والتقاليد الاجتماعية، لأجل إحقاق حقوقها ككائن يعمل ويساهم في النشاط الاجتماعي مثلها مثل الرجل، إلى امرأة استسلمت للثقافة الغيبية، وفي قراءة كتبها الصفراء المحشوّة بالخرافة، وعالم يعيش فيه الملائكة والشياطين، عالم غيبي- افتراضي، سينتقل إليه الإنسان بعد موته ليعيش في الجنة، أو الجحيم مخلداً فيهما. وذلك حسب أعماله الخيرّة، أو الشريرة التي قام بها في الدنيا الفانية.

كانت تفكر بالجواب، أو الأجوبة التي عليها أن تجيب بها على أولادها، إن سألوها.. تريد أن تقنعهم بأنها امرأة ما زالت تملك عقلاً سوياً، امرأة قادرة على تمييز ما بين الواقع الذي يعيش فيه الإنسان، وبين الخيال الذي يطمح إليه ويرسم أحلامه، والعمل لتحقيقها. كانت تريد أن تقول لهم: لم تجّن بعد، ولم تفقد إيمانها بالعلم، إلا أنها كانت تقف، ولا تكمل، فهي ذاتها غير مقتنعة بأجوبتها هذه. سيجدون تناقضاً واضحاً مبيّناً إيمانها بالعالم الغيبي وطموحها لتحقيق أحلامها فيه، وبين العالم الواقعي الذي تعيش فيه.. لم تجد الجواب، أو الأجوبة التي دفعتها إلى هذا الخيار الجديد في الحياة بعد هذه السن المتأخرة من حياتها.. هل تقول لهم: بأن والدتها راحت تزورها في كل ليلة، وتطلب منها الصلاة والصيام والزكاة، لأن الجنة والنار ليستا بعيدتين عن الإنسان، في لحظة ما، مهما كانت بعيدة سيجد نفسه يعيش فيها. العمر قصير يا ابنتي؟ هل تقول لهم: عندما اتذكر جدّتي، كيف كانت تخاف على أولادها، أولادها الذين لم يلتزموا في يوم من الأيام بالدين وطقوسه، كانت تخاف أن تكون نار جهنم مصيرهم في الآخرة؟

تتوقف عن الكلام، لأنها لم تعد تجيده، لم تعد تعرف ترتيب الجمل، فضحكت من نفسها ساخرة، ثم قالت: حتماً سيقولون لها، هل ستخبرينا أيضاً بما كانت جدّتك تخبرك به؟ أم أقول لهم: كل أحلامي،

وكل العمل الذي قمت به من أجل تحقيق تلك الأحلام في الحياة لم أجنِ منها سوى السراب. أقول: كنت مخلصة في عملي، وكانت لديّ القناعة التامة بأن العمل، مع الذين يشاركونني الأحلام سنصل إلى تحقيق ما نسعى إليه، في أن يكون العالم أجمل، والناس أكثر سعادة. إلا أنني لم أحصد في النهاية سوى الخيبة والانكسار، فوصلت إلى قناعة بأنني كنت أعيش وهماً لا غير خسرت بسببه خيرة سنوات عمري، أضعتها من أجل لا شيء.. ولكنها، تضيف، وكأنها بذلك تريد أن تعزي نفسها: على الرغم من ذلك لست نادمة، لأنها كانت خياراً اخترته بنفسي..

هذا العزاء، أو الموقف، أو القناعة كان يدعها تعيش عدة أيام، أحياناً تستمر لأكثر من أسبوع، بحالة من السكينة والهدوء النفسي، فتعود إلى حياتها العادية التي عرفها أولادها وزوجها عنها فيما سبق. فينعكس ذلك على أفراد أسرتها..

ولكنها كانت ما تلبث أن تعاود الصراع مع نفسها من جديد، لتهتز تحت ضغط مشاعرها المضطربة. مشاعر عرفت ماذا تريد، وكيف تعيش لأكثر من ثلاثين سنة، كانت في حياتها تلك، على قناعة بأن ما تعيشه هي الحقيقة المطلقة، لذا كانت ترغب وتتمنى للآخرين العيش مثلها. ثم ما تلبث أن تشك من جديد بموقفها، لتشعر بعكس ما تشعر

به الآن. لم تكن تعرف بأن يوماً ما سيأتي عليها، لترى فيه جديداً على أنقاض حياتها القديمة، فراحت تتساءل: كيف تم هذا الأمر؟ متى فتح هذا الطريق الجديد؟ ثم تحس وتشعر بأن يداً تدفعك للسير فيه، فتسير بفعل الفضول حيناً، أو بفعل الرغبة في تجربة جديدة لا ضرر من عيشها.

هذا ما كان، عندما وقفت أمام المكتبة الخاصة بها، وتأملت كل الكتب التي اشترتها في الأيام الغابرة دون أن تقرأها. كانت كلها، وهذا ما استغربته، تشير إلى مضامين عديدة، ولكن عن موضوع واحد وحيد. كلها، القديم فيها والجديد منه، تشير إلى عالم الغيبيات والشياطين والملائكة على ألسنة شيوخ الدين من الذين يضعون العمامات على رؤوسهم، أو من الذين يربطون أعناقهم بربطات العنق. ليس هذا وحسب، إنما شعرت، لأول مرة بأنها انساقت وراء هذا المنهج دون أن تخطط له. كما أنها تذكرت، كيف انساقتدون إرادة منها وراء هذه الدعوة لإحياء مشاعر روحية لديها، ومع مرور الأيام، وجدت نفسها في صراع نمط حياتها السابقة، لمّا كانت تقوم به، لصالح المجتمع النسائي، فكانت النتيجة أن وصلت إلى عالم من الخيبة والسراب، وبين حياتها الجديدة، التي لم تعرفها بعد، فراحت تتلمس الطريق إليها منذ شهور لا غير.

عندما وجدت نفسها في عالم أصبح من الماضي، لينهض على أنقاضه عالمها الجديد لتعود إلى الحياة التي تركتها وراءها لدى والدتها وجدّتها اللتين باتتا تعاودانها في كل ليلة تقريباً.

هذا ما وجدت نفسها فيه. عندما وقفت أمام مكتبتها. كما تقف الآن تنظر إلى رفوفها المحمولة بالكتب التي راحت تختفي وراء ضباب غشى عينيها، ولم يبق ظاهراً من كتبها، وواضحاً سوى كتاب الله. القرآن الكريم. القرآن وحده كان ظاهراً، واضحاً.. فتقدمت منه، وحاولت أن تتناوله، إلا أنها وقفت، على الرغم من أن يدها ظلت ممدودة لتسحب كتاب الله.. هنا تتذكر ما كان بين جدتها وعمها، وهي تحاول أن تبعد القرآن عن يده عندما كان يمازحها، محاولاً انتزاعه من بين يديها. تذكرت جدتها كيف صرخت به: اذهب وتوضأ إن كنت تريده، فهو كتاب لا يمسه إلا المطهرون..

بلعت ريقها، وأعادت يدها إلى جانبها، وهي تكرر قول جدتها: لا يمسه إلا المطهرون.

الرحلة الرابعة

صلاة متأخرة [2]

كانت الغرفة معتمة إلى حدّ ما، إلّا أن ضوء الممر كان قد ألقى شيئاً منه على داخل الغرفة..

وقف مضطرباً، بعد أن شعر بشيء ما في نفسه، تحرك واصطدم بكامل أعضاء جسده الداخلية، أحسّ بمعدته وامعائه ورئتيه، شعر بكل هذه الأعضاء الداخلية تهتز بقوة، ما لبث أن اجتاحتها قوة عاصفة لتصطدم بعضها ببعض مصدرة قرقعة، وعلى الرغم من أن القرقعة كانت قوية، إلّا أنها كانت خامدة، شيء ما منعها أن تصدر صوتاً قوياً، صاخباً، مجهولاً، لم يعرف من أين أتى، أو انبثق، أو حطّ عليه من علٍ، كما قال المتنبي ذات يوم!

كل الذي رآه كان عادياً، لو رأه في ظروف غير هذه الظروف، لكان الأمر أكثر من عادي، ولكن الذي رآه لم يكن عادياً، والمشهد الذي رآه كان غريباً..

كان المشهد فاقعاً، لا يمكن له أن يصدقه! لا يمكن له أن يستوعبه! لا يمكن له أن يستعيده، يستعيد مشهداً لم يكن يفكر في يوم من الأيام أن يشهده في بيته، ولم يخطر بباله، أو لا يمكن أن يخطر بباله، مهما

بالغ في التفكير، في المشهد الذي رآه.. أدار المشهد خياله، أداره عدّة مرات، إلّا أنه لم يقدر على تخّيله، على الرغم من أن المشهد كان بسيطاً. كان قد رآه في غير بيته مئات المرات، مشهد رجل يصلي، أو امرأة تصلي.. إلّا أن تكون هذه المرأة زوجته، هي التي تصلي، فلم يستوعب هذا. هذا المشهد الذي كان بالنسبة له أشبه بالخرافة، لا يمكن للعقل والمنطق أن يستوعباه، على أنه، ليس واقعاً، إنما خرافة كتلك الخرافات التي ضحك منها كثيراً لسنوات طويلة [1]

---

[1]. منذ أن كان صغيراً، لا يتجاوز الرابعة أو الخامسة من عمره، عانى من أمراض شتى، وكان أكثرها حدّة، هو مرض الإسهال "الديزنتاريا"..

نعم..

أنا كنت ذاك الطفل. لم أعانِ من ألم أي مرض من أمراضي، مثلما عانيت من مرض الإسهال.. وكانت المعاناة تتجسد في بقائي داخل المرحاض مدة طويلة، دون أن أشعر بأنني انتهيت، أفرغت كل ما في جوفي، كل ما في أمعائي.. أما الشرج فكأن هو الوحيد الذي يتركز فيه

الألم الحارق، والرغبة في العودة إلى المرحاض من جديد، لأن موجة جديدة من الماء الأصفر اللون في طريقه إلى الخروج.

لن أفصّل في معاناتي من هذا المرض الذي استمر لعدّة شهور قبل أن تتحسن حالي، ويخف المرض، إلا أن آثاره تركت في نفسي كطفل مريض، طفل لا رجاء منه في الحياة، لهذا عشت بعزلة عن أقراني من الأطفال، وخاصة عندما كنت أسمع في بعض الأحيان، كلاماً من التلاميذ الذين كانوا معي في الصف، أو في بقية الصفوف من الأصدقاء. كنت أسمع من بعضهم جملة" أبو صرم".

كنت أتجاهل من يقولها، ولا أحاول أبداً أن ألتفت إليه، كنت أتجاهله تماماً.. كنت أهمل هذا الموضوع إهمالاً تاماً..

إذا تركت أمر الأطباء في المعالجة لمرضي، إلا أنني لا أستطيع أن أترك ما كانت تقوم به أمي، بالاشتراك مع بعض النسوة من الجارات اللواتي، قبل والدتي، يُؤمنَ بالحسد والعين وغيرها من الثقافة المجتمعية التي يمارسنها في معظم الأحيان.. طبعاً، بعد أن يقدمون الأسباب التي تدعو لفقئ العين الحاسدة، أن تفعل فعلها في الناس نتيجة الغيرة من الذين ينجحون في حياتهم، أطفالاً كانوا أم نساءً، أم رجالاً في أعمالهم.. لهذا كانت والدتي تؤكد، لأكثر من جارة، أن العين هي التي أصابتني، وكان

العلاج الشعبي المتعارف عليه، هو القيام بعمل لفقئالعين الحاسدة، ليبرأ المصاب من مرضه.. ولفقئ العين، كان لا بد من كمية من الرصاص الأبيض، أن يذاب في داخل ملعقة خاصة لهذا الأمر.. ملعقة مدوّرة ومقعّرة توضع فوق النار، ثم يتم وضع الرصاص فيها حتى يذوب ويصبح رجراجاً، بلون فضي، تعلوه الشوائب، وعادة تكون بلون غامق.

هذه العملية كانت تشارك فيها أكثر من امرأة.. واحدة تساعد والدتي في إذابة الرصاص، وأخرى ترفع وعاءً عميقاً مملوءاً حتى نصفه بالماء.. كانت المرأة التي أذابت الرصاص تطلب من المرأة التي تحمل الوعاء أن تضعه فوق رأس المريض، الذي كنته، ثم تسكب مادة الرصاص المذاب في الماء مع تلاوة بعض الآيات من القرآن الكريم، فينفجر الرصاص المذاب مصدراً صوتاً مفرقعاً ما إن يلامس الماء ويغرق فيه، ليستقر في قعر الوعاء آخذاً أكثر من شكل، مصدراً دخاناً أبيض شفافاً وخفيفاً، ما يلبث أن يختفي متبخراً في الجو..

في معظم الأحيان، كان من تمارس عليه هذه الطقوس، يكون طفلاً أو طفلة لا يتجاوز عمرهما الثامنة، أو قد يكون أقل.. ينتهي به أو بها إلى البكاء، وأحياناً إلى محاولة الهرب من بين ساعديّ المرأة، وعادة تكون الأم. ثم تأتي قراءة الشكل الذي أخذه الرصاص على لسان المرأة المتخصصة في هذه القراءة. وعادة تكون القراءة أشبه بقراءة فنجان

القهوة! كانت القارئة تقلّب الشكل الرصاصي بين أصابعها، وهي تقرأ ما تراه، حسب زعمها.. عين زرقاء بجفن سميك. فم بشفتين غليظتين، امرأة طويلة، أو نحيفة، أو قصيرة سمينة.. إلخ. ثم يبدأ التخمين، من تكون هذه المرأة التي أصابتني بالعين؟ ما يلبث أن يقع اختيارهن، ولو كان بشكل نسبي، ومن دون قناعة، على امرأة ما، وعادة تكون جارة ولكن ليست قريبة منهن، جارة من الزقاق الثاني، أو الثالث من الحارة.. وعادة يختارون ممن يشاع عنهن الحسد، وإصابة الآخرين بالعين منها.

في تلك المرحلة، وأنا طفل صغير، كنت لا أعرف عن هذه الطقوس، سوى أنها ذات إزعاج، وشيء من الخوف، لأن تحضير الطفل كان يرافقه أن المرأة المختصة بالقراءة تتحدث عن الجن والأبالسة والشياطين، وتشبّه بعض النسوة بالحيوانات المقززة، كالأفعى، والعقرب، وكل ما يثير الإشمئزاز والقرف.. ظلت هذه الامتحانات التي كنت أمر بها عالقة في ذهني من دون أن تختفي لمدة طويلة، حتى بعد أن أصبحت في سن اليفاع. وعندماأتذكرها لأمر ما، كنت أضحك من عقول تلك النسوة، ومن بينهن أمي..

وما إن بدأتُ بقراءة الكتب، غير كتبي المدرسية، وأذكر ما كنت قد قرأته، كان كتباً في العلوم، ثم بعدها جاءت الكتب الدينية من القصص والحكايات والمرويات.. فعرفت من أين استقين تلك النسوة

فلسفة الطب الشعبي الذي مارسوه عليّ أكثر من مرة.. وكانت الأخيرة، عندما جهزن أمورهن، ووالدتي تشدني بساعديها إلى صدرها، وقبل أن ترفع المرأة، المشرفة على إذابة الرصاص في الوعاء المرفوع فوق رأسي. شعرت في تلك اللحظة أن والدتي قد أرخت ساعديها قليلاً عني، ففي لحظتها قفزت من بين يديها، وأنا أُبعد الوعاء بيدي من فوق رأسي ليتطاير مع الوعاء قطعة الرصاص المذابة لتصيب بعض قطراتها يد المرأة القارئة فتولول، وهي تمسح كفها الذي أصابته بعض الشظايا من الرصاص، بينما كنت قد أصبحت خارج البيت.

كانت تلك التجربة هي الأخيرة التي عشتها مع هذا الطب المشعوذ..

عندما تحدثت مع أولادي عن تجربتي لأول مرة، ظلوا ينظرون اليّ غير مصدقين، ثم ما لبثوا أن ضحكوا، لا بل انفجروا بالضحك، فانتقلت عدوى ضحكاتهم إليّ، ثم راح كل واحد منهم يعلق على الحكاية، حكاية العين الحاسدة التي تصيب، فيعاني من تصيبه شتى الأوجاع، قد تكون جسدية، أو مالية أو تمس المكانة الاجتماعية، لذا كانوا يخافون المرأة التي تملك قدرة على إصابة الناس بالعين. علقت ابنتي ميادة بتعجب: وهل جدتي كانت تقوم بهذه الأعمال؟ غريب! لم أَلْحَظ عليها مثل هذه الأمور، ولم تحدثنا عنها. أجبتها: لأن الطب الشعبي انقرض بعد أن شاعت العيادات الطبية التي تعتمد العلم الحديث.

ابتسمت، وقالت: الله يرحمها. لو كنت أعرف هذه الحكاية عنها، لكنت طلبت منها أن تحدثني عنها، فلا كان لديها تفاصيل أخرى عما حدثتني به.

هززت رأسي، أن نعم. ثم أضفت: فأنا لم أتحدث سوى عن الجو العام عن تلك الشعوذة الطبية دونما تفاصيل. ثم تابعت: ولا أريد اليوم إن سألني أحد، أن أستعرض له تلك الذكريات، على الرغم من طرافتها، ويمكن أن نضحك طويلاً على تلك الثقافة الدينية المعتمدة على كتب الطب الشعبي في تلك الأيام. تابعت، ولم تكن زيارة الناس إلى عيادات الأطباء، على الرغم من قلتهم، لجملة من الأسباب، كان أهمها الجو الديني، والثقافة المتخلفة التي كانت ما تزال متغلغلة بين الناس، ومعشعشة في رؤوسهم.. هذا إلى جانب قلة المال والحاجة. أما المصابون بالأمراض النفسية والعصبية فكانوا من نصيب رجال الدين المشعوذين في ذلك الزمن.

تساءل عمار: ولكن تلك الممارسات هي خارج القانون، فأي شخص، مهما كانت صفته يخضع للقانون، ويقدم للمحاكم مداناً بهكذا ممارسات لا غير..

قلت له: صحيح. ولكن لا تستطيع إدانة هؤلاء بحجة أن الدين مارسها سابقاً وما زال.. فقد كانت السلطة المسؤولة عن محاسبة هؤلاء تتردد، خوفاً من هياج شرائح من العامة ضد الأحكام والمحاكمات، لهذا كانت تغض النظر عنهاأحياناً. ألا يعني هذا - شارك خالد في الحوار- تدخل الدين في أمور غير مخول بها؟

أجبته: نعم. ولكن..

ابتسمت بسمة مريرة، ثم تابعت: من المؤسف أن تجد رجالاً درسوا في الجامعات، وحصلوا على إجازات في العلوم، رياضيات، فيزياء، كيمياء، طب، هندسة بكافة فروعها.. تراهم في يوم الجمعة يتسابقون إلى الجامع ليتخذوا الصف الأول مكاناً لهم، فقط من أجل أن يستمعوا بصوت واضح ما يتحفهم الإمام من القصص والحكايات والأساطير والخرافات عن الجن والشياطين والملائكة، قبل الناس البسطاء الأُميين الذين جاؤوا إلى الصلاة تقرباً من ربهم بحق..

قاطعني عمار: كلهم؟

أجبته: لا. ولكن الغالبية منهم..

وبعد طول صمت، تابعت سائلاً: هل سأل أحدكم لماذا اشترت والدتكم عدّة "الحجامة الاسلامية؟"، وباتت تحضر دروساً، تتعلم منها طرقاً يمكن أن تمارسها مستقبلاً لمعالجة مرضاها المفترضين؟

لم ينطق الثلاثة بكلمة، إنما التفت بعضهم إلى بعض غير مصدقين ما قلته.

ظللت أنتظر منهم جواباً، إلا أنهم لم ينطقوا بحرف. كانوا أشبه بمن سمع بخبرلا يمكن تصديقه! خبر فيه شيء من التجني، شيء غامض، غير واضح! هم يعرفون والدتهم معرفة جيدة، ويعرفون موقفها من هكذا نشاط لدى الآخرين، وكيف أنها دائماً وأبداً وقفت ضد كل شيء بعيد عن العلم، ويوافق الأفكار الغيبية. كانت دائماً تنظر إليه، على أنه استلاب، وانفصام في الشخصية الإنسانية، يعيش حياتين، حياة واقعية، وأخرى غيبية يؤمن بها من أجل عدم الدخول إلى النار، والولوج إلى الجنة الموعودة لكل عبد من عباد الله في حياته.

وقبل أن ينسحب الثلاثة من حضرتي، ضحك عمار، وقال: لا شك أنك تمزح يا أبي؟

ابتسمت له، وقلت: لا بأس. عندما تعود اسألها بنفسك عن عدّة"الحجامة الإسلامية". أما ميادة وخالد فكانا صامتين، كانا يفكران

بما قلته. كانا يريدان قول شيء ما، إلا أنهما لم يفعلا. لم يرغبا في أن يقتحما الموضوع قبل التأكد منه. وفي الوقت نفسه، كانا متأكدين من قولي، لأنه ليس من عادتي أن أمزح في مثل هذه الأمور.

لم أتابع الأمر بعد ذلك. وشعرت بأنني انجَررت إلى الحديث عما آلت إليه زوجتي - أمهم. فلولا الحديث عن العين الحاسدة، وطرق معالجتها للتخلص من شرورها، حتماً لما كنت قد تكلمت عما راحت والدتهم تؤمن به، وتعمل من أجله لتدخل إلى مثل هذه الحياة الغيبية، بدءاً بالصلاة وانتهاء بممارسات الطب الشعبي القائم في معظمه على ما قاله فلان من المصلحين، وما قاله علان من المتقين في شؤون هذا المرض أو ذاك، وما أكده الشيخ الجليل فلان الفلاني عن طرد الجن والشياطين من داخل هذا المريض، أو تلك المريضة عبر هذه التميمة أو ذاك الحجاب.. الخ.

فأنا ما زلت مصدوماً لِما رأيت عليه زوجتي في ذلك اليوم الذي بات بعيداً إلى حد ما. فكرت، وأفكر دون أن أصل إلى نتيجة مقنعة، إلى سؤال موضوعي، بعيداً عن المواقف الذاتية، من أجل أن أحظى بجواب شاف يلقي الضوء على ما وجدت عليه زوجتي في الشهور الأخيرة، ذلك إذا استثنينا الظروف المعروفة، في المجتمع، في مثل تلك الحال، وهي أن الإنسان التقليدي الذي لم يهتم في يوم من الأيام سوى بقشور الدين،

ولم يلتزم بفرائضه وتأديتها، هذا الإنسان الذي يكبر ويشيخ ويصبح في عداد المرشحين للموت.. أن يعود إلى الدين، يؤدي الصلاة، ويذهب إلى الحج، ويعطي الزكاة، ويحمل سبحة طويلة بتسع وتسعين حبة، مع إطلاق لحية كاملة، أو يكتفي بقليل منها، بحيث تغطي وجهه، مع حف الشارب، ويعمل على نصح وإرشاد الآخرين بأركان الدين..

هذا الرجل التقليدي، بتنا نعرفه، وهو حالة من كل الحالات التي، عندما يكبر أصحابها في العمر، وباتوا يشعرون باقتراب الموت، فيلجؤون إلى الدين خوفاً من نار جهنم، وأملاً في جنة لم يروها على وجه هذه الأرض، إنما رسمت في خيالهم كأمتع الأمكنة التي يمكن لهم أن يشدوا الرحال إليها..

لو رأيت نكوص زوجتي إلى هذا العالم الغيبي، للأسباب التي ذكرت، لتفهمت الأمر، واعتبرته قناعة وصلت إليها في سنوات عمرها المتأخرة، إلا أن هذا الأمر، هكذا رأيت ولمست، كان بعيداً كل البعد عن نكوصها عن الحياة وذهابها باتجاه عالم الغيب.. وهذا الأمر أكد لي مجمل الكتب الخاصة بها. كتب في كل المواضيع إلا أن جميعها تتحدث عن تفسير الأحلام، وقراءة المستقبل عبر الكف، والعيون الحاسدة، وقراءة الفنجان، والرقيات الدينية الشرعية.. كيف تبطل الحسد؟ كيف

تأتيك الأرزاق. كيف ترد الزوج.. الخ. كلها تتوجه إلى عالم لا وجود له سوى في مخيلتها. لقد وجدتها على تناقض شديد لا تفسير له.

كنت بعد تفكير طويل، وكان هذا يحدث دائماً، ويومياً، درجة الإرهاق، والإصابة بصداع يلف رأسي من الداخل إلى حدّ كانت عيناي، من كثرة الألم، تثقلان عليّ، فأشعر بصعوبة في فتحهما، كأنما ارتخاء أصاب جفنيّ فينطبق بعضهما على بعض من دون إرادتي. كنت، في مثل هذه الحالة، أتمدد على الأريكة في غرفة المعيشة، مغمضاً عيني لأريحهما من التعب والألم الذي يرافقهما.

كنت أحاول ألا أفكر بالأمر الذي وجدت زوجتي عليه، أحاول أن أُبعد عن تفكيري ما وصلت إليه من الأحوال، وهي الغياب عن الواقع، وأن أجد المبرر- مبررها- الذي أجابتني به، عندما سألتها: ما هو تفسير ما أنت فيه؟

أجابت: أجد راحة نفسية لا غير، وتابعت موضحة: بعد أكثر من أربعين سنة من التعب، والركض وراء الأحلام- الأوهام، بعد أن وصلت إلى حدّ اليأس من الحياة الواقعية التي أعيشها.. أريد أن أبتعد عن هذه الحياة القاسية قليلاً، أريد اللجوء إلى الحياة التي كانت نائمة داخل نفسي منذ أيام طفولتي- أريد العودة إلى جدتي وأمي.

ابتسمت لها بشيء من السخرية: ووالدك.. ألا تريدين العودة إليه؟

أجابت: لا تذكّرني به. لم أنسه، ولا أريد أن يذكّرني به أحد، إن لم أتذكّره بنفسي! ثم تابعت: هو اختار طريق حياته. طريقاً كان معجباً به. لهذا احترمت، وما زلت أحترم اختياره.

قلت معلقاً: هل سألت نفسك، كيف لرجل لا يملك من الشهادات سوى الابتدائية، كان يؤمن بالعلم دون الخرافات الدينية التي عدّتِ إلى الإيمان بها، أنت صاحبة الشهادة الجامعية؟

لم تجبني، إنما اكتفت بأن قالت: الله يرحمه برحمته الواسعة.

كنت في كثير من الأحيان، بعد أن وصلت إلى حدّ التعب من التفكير في الأسباب التي دفعتها للانسحاب من الحياة والالتجاء إلى عالم الغيب وقصصه وخرافاته؟ كنت أقول غاضباً: لتذهب إلى الجحيم. مالي ومال الحياة التي اختارت؟

أذكر بعد أن مضى الأولاد الثلاثة عني، تلقيت في المساء دعوة لعزاء أحد أقربائي الذين توفي في صباح اليوم نفسه. ففي مجلس العزاء، بالرغم من أنني لم اعرف إلا قلة قليلة من المعزين، كان من بينهم أولاد وإخوة المتوفى، جلس أحدهم إلى جانبي، وراح بين فينة وأخرى يلتفت إليّ

متأملاً وجهي. كنت في قرارة نفسي أعرفه، إلا أنني لا أتذكر من هو، قلت: قد يكون أحد أقربائي الأبعدين الذين انقطعت صلاتنا منذ زمن؟

أخرجني مما كنت أفكر به قائلاً: أتساءل إن كانت ظروف الحرب قد مرت عليك من دون آلام؟ استغربت سؤاله، خاصة أن الحرب أصبحت، تقريباً من الماضي. صحيح ليس بعيداً، إلا أن أحداً لم يعد يحفل بها، إلا من أصابته نيرانها! فأجبته دون حماس: ليس كثيراً. فقد عانيتها مثل غيري من الناس الذين عاشوها.

قال: أقصد ألا تكون قد تضررت منها مادياً أو.. ولم يكمل.

أجبته: لا.. ثم تابعت بكلام تقليدي يقال في مثل تلك الأحوال: الحمد لله.

هزّ رأسه، ثم راح يحدثني عن معاناته في الحرب.. ثرثر كثيراً عن قضايا أخرى، حتى خلت أنه سيحدثني عن أيام طفولته وحتى اللحظة، ونحن في عزاء شخص قريبي، ولا أعرف إن كان من أقربائه أم لا؟ إلا أنني لم أسأله عن ذلك.

قال سائلاً: هل تعرف أننا أقرباء؟ وابتسم: صحيح هي قرابة بعيدة، قرابة من طرف النساء وليس الذكور، إلا أنها، في النهاية قرابة..

هززت رأسي، وقلت: أهلاً..

ولكنني لم أحاول أن أستفسر عن مدى تلك القرابة، ومن هن النساء اللواتي جعلننا أقرباء؟ فراح يحدثني عن حكايات لم أسمع بها.. حكايات عن الأقرباء، بعضها وصلني منها كما تصلك الأخبار دون أن تتقصاها، كأنك سمعت حكاية غريبة لرجل غريب لا تعرفه..

بعد أن خرجت، بعد انتهاء العزاء، سرت على غير هدى في الشوارع، وأنا أفكر بهذا الشخص الذي قدّم لي نفسه على أنه أستاذ مادة" رياضيات"، طبعاً قدّم لي اسمه، إلا أنني لم أحفظه.. ما لبثت أن عدت إلى الرجل محاولاً أن أستظهر ما قاله، وما تحدث به من حكايات، ووقائع، وذكريات عن أناس- أقرباء- لم ألتقِ بهم أبداً.. كان يتحدث عنهم كأنني أعرفهم، وعشت معهم، ومع أحداث ما يقصه عليّ. وكان في بعض الأحيان يضحك، ويقول: لاشك أنك تذكر ماجرى معه بعد هذه الحادثة؟

تركته يتحدث بكل حرية، دون أن أتدخل بحديثه، ودون أن اقاطعه، وأخبره بأن الأشخاص الذين تتحدث عنهم، لا أعرف أحداً منهم، ولم ألتق بهم.

هذه الواقعة جعلتُ منها منطلقاً كيلا أعود إلى أسئلتي، وأسباب أحوال زوجتي التي أصبحت عليها في الشهور الأخيرة.. جعلتُ من الرجل حجّة لكي أتهرب من المعاناة التي فرضت عليّ من قبل زوجتي، وأن أعلن لنفسي: لتذهب إلى الجحيم هي وعالمها الغيبي الذي باتت تعيش فيه.

بعد أن فرض هذا الرجل نفسه عليّ، أو الأصح أنا الذي استعدته بعد خروجي من خيمة العزاء، محاولاً أن اشغل نفسي عما كنت أُشغلها في السابق قبل الجلوس إلىجانبه، والاستماع إلى ثرثرته، خلال اشتراكنا في عزاء القريب. قلت: استعد هذا الرجل، واستعد منه كل الحكايات التي سردها عليك، وحاول أن تعيد علاقتك معه، أن تشاركه أيضاً حكاياته، أن تعيد بناءها من جديد. ولا بأس في أن تضيف إليها أحداثاً، ووقائع لم يتحدث عنها الرجل، فهم، في النهاية، أقرباؤك، تستطيع أن تتقوّل عليهم ما تريد، فلن يغضبوا منك، خاصة إن كانت تقولات إيجابية، تصورهم صوراً جديدة من الكرم والشجاعة، ونكران الذات، والتضحية، أي أن ترسمهم رسماً جديداً، هم بالأصل على غير ما صورت كما يحدث في التاريخ عادة..

ولكنني، بصراحة، وجدت صعوبة، فالأمر ليس قصة تعرفها، وتعرف تفاصيلها حتى يسهل عليك سرد وقائعها، والدخول إلى تفصيلاتها، والنقاط التي يمكن البدء منها، والتقدم بها إلى صياغة حكاية، أو أكثر

من حكاية. وقد أحاول أن أولِّد حكاية من أخرى كحكايات ألف ليلة وليلة التي لا تنتهي. إلا أنني فضّلت، قبل أن أخوض هذه المغامرة، أن استعيد مواقف خالد وميادة وعمار، أولادي من والدتهم التي، على ما يبدو، لم يستقروا بعد على رأي لهم حول ما وجدوها عليه في الشهور الأخيرة.

كنت قد سمعت ميادة ذات مرة تقول لشقيقها خالد بشيء من الاستغراب، لا أدري لماذا أشعر ما رأيته من أمك، هكذا كانت تخاطب إخوتها عادة، إن كان الأمر يتعلق بوالدتهم كنوع من المزاح المضحك، على أن موقفها هذا، ما هو إلا نزوة عابرة وتنتهي! فأنا، عندما أتذكر مواقفها، وعما كانت تتحدث عن الدين وعالمه الغيبي لبعض النساء، من الجارات، أو الصديقات ممن يشاركنها العمل في المؤسسة. كانت دائماً تنفي وبقوة، وأحياناً إلى حد التطرف أن يكون هناك عالم في الغيب يوازي عالمنا الواقعي، عالم سنذهب إليه بعد الموت. كانت تضحك بسخرية مع النسوة..

تتابع: احترت، كيف لها اليوم أن تعود إلى هذا العالم الذي رفضته دائماً، واستنكرته على المعتقدين به، حتى إنها كانت تقول لهم أحياناً: عقولكم ليست في رؤوسكم، لو كانت كذلك، لفكرتم باستحالة أن

يتدخل الله في قضية الزواج، والأكل، والشرب، واللباس في حياة الإنسان! ثم، هل العدالة أن يسمح للرجل بالزواج من أربعة نسوة؟

كانت ميادة تنهي كلامها: لا أدري! عندما أفكر بأمرأمك، وهي على ما هي عليه من أفكار، أقول وبقناعة: إن ما تقوم به اليوم ستكف عنه قريباً، إنها نزوة لا غير! ثم تكمل: وأنت تعرف نزوات أمك.

قبل أن أتحدث عن موقف خالد، وكان في رده على ما قالته أخته ميادة، أريد أن أضيف ما سمعته منها، في يوم آخر، وكان قد مضى على حديثها أعلاه شهر. كانت تقول: هكذا سمعتها، وكان على ما يبدو قد فاتني كثيراً مما كانت قد قالته لأخيها قبل ذلك. كانت تقول: لا أدري لماذا أخذت هذه القضية كل هذا النقاش والتفكير؟ فأنا أرى، من حقها أن تؤمن بما تؤمن به، عالم غيبي، عالم افتراضي، أو واقعي، عالم موجود في الرأس فقط؟

ثم تابعت بعد صمت، كأنها حاولت بعد صمت أن ترتب ما تريد قوله، فهي تمارس حياتها وما تؤمن به بعيداً، حتى إنها لا تحاول خلال صلاتها، أن ترينا نفسها وهي تصلي، أعتقد، أنك لاحظت هذا الأمر بدورك، لأنك أكثر من مرة سألتني عنها، عندما كنت تعود إلى البيت، ولا تجدها. كنت أجيبك بإشارة إلى باب غرفة النوم المغلق. كنت تسأل: أتصلي؟ فأهز لك

رأسي، أن نعم. ثم لم تعد تسألني عنها، خاصة عندما كنت تجد الباب مغلقاً. كنت تكتفي بالضحك بشيء من السخرية. كان خالد يقول، وهو يرد التهمة عن نفسه: لم أكن أسخر من صلاتها، إنما كنت أسخر، وأنا أتخيل حركاتها التي تقوم بها أثناء الصلاة..

المهم، تابعت ميادة: لندع هذا الأمر، نترك هذه القضية.. هي قناعات كل إنسان، وعلينا أن نحترم قناعات الناس، كيف.. وهي، في الأخير، والدتنا؟

سأعود إلى خالد في رده على أخته ميادة: لديّ رأي آخر. لا أظن بأن نزوة ما قد أصابت أمك، فهي في سن لم تعد تصاحبها النزوات. إنما أمر آخر، قد يكون نفسياً، أو نكوصاً في عودتها إلى تلك الحياة التي ضمرت في داخلها منذ سنوات عندما تولدت لديها قناعات جديدة، وأحلام أرادتها، لا لنفسها بل لجميع الناس. أحلام في عيش حياة حرة، وكريمة، وعادلة للبشر.. أعتقد أنكِ لم تنسي تجربتها في هذا المضمار التي عاشتها سنوات طويلة، وعندما أصابها انكسار في أحلامها، كان لا بد لها من أن تستيقظ من أحلامها، وتنظر إلى الحياة بعين أخرى. فهي لم تعد صغيرة، كما كانت شابة في مطلع حياتها تملك من الأحلام العريضة ما تملك.

تابع خالد بعد صمت: تلك الحياة التي غرزتها جدتها في نفسها ذات يوم، عادت تستيقظ بعد انكسار أحلامها، عادت تلك القصص والحكايات الدينية تحيا من جديد في نفسها، بعد أن مات ذاك العالم الذي عاشت فيه سنوات طويلة.

أما عمار فكان له رأي آخر يختلف عن الاثنين، وأنا أميل إلى رأيه أكثر من رأييّ خالد وميادة، ألا وهو الخوف..

هذا ما كان قد أكده عمار أكثر من مرة. رأيه هذا لم يكن غريباً عليّ، إلا أنني كنت في شك منه، لأنها امرأتي منذ سنوات وعقود، فأنا أعرف، أن الخوف وحده كان سبباً في عودتها إلى أن تلتزم بأركان الدين، وأن تمارس شعائره، وأن تغير طريقة حياتها.. أعرف، كما قال لأختة وأخيه خالد: وأنتما تعرفان بأن الإنسان عندما يكبر، ويبدأ يشعر باقتراب الموت، وخاصة أولئك الذين انقطعوا عن العمل بحكم إحالتهم إلى التقاعد، فيذهبون في أنهم أصبحوا خارج الخدمة، أصبحوا من الزائدين عن الحاجة. باتوا أناساً يمكن ببساطة الاستغناء عنهم، أو حتى أن يُنظر إليهم كأموات في الحياة، على الرغم من أنهم لازالوا على قيدها. يبدأ يفكر بحاله ضمن واحدة من مجموع الحالات التي ذكرتها، ثم يفكر بأنه في كل الحالات المتعددة، فهو ميت.

الموت؟

الموت لا أحد يعرفه سوى الذي شاخ واقترب منه. يبدأ في التفكير في حياته الماضية، ينبشه، يبحث فيه عن أعماله، هل كان مفيداً؟ طبعاً تختلف الأجوبة من إنسان إلى آخر، ومن امرأة إلى رجل.. ولكن في النهاية سيصل إلى قناعة أن الموت حق. فيجهزون أنفسهم له، وعادة أول ما يبدؤون به، هو العودة إلى القناعات الدينية التي بالأصل لم تمت في أعماقهم، إنما ظلت قابعة في داخل النفوس، لأن الحياة كانت موّارة والواقع مغرياً فلم يكن لديهم وقت للعمل بهذه القناعات، بقيت من الأمور المؤجلة في النفوس..

ولكن اليوم، بعد أن أصبحوا على حافة الموت، بعد أن يبست الحياة لديهم، ولم يعد الواقع يشغلهم.. هنا يعودون إلى إحياء هذه القناعات الدينية، فيقول: ماذا عملت لآخرتك طوال حياتك؟ حياتك التي انتهت، أو بالكاد أنت تحيا.. قم وابدأ العمل لآخرتك.

والعمل للآخرة، أنتما تعرفان ما هو. العودة إلى الالتزام بالدين وتأدية شعائره، خوفاً من النار أولاً، ثم طمعاً بالجنة. جنة الخلد.

أنا، قال عمار، هذا ما أراه في عودة الوالدة إلى الدين، من صلاة وصيام، ولا استغرب في الغد أن تطالب الوالد أن يرافقها في رحلة الحج إلى بيت الله الحرام؟

قالها، الجملة الأخيرة، بشيء من علامة استفهام، حتى إن ميادة وخالد ابتسما، وقالا معلقين: لو طلبت ذلك من الوالد، هل يمكن أن يلبي لها الطلب؟

أجابهما عمار: اسألوه..

ولمدة ستة أشهر لم أسمع منهم أي حديث، أو تعليق على ما وجدوا والدتهم عليه. كأن الأمر بالنسبة لهم لم يعد بحاجة إلى التفكير فيه، كأنهم نظروا إليه كشأن خاص لا يمكن لهم التدخل فيه، خاصة، أن الأمر لا يزعجهم، ولا يسيء إليهم! ثم في الأخير هي والدتهم كما أكدوا هذا أكثر من مرة.. نعم. هي في الأخير.. والدتهم.

هذه الجملة، أعادتني إلى واقعة قديمة وقعت مع ميادة، يوم كانت في الصف الثالث الابتدائي.

كانت قد أنصرفت عصراً من المدرسة، في حالة مغايرة تماماً عن حالاتها التي كانت تعود فيها إلى البيت. كانت تعود ضاحكة، ترقص،

وتركض، وتعاكس أخويها أمام التلفاز وهم يشاهدون المسلسلات وأفلام الكرتون.. أي كانت طفلة عابثة، وكنا نحن سعداء بعبثها هذا.

ذلك اليوم عادت، كما قلت على غير عادتها. عادت بوجه واجم، وعينان فيهما شيء من الخوف. دخلت علينا، واتجهت مباشرة إلى سريرها، ليس للنوم، إنما لإخفاء نفسها تحت اللحاف! نظرت إلى زوجتي وكأنني أسألها: ما الأمر؟

قامت زوجتي، وذهبت إليها. وبعد أن أغلقت وراءها باب الغرفة، شعرت بالقلق منذ دخولها بتلك الطريقة إلى البيت، إلا أن قلقي ازداد أكثر عندما أغلقت زوجتي وراءها الباب. بدأت أفكر بأشياء كثيرة، وطرحت على نفسي أسئلة لم أجد لها أجوبة. قلت مهوّناً عني، لربما تكون مريضة؟ إلا أنني لم أقتنع بكلامي، لأن المريض يظهر عليه أعراض المرض، وما رأيته عليها لا علاقة له بالمرض.

المهم..

بعد ساعة، وأكثر خرجت زوجتي، وهي غاضبة وتلعن المدرسة، وبعض المدرسات فيها، وتؤكد أنها لن تذهب غداً إلى العمل، ستتصل بالإدارة وتطلب منها إجازة طارئة، لتذهب إلى مراجعة المديرة في المدرسة.

جلست وهي مستمرة بالكلام: أي غباء هذا الذي يحمله هذا الأستاذ أو هذه المعلمة؟ كيف يمكن لهم أن يتلو من القرآن آيات الرعب فقط التي تتحدث عن العذاب، وجهنم، والمشركين الذين سيصلون ناراً وعذاباً أبدياً.

كان الموضوع، أن معلمة مادة الديانة، اختارت كل الآيات المرعبة والمخيفة عن جهنم، والعذاب الذي سيلاقيه الكفار فيها. فأصاب ميادة، بعد سماعها هذه الآيات، برعب كاد أن يخنقها. قالت زوجتي: لم أستطع دفعها إلى الكلام أول الأمر. كانت تحاول التكلم، إلا أن شيئاً ما كان يسد حلقها، يمنعها من تحريك لسانها، فلم تستطع إلا بعد انفجارها بالبكاء، وهي تسأل إن كانت كافرة؟ هل ستذهب إلى جهنم لتحترق بنيرانها؟

أذكر، عندما عادت من المدرسة، بعد أن قابلت أولاً المديرة، ثم المعلمة، حدثتني: وهي لا تصدق أن يكون التعليم قد وصل إلى هذا الحد من البؤس. قالت: كلنا درسنا مادة التربية الدينية، ولكن لم يزرع أحد من مدرسيها الرعب، والخوف، والذعر في نفوسنا. ثم قالت: لقد ألقيت درساً قاسياً على المعلمة أمام المديرة، وقلت لها: أنت تجعلين من هؤلاء الأطفال أعداء للدين ولله عندما يستمعون منك هذا الدرس المرعب. نعرف أن الله جبار، وقهار، ولكننا نعرف أيضاً أنه رؤوف ورحيم.. قلت

لها: حببوا الأطفال بالله لا أن ينفرونهم منه عندما تكتفين بقراءة هذه الآيات المتعلقة بالجحيم، حدثيهم عن الجنة، وقدّمي صورة رحيمة عن الله.. بعد صمت. تابعت: بعد أن انتهيت من زجرها، أضافت المديرة تنبيهاً لها، فقالت: أرجو أن تكوني قد استفدت من هذاالدرس؟

هذه الواقعة لم أنسها في يوم من الأيام، دائماً كانت في ذاكرتي، ولا تغيب عن بالي. سأعود إلى صاحبي الذي عرّفني على نفسه يوم العزاء..

ما أذكره من كل الحكايات التي كان قد سردها علي، لم يعلق في ذاكرتي سوى طريقة حديثه، وكان متقطعاً، ما إن ينتهي من حكاية، حتى يعود إلى حديثه عن حكاية أخرى، وهكذا.. وكانت معظم حكاياته عن عذاب ما بعد الموت، وطرقه، وأن الله بالرغم من أنه رحيم، إلا أنه أيضاً جبار، لن يغفر للذين ينكرونه، أو حتى الذين لا ينكرونه إلا أنهم لا يطبقون ما شرعه لهم.

كدت أن أزجره، لأنه أوصلني إلى حالة، ليس الذعر، إنما الغضب إلى أقصاها. كدت أن أقول له: دعك من عذاب القبر، فنحن في مجلس عزاء، وفي مثل هذه المجالس من عادة الناس يتحدثون عن الرحمة والرأفة، حتى قرّاء القرآن، في مثل هذه المجالس، يتلون آيات تذكّر المعزين بالجنة وما فيها من طيبات، أي تشجيع الناس على ألا يهمل

الإنسان واجبه الديني تجاه الله. أن يحبّبه بالدين، والعمل على الالتزام بتأدية شعائره من صلاة وصوم.

قلت، على ما يبدو أن الناس، بعضهم طبعاً، يصابون أحياناً بالانفصام عن الواقع، فهم لا يرون، سوى الجوانب السوداء التي في نفوسهم، فيصيبهم الخوف والهلع من هذه الجوانب، يشعرون على ما يبدو، بتأنيب الضمير، لأنهم لا يتذكرون تلك الجوانب، أو تلك الأعمال الشريرة التي قاموا بها في مرحلة من مراحل حياتهم، ويأمنوا من الذعر إلى السكينة، وهدوء النفس.

تحضرني قصة واقعية عشت أحداثها، ورأيت نهايتها، قصة كانت في حياتي تمثالاً مبهراً، يمكن للمرء أن يدور حوله، ويتأمله من دون حرج. قصة صديق لا بل أخ، كانت الروابط التي تشد بعضنا إلى بعض أشد تماسكاً من الروابط التي تشدني إلى أخي ابن أمي وأبي.

بدأت حياتنا المشتركة منذ أن كنا في الصف الثالث الابتدائي، بعد ذلك لازمتنا سنوات الدراسة في المرحلتين الإعدادية والثانوية، ثم انتقلنا إلى الجامعة، وبعد تخرجنا، وتوظفنا معاً. ظلت صداقتنا، لا بل، إخوتنا طوال سنوات العمل حتى وصلنا إلى سني التقاعد..

لقد رافقنا بعضنا بعضاً لأكثر من خمس وأربعين سنة. أما قصته، فقد تزوج من زميلة له في الثانوية التي كان يدرس فيها، ولكنه، مع الأسف، لم ينجب ولداً على الرغم من كل المحاولات الطبية والعلاجات التي قاموا بها. كانت النتائج بلا جدوى.. لم أسأله في يوم من الأيام عن أسباب عدم الانجاب، إن كان السبب منه أم من زوجته؟ كنت أخاف جرح مشاعره. قلت، ما دام هو لا يريد أن يصرح بالأمر، فمن غير الحكمة أن أسأله.. ولم يكتف القدر بهذا الظلم بحقه، إنما أفقده زوجته التي كان يحبها كثيراً، في حادث سير وهي عائدة من المدرسة إلى البيت..

بعد فقدانه زوجته تغير تماماً. لم يعد ذاك الرجل الذي عرفته. الّتم على نفسه، ولجأ إلى قوقعة ليعيش فيها. ثم لجأ إلى الدروشة والتدين، حتى بات يحمل معه القرآن في حلِّه وارتحاله.. وكانت الحدائق، في الصيف، والمقاهي في الشتاء. كان دائم القراءة فيه.. فذات يوم قال لي بصوت خافت، وهو يلتفت فيما حوله: كم هم أغبياء!

استغربت كلامه أول الأمر، ثم تساءلت: من؟

تابع: كيف لم يستطيعوا اكتشاف نظرية سرعة الضوء في القرآن الكريم قبل أن يكتشفها العالم الغربي، لقد نسيت اسمه؟ وكان

الصديق هذا مدرساً لمادة الفيزياء.. وفي يوم آخر، قال لي، بصوت خافت أيضاً، وهو يلتفت فيما حوله، كأنه ينظر إن كان هناك أحد ما يستمع إلى كلامه: أتدري؟ لقد اكتشفت نظرية في الضوء تخالف تلك النظرية التي اكتشفها ذاك العالم الغربي، وأنا الآن أكتب معادلاتها.. وعندما أنتهي من ذلك سأرسلها إلى المجلة الفيزيائية العالمية التي تصدر في برلين عاصمة المانيا، لنشرها، وتثبيت حقوقي كبراءة اختراع فيها.

حزنت لأجله كثيراً عندما سمعت هذا منه، فعرفت من دون أن يساورني أيَّ شك بأن الرجل بدأ يفقد عقله..

ذات يوم ذهبت في زيارة له، وكان قد انتقل إلى بيت أهله القديم بعد وفاة زوجته كي يعيش مع أخته العانس، فوجدته في حالة يرثى لها. كان منهاراً إلى حدّ أن قال: لولا أن الله قد حرم قتل النفس، لانتحرت، فأنا لم أعد أستطيع العيش مع أناس لا يعرفون سوى الشر. يتصرفون بسلبية مطلقة، تجعل منك إنساناً محبطاً، ترميك في عالم من الكآبة والعزلة والموت. ولم يمض على لقائي به أسبوعاً حتى سمعت بوفاته.

قالت أخته: نام ولم يفق. إلا أنني شككت بوفاته، بعد أن تولدت لدي قناعة بأنه انتحر.

هذه القصة الواقعية أخبرت بها زوجتي ذات يوم، قبل عودتها إلى عالم الغيبيات، فعلقت قائلة: هؤلاء الذين يعودون إلى الدين عندما يكبرون، يتصرفون بشكل قبيح ومستفز للآخرين.

ثم قالت: إلا أن صاحبك هذا، مارس هذا الدور مع نفسه، لقد استقبح حياته بعد أن عاد إلى الدين، واستغفر وجدانه، ففضل الموت على الحياة، هذ إن كان قد انتحر فعلاً، ولم يمت موت ربهكما قالت أخته.

ظل رأيها هذا في ذاكرتي، وكنت بين فترة وأخرى أقارنه بما قالته ذات يوم: من أن الذين يعودون إلى الدين، بعد انقطاعهم عنه. هؤلاء عندما يعودون ويمارسون شعائره، مع الأسف، يصبحون أسوأ الناس، لأنهم يسمحون لأنفسهم بالتدخل في كل صغيرة وكبيرة في حياتك باسم الدين، خاصة إن كنت من أقربائه، أي يستطيع أن يحدثك عن هذه الأمور دونما حرج، من باب النصح، والغيرة، والخوف عليك من عذاب الآخرة.. وبذلك يصبحون أسوأ الناس.

عندما كنت أنتهي من المقارنة بين قوليها، ما قالته بحق صديقي المنتحر، وما قالته بحق قريب لها، كان ملحداً في مرحلة من مراحل

حياته، ليعود ذات يوم إلى حمل راية الدين كداعية غليظ الخَلْق والخُلُق.

هذا التناقض بين رأيها ظل يدفعني إلى التفكير باستمرار، بسؤالها عنه.. إلا أنني كنت أرجئ الموضوع، لم أكن لأجد الظرف المناسب لطرح سؤالي عليها. كنت أريد أن يكون سؤالي عفو الخاطر، ليكون جوابها حيادياً، وليس ينجم عن ردة فعل ما..

وذات يوم، كان الأولاد قد ذهبوا إلى بيت عمتهم لزيارتها، لا أذكر السبب الذي جاء فيه على ذكر قريبها المرتد إلى الدين بعد إلحاد. إن كانت ما تزال على رأيها بحق قريبها؟ فذكّرتها به، ومن دون أن تفكر بمقاصدي، أجابت: نعم. لماذا سألت؟

لم أتوقع أن تسألني عن السبب، لأنني كنت أود سؤالها، إن كانت هي أيضاً قد أصبحت سيئة بعد أن عادت إلى الدين وتأدية شعائره؟ إلا أنني لم أسأل. شعرت قبل النطق بالسؤال، سأُحرجها مهما كان جوابها.

التفتت إلي، وسألتني: لم تجبني.

قلت: لا شيء. كان مجرد سؤال.

ظلت تنظر إلي، وكانت في الوقت نفسه، على ما يبدو، تدير سؤالي في نفسها، بعد أن خمّنت بما كنت أفكر به، وهو المقارنة بين رأيها: في صاحبي المنتحر، وفي قريبها، وبما في رأيها من تناقض. فقالت: إن كنت تلمح إلى قريبي، وقولي فيه؟ فنعم، أنا لا زلت على رأيي، أما عودتي أنا، كما أحببت أن تسمي موقفي، فلم أعد لأزعج الناس، وأحضهم على ممارسة شعائر الدين، وتقديم النصائح والفتاوى لهم. أمرهم لا يعنيني. ما يعنيني هو راحة نفسي فقط. فأنا بالرغم من انقطاعي الطويل عن تأدية الشعائر الدينية إلا أنها، لم تمت في يوم من الأيام في داخلي.

سكتت، وهي تنظر إلي، كأنها تنتظر مني تعليقاً ما.

أدرت نظري، دونما تعليق، إلى النافذة الواسعة أمامي، حيث في البعيد، كانت رؤوس أشجار السرو الغامقة تظهر على أرضية السماء الزرقاء، تعلو الحديقة التي كثيراً ما جلست فيها وحيداً. وعندما لم أعلق، عادت إلى الكتاب الذي كان بين يديها تقرأ فيه. في تلك اللحظة شعرت بأنها غير صادقة فيما قالته عن نفسها، لم تعترف بأنها عادت لأكثر من سبب، وكان هذا ما أخفته، في سبيل منافع ما، أو في أحسن الأحوال، عادت خوفاً من الموت الذي كان يقترب مع تقدم العمر ومرور السنوات.

لا أدري لماذا شعرت في تلك اللحظة بشيء من الانكسار في النفس، والخيبة المريرة، وتولد شعور بأن هذه المرأة التي أمامي لم أعد أعرفها. لم تعد تلك المرأة التي قضينا معاً سنوات طويلة، بعد أن أنجبت لي ثلاثة أولاد. كانت امرأة أخرى، امرأة عادت إلى قراءة كتب صفراء بالية..

نعم، صفراء وعمرها مئات السنين. عندما سألني ذاك الذي في داخلي، إن كنت على استعداد للسهر؟ التفت إليه، وأنا أدوّر سؤاله في نفسي، متذكراً مزاجي منذ أن كنت شاباً صغيراً، إلا أن الزمن لم يعد يسمح لي بمثل تلك السهرات إلا بصعوبة، وعلى مضض. على الرغم من ذلك لم أتخل عن بعض السهرات الخفيفة، على خلاف تلك التي كانت صاخبة، فيها كل الموبقات. كان ذاك الذي في داخلي يضحك عندما يسمع بكلمة الموبقات. كان يرد: الحياة كلها موبقات يا رجل. يتابع، حتى الأنبياء لم يتحاشوها في حياتهم، تريد مني أن أتحاشاها؟ لا والله. ما دام الله منحني هذه الحياة، سأعيشها بالطول والعرض.

ما زال ذاك الذي في داخلي ينتظر مني الجواب. ولكن كنت محتاراً، فأنا لم أتخذ قراري بعد، ما زلت أفكر، هل أقول له نعم. أم أقول: لا. وأنا اتخيل الوضع الذي سأجد نفسي إن أجبته، نعم؟ أو لا؟ وبعد مدة، أعتقد كانت طويلة، قلت لنفسي: اخرج من هذا الوضع الذي أنت فيه، بعد حوارك مع زوجتك. أجبته: لا بأس.. ولكن على شرط. قال: ماهو؟

أجبته: لن تكون طويلة، أقصد السهرة، فأنا أعيش في حالة من الارتباك، واليأس لما وجدت زوجتي عليه..

قاطعني: لا بأس. هذا يعني علينا أن نبكّر في الذهاب. أي ما بين الساعة السابعة والثامنة. اتفقنا؟ سأل.. أجبته: اتفقنا. ثم سألته: كالعادة مقصف "العندليب"، أم تريد مكاناً آخر؟

أجاب: سآخذك إلى مكان جديد افتتح منذ ثلاثة أشهر.. تحفة من التحف.

ابتسمت له، وقلت: لا بأس.

كعادتي في مثل هذه الجلسات، حيث الأكل، والشرب، والحديث عن كل ما يخطر بالبال. من مشكلات الناس، وفساد رجال الحكومة وتخلف المجتمع الذي بات فاقعاً، وظاهراً، وشائعاً، وغلاء المعيشة، وتراجع التعليم في كل مراحله، والمفسدين الذين باتوا أكثر من الفاسدين أنفسهم. كثير من القضايا العامة نتحدث عنها. وقليل من الأشياء الخاصة نصرح بها.. وذلك لسبب بسيط، وهو ألّا نصدع رؤوسنا بشؤوننا الخاصة.

وكعادتي أيضاً، كنت في مثل هذه الجلسات قليل الأكل والشرب. كأس واحدة، وبضع قطع من اللحم ولقيمات من صحن الحمص والمتبل إلا أنني كنت أكثر من البطاطا المقلية المقرمشة. كنت أحب صوتها تحت أسناني وهي تتكسر مستمتعاً بملوحتها طويلاً.

كان المكان جديداً بالفعل كما وصفه، حتى إنني ظللت طويلاً أدير نظري في أركانه، وسقفه، وكل التزيين غير التقليدي الذي نراه في المطاعم والمقاصف.. وكان الزبائن يعدون على الأصابع.

لا أدري في هذه السهرة، اختلف الجو، وخاصة الحديث، فلأول مرة لم أحبذ الحديث في الشأن العام، وعن أوضاع البلد والناس كما ذكرت، إنما أردت الحديث عن الشؤون الخاصة، ولكن بصورة عامة، ودون إسقاط الحديث على حياتي في الآونة الأخيرة. وعلاقتي مع زوجتي بعد عودتها إلى عالمها الغيبي الذي أصبح بالنسبة لها بديلاً عن العالم الواقعي المعاش. طبعاً ليس لإدانتها، ولا طلباً لنصيحة ما.. إنما بحثاً عن الأسباب التي يمكن، لا لزوجتي، بل لأيّ كان، رجلاً أو امرأة، أن يعود إلى عبادة الوهم الذي في داخله، إن لم أقل احتلال رأسه ودماغه! فأنا، في كل الشهور الماضية، بعد أن رأيتها في صلاتها، سألت عن الأسباب.. لكنني لم أجد جواباً مقنعاً، بل الجواب الوحيد الذي قالته وكررته، على أنها، الصلاة، تمنحها الراحة النفسية.. مع إنكارها التام، بأن عودتها إلى

الدين والتزامها بشعائره هو تقدم العمر وربما الخوف من عذاب القبر، أو طمعاً بالجنة ومسراتها.

لم أقتنع بجوابها، لأنها تجانب الحقيقة التي دفعتها للعودة إلى طريق، هي بالذات تخلت عنه وانتقدته، وسخرت من كل الذين ساروا عليه ذات يوم. هذا إلى جانب، أن عودتها كان مفاجأة، ولم أجد لديها، قبل أن أراها في صلاتها، أي تحول إلى هذا الأمر.

لذا لا يمكن للإنسان أن يقف فجأة، ويلتفت إلى الوراء، ثم ما يلبث أن يعود من دون سبب إلى المكان الذي انطلق منه، إلا إذا كان قد نسي شيئاً. كانت تعاني من التعب في البدن، وفي العمل، وفي بعض علاقاتها مع الناس.. مثل هذا التعب كنت أراه كثيراً عليها. وكانت تحدثني عنه بين فترة وأخرى.. إلا أنها لم تحدثني، ولم ارَ أي تعب نفسي عليها في يوم من الأيام

سألني الذي في داخلي، وهو يداعب كأسه بأصابعه الطويلة، في حركة دائرية: ما بك؟ أراك شارداً عن الجو؟

ظللت أنظر إليه، وأنا أفكر بالجواب.. ولم أنطق به إلا عندما قال: إن كنت لا ترغب فلا بأس.

ابتسمت باقتضاب، ثم قلت: ليس هكذا. الأمر وما فيه، أنا في حيرة من أمري، لأنني لا أعرف أسباب الشرود. على الرغم من أنني أعرف أسباب الوضع الذي أنا فيه. ابتسمت له، ثم قلت متابعاً: تصور أن تستيقظ، ذات صباح، فتجد نفسك محاطاً بالجن والملائكة والشياطين، وهم يحتلون بيتك بالكامل، ويشاركونك الطعام، وينامون في سريرك، ويدخلون ما بينك وبين امرأتك. تبدو زوجتك طيفاً، وهي ترتدي ثياب الصلاة، كما الأطياف التي نراها في بعض الأفلام السينمائية، وهي تطير في جو الغرفة، ثم تجد في كل يوم رجل يؤذن بصوت قبيح يدعوك إلى الصلاة.. وعندما لا تلبي له ما يريد يدفع بطوابير مخلوقاته من الجن ليحتلوا الكراسي والأرائك في بيتك، أو تجد زوجتك بصحبة الشياطين المؤمنة، وهم يصلون جماعة، بحيث لا تستطيع التحرك من الازدحام في متر واحد من الأمتار التي يتألف منها مساحة بيتك. تسمع ضحكهم الفاجر، وأحياناً بكاءهم المثير للاشمئزاز، وأخرى شخيرهم المزعج إلى حدّ القرف، وهم نيام.

بعد صمت. وأحياناً لا أستطيع قضاء حاجتي، لأن الحمام محجوز بشكل دائم، ما إن يخرج أحدهم حتى يدخله آخر، لا يتركون لك مجالاً لكي تقضي حاجتك الطبيعية.. وأمام هذه الحياة اضطررت أن أجلس إلى زوجتي وأخبرها، أن تطرد كل ما جلبته، بعد عودتها إلى الدين، وأداء

شعائره، من الجن والشياطين والملائكة، وأيضاً تلك الأطياف التي ترافقها أثناء صلواتها الخمس التي تمارسها في اليوم، لأنني بت غريباً في منزلي، مسجوناً، غير قادر على الحركة، فهؤلاء الذين جلبتهم إلى البيت جعلوا حياتي جحيماً. ثم قلت لها: وإلا سأضطر أن استعمل معهم العنف، فهذا بيت وليس جامعاً.. ليخرجوا من بيتي، ويذهبوا إلى أي جامع من جوامع حلب، فأنا..

قاطعني الذي في داخلي، وعلى وجهه بسمة ساخرة: لم أكن أعلم أن لك خيالاً خصباً، ومجنحاً هكذا.. اعترضت على قوله: ما قلته، ليس من الخيال. إنه الواقع الذي أعيشه، وإن كنت لا تصدق، فيمكنك أن تزورني في البيت لترى ذلك بعينيك، لترى هؤلاء الذين حدثتك عنهم.

ظل ينظر إلي بطريقة لم أستشف معناها، نظرة فيها من يشك في سلامة عقلي. فهز رأسه، وقال: سأزورك.. طبعاً ليس للتأكد من الأمر، إنما لأداء الواجب فقط. قلت: أهلاً وسهلاً.. وتابعت: قبل أن تعود زوجتي إلى أوهامها، كان البيت بيتاً لا جامعاً يجتمع فيه الجن والملائكة.. توقفت عن الكلام. شعرت كأنني صدعت بكلامي رأس الذي في داخلي، بعد أن بدا الأمر لم يعد يعنيه، إلا أنني قلت، لا أعرف الأمر الذي دفعها إلى العودة إلى أوهامها؟

قال لي: إن كان ما قلته حقيقياً، دعها.. وحاول أن تجد صيغة ما للعيش في الجو الجديد الذي وجدت نفسك فيه، كف عن الحساسية بالموضوع.

ضحك: ثم انس موضوع الجن والشياطين، فهم موجودون في كل الأمكنة حتى لديّ، فبيتي مليء بهم.

ضحكت له، وقلت: هل زوجتك أيضاً..

قاطعني: لا. ولكن الجن والشياطين الموجودون لدي يختلفون عمَّا عندك.

وتابع، هذه المرة بجدية أكثر: يا صاحبي. مجتمعك كله من الجن.. فمن يحمل شهادة دكتور إلى ذاك الذي لا يعرف القراءة والكتابة نكصوا إلى الوراء، لم يعودوا يسألون إلا عن الجنة وملذاتها..

سكت طويلاً، ثم سأل: أتدري لماذا؟!

لم يدعني أجيب، فتابع: لأن الواقع الذي يعيشونه منذ أكثر من خمسين سنة، واقع الفقر والجهل والتخلف، هو الذي دفعهم، بعد الانكسارات والخيبات إلى ما هم عليه اليوم.. فالأمر ليس فردياً يتعلق بزوجتك، إنما برأيي هو جماعي.. ألا ترى لوثة التدين في الشوارع التي تُقطع، في صلاة يوم الجمعة؟

لم أعلق. فكل ما قاله دقيق، لهذا التزمت الصمت.

عندما عدت إلى البيت، وكانت الساعة تقارب الحادية عشرة، دخلت غرفة النوم، تناولت منها وسادة، وبطانية وخرجت..

ماذا؟ تساءلت زوجتي. هل لدينا ضيف ما؟

أجبتها: لا. لي أنا..

أين؟ سألت.

أجبتها: على الأريكة في غرفة المعيشة..

لماذا؟

أجبتها: كيلا أقطع لك صلاة الفجر! أنت تعرفين كثرة خروجي إلى الحمام، خاصة في ساعة الفجر..

لا أدري إن كان في كلامي لهجة من السخرية، أم إنني تصورت هذا الأمر، لأنها لم تعلق. ظلت تنظر إلي، باحتجاج ظاهر، تصورت أنها ستعلق بكلمة، أو جملة تبدي احتجاجها على تصرفي.. أن تقول لي: ما هذه سوى حجة للابتعاد عني، ليس لأنك لا تريد أن تقطع صلاتي، ثم تصورت أن تقول لي، صلاة المرء لا يقطعها رجل، إنما يقطعها امرأة، وحمار، وكلب أسود. قلت: لا بد أنها قرأت هذا الحديث في كتبها التي غرقت فيها في الأشهر الأخيرة.

خرجت من غرفة النوم، ملتجئاً إلى غرفة المعيشة، وهناك وقفت في منتصفها، أنظر أي الأريكتين أجعلها سريراً بعد اليوم؟

ففي الليلة الأولى التي نمت فيها خارج غرفة النوم، عاودتني الذكريات، والوقائع، والأحداث، بعضها مؤلم، وبعضها عادي، وكانت تحمل في طياتها ذكرى لم أستطع نسيانها، ظلت ترافقني طويلاً بعد أن أصبحت كالوشم الباهت، لطالما حاولت محوه.. تقلبت كثيراً فوق الأريكة، لم أستطع النوم، كنت ما إن أغفو، حتى أجد جسمي قد ابترد إذ انزلق الغطاء عنه، فأحاول أن ألف جسمي بالبطانية من جديد. ولعل الأمر الذي فكرت به طويلاً، وحولت أن أجد له حلاً، هو ماذا سأقول لأولادي عندما يرون مغادرتي غرفة النوم إلى غرفة المعيشة للغاية ذاتها؟ أي حجة يمكنني أن أقدمها لهم؟ أعرف أنهم سيتساءلون عن الأمر؟ ما الذي حدث بين والدينا؟ هذه أول مرة نرى الوالد ينام خارج غرفة نومه إلى جانب الأم؟

طبعاً قد يسألونني عن السبب، وقد لا يسألون، ولكن ميادة حتماً ستسأل والدتها. فكيف سيكون جوابها، الله وحده يعرف. وقد يعلق أحد الوالدين بصورة مازحة: ماذا في الأمر يا حاج؟ وكلمة الحاج عادة يمازحني بها عمار على الرغم من معرفته كم أكره هذه الكلمة، إلا أنه لا يتوانى أن يمازحني بها.

قلت: لا أعرف. قلت: دع الأمور تجري بالطريقة التي تجري بها، ففي الختام ستجيبهم بحقيقة خروجك من غرفة النوم. ستقول لهم: هذه المرأة لم تعد تلك التي تزوجتها منذ أكثر من ثلاثين سنة. هي امرأة أخرى، لا أعرفها! وجدتها بالمصادفة في بيتي، لم يبق شيئاً مشتركاً بيني وبينها. سأعترف لهم: لم أعد أستطيع العيش مع الجن والشياطين والملائكة التي ساقتهم بصلواتها إلى هذا البيت، بعد أن جعلت منه جامعاً. لا أراها إلا وهي تغلق الباب على نفسها، وتذهب.. لا أعرف إلى أين؟ أإلى صلاتها، أم إلى الاجتماع بجنها وشياطينها، ليتجاذبوا أحاديث الهداية إلى الدين الحق؟ أم إنها تحاول أن تغري الملائكة كي يحدثوها عن الجنة التي هناك؟

لا أعرف متى غرقت في النوم، وعندما استيقظت شعرت بجسدي كله مضعضعاً، متيبساً، حتى إنني لم أستطع القيام. ظللت لدقائق أحاول الجلوس على طرف الأريكة دون أن أستطيع تحريك جسدي بعد أن صلبتّه وجعلت منه قالباً، لأنني كنت لا أستطيع تحريك أعضائي دون الإحساس بألم حارق في العمود الفقري، ولوحيْ كتفيّ. قضيت ساعات الليل، أنام وأستيقظ، اتقلّب على جانبيّ كثيراً، ثم أفوم قليلاً، وفي نومي رأيت، كوابيس، حتى الحلم الوحيد الذي رأيته كان موشحاً بالسواد، ومن الغريب، أن معظم ما رأيته في المنام، كان من أيام

طفولتي، وصدر شبابي. كان عن سنوات عمري الذي لم يكن قد تخطيت فيه العشرين، ومن بينها كان لقائي الأول بزوجتي قبل الزواج.

كنت قبيل لجوئي إلى الفراش، أحس برغبة شديدة إلى النوم، كنت أظن ما إن أضع رأسي على الوسادة حتى أغرق مباشرة في النوم، إلا أن عكس ذلك كان يحدث. أتقلّب طويلاً، أناقش أموراً كثيرة دون أن أكمل أياً منها. كانت دائماً تبقى مبتورة. أنتقل من أمر إلى آخر قبل أن أنتهي من الذي سبقه. أضيع بينها، أقاتل، أتشاجر مع نفسي، ومع زوجتي، ومع هذا الصديق أو ذاك.. ولكن، أكثر الناس الذين كنت أتشاجر معهم، هو نفسي! أسخر منها بشدة، أو أقول لها: هل تذكرين كذا وكذا؟ تستغرب نفسي مني، ثم تجيبني: لا. لا أتذكر.. أضحك منها، وأقول: طبعاً لن تتذكري، لأن عطباً أصابك منذ اللحظة التي رأيت فيها زوجتك في صلاتها المتأخرة. تجيبني نفسي: لا. لست معطوباً. كل ما في الأمر، خذ ما رأيته شأناً خاصاً..

قاطعتها: ومن قال لك لم آخذ الأمر كما أخذته أنت؟ المشكلة ليست هنا، المشكلة لم أعد أستطيع التواصل، لقد سلكت طريقاً غير طريقي في الحياة. يمكن أن تقول لي ببساطة: انفصل عنها، ودعها لتسير في الطريق الذي تريد، وتابع أنت طريقك. أقول: يا ليت لو كان الأمر بهذه البساطة لقررت ذلك. ولكن الأمور، بالنسبة لي، أعقد من هذا. لدي

أولاد.. كيف يمكن لي أن أمزقهم ما بيني وبينها؟ قالت: هي التي مزقت ولست أنت، هم يعرفون ذلك..

لا أصل إلى نتيجة حاسمة في حواري مع نفسي. أظل أفكر بحل لا يؤذي أولادي. ولكنني لا أصل.. نعم لا أصل. كما حدث لي ذات يوم، وكنت في الخامسة عشرة من العمر. كان خالي الصغير في زيارة. كان قلقاً، يفكر، وعلى وجهه حزن لم أره أبداً على وجهه، لم اره في يوم من الأيام في هذا الوضع. لم يكن أبداً يعرف الصمت في مثل هذه الأحوال، أو شارداً يفكر بأمر ما، لم أره إلا وهو يضحك، ويمزح، ويتكلم سارداً بعض الحكايات التي حملها معه من القرية عن أهلها. كان دائماً يحاول أن يُضحك والدتي التي نادراً ما ضحكت. كانت تملك وجهاً من تلك الوجوه التي لا تعرف سوى الحزن.. الحزن الأبدي، كما يقولون. كان يحاول بكل الوسائل أن يدفعها للضحك، وعندما تضحك، كان يقول لها: والله العظيم، عندما تضحكين تصبحين أجمل. اضحكي يا أختي. الدنيا لا تساوي قشرة بصلة.

طبعاً استغربت عندما رأيته في تلك الحال. ولكن الأمر لم يستمر طويلاً حتى عرفت أسباب حزنه وقلقه وشروده. كان عاشقاً لفتاة لم يوافق أهلها على الزواج منه. كان قد لاحقها من القرية إلى المدينة، كانت

برفقة أهلها، جاؤوا لأجل تجهيزها للزواج من شاب آخر، ومن قرية أخرى..

عرفت فيما بعد حالة الفشل التي لازمت خالي في أن يخطف الفتاة ويهرب إلى مكان ما في هذا العالم، ليعلنا زواجهما وحبهما لكل الناس. فشل خالي في مشروعه هذا. رأيته وهو جالس إلى أخته/ أمي. رأيت دمعة قد يبست على خده، ولمعة في عينيه، سمعته يقول: لو كان الله مع الحب، مع الناس الذين يحبون، لما ترك "بنفسج" في هذه الحال. لكان أوحى إلى والدها أن هناك شاب يحبها وتحبه، عليهما أن يتزوجا. كان على الله أن يأمر والدها بضرورة الزواج من بعضهما. كان على الله أن يخبر والدها، ويقول له: لا تكسر قلب ابنتك. المال وحده لا يجلب السعادة.

طبعاً تحدث كثيراً عن هذا الأمر، إلا أنني لم استوعب تفاصيل قصة حبه، ولم أعرف سوى أنه وفتاة ما أحبا بعضهما، لكنهما لأسباب ما، لا أعرفها، لم يستطيعا الزواج. هذا الذي عرفته. أما أنا فمنذ ذلك اليوم ألقيت على الله العتب، عتب الناس الذين لا يحقق لهم ما يريدون، وما يريدونه حب، وحق، وخير.. منذ ذلك اليوم باتت صورة الله غير جلية في نفسي، صورة غامضة.

وما أذكره اليوم عن خالي، أصبح إنساناً آخر، حزيناً، غير مبال، لا يعرف الحياة إلا في أضيق صورة لها، وأضيق الطرق التي يمكن للمرء أن يسير فيها. لقد مات في الحياة على الرغم من أنه كان مقيداً عليها. وكنت، ذات يوم، قد حدّثت زوجتي عن خالي وحكاية حبه، فكان جوابها سريعاً، دون أن تفكر حتى بالموضوع ولو لدقائق، فقالت جازمة: لا أعتقد بأن سبب ما وصل إليه خالك له علاقة بقصة حبه، إنما هناك أمر آخر أكثر ضراوة وعنفاً! يمكن لأنه لم يستطع أن يُخرج هذا العنف منفسه، فراح يتآكله من الداخل. أما قصة حبه، فأعتقد لم تكن سوى الإطار الخارجي لها.

لم أُعيد النقاش مع زوجتي حول موضوع خالي، لأنها، لم تكن تعرف تفاصيل حياته، أجابت إجابة سريعة، ومن غير دراسة ولا تفكير بنتائجها. وما يمكن أن يترتب عليها.

ذات يوم، وأنا أستعد للذهاب إلى تأدية خدمة العلم الإلزامية، وكان عليّ في الصباح أن أنطلق من البيت إلى مكان التجمع الذي طلبوا منا الذهاب إليه، لنقلنا بالباصات إلى القطاعات التي فرزنا إليها، في تلك الليلة سهر خالي معي طويلاً، حدثني عن الجيش كثيراً، فقد كان محترفاً في صفوفه. حدثني طويلاً عن جمال الحياة في الجيش، على الرغم من مصاعبها وقسوتها، وفي بعض الأحيان ظلمها. لا تستغرب إن وقع ظلم

عليك، عليك أن تعرف، كيلا تقع في مشكلات جانبية، وغير ضرورية، هو ألّا تدقق في أمور عيشها، عش كما هي الحياة فيها، لا تحاول أن تسعى لدى هذا أو ذاك من أجل مكاسب ما، لأنك لو حصلت على المكاسب بهذه الطريقة، أو تلك، ستدفع ثمنها للذين استطعت الحصول عبرهم على هكذا حياة.

ثم أضاف: هي مرحلة مؤقتة، وأنت مجبر أن تعيشها. ثم نصحني فقال: أمراً واحداً ابتعد عنه، هو الدين! أقصد مناقشة القضايا الدينية، لأنك ستجد نفسك بين مئات الجنود والضباط، قد تجدهم على أكثر من دين، ومذهب، وطائفة. أهمل هذا الموضوع تماماً، ولا تقترب منه. اترك دينك هنا، قبل أن تلتحق بصفوف الجيش، سترتاح جداً.

لا أدري لماذا أردت أن أناقشه في هذا الموضوع، دون المواضيع الأخرى. كنت أود أن أسأله، لماذا؟

كان قد مضى على خدمتي أكثر من سنة، وذات يوم، كان قطاعنا في وضع استنفار عام على الحدود. وكان الجنود، من أنواع الأسلحة كافة، يتحدثون عن حرب وشيكة. كان الخوف هو سيد الموقف، يتجول بين الخنادق و"البلوكوسات" الأسمنتية. وفي الليل كان القلق والحذر هما

السائدان، ومع ذلك لم يمنعنا من السهر، وقص القصص عن الأهل والأقرباء، وسرد حكايات الحب والزواج، وأحياناً عن ألم الفقر والعوز. لم أكن أعلم أن هذا الجمع من الجنود، هو أيضاً جمع من الأديان، والمذاهب، والطوائف. كلٌ جاء من مكان. قرية ما، ومدينة.. ولعل الخوف من الموت، في تلك الليلة، كان المحرك الرئيسي لكل القصص التي سردها الجنود، وكان عبد المجيد هو البادي في ذلك. عبد المجيد هذا كان حكواتي قطعتنا، فمنذ اليوم الأول الذي وصل فيها إلى القطاع الشمالي من الجبهة السورية - الإسرائيلية، وقد جاء متخلفاً عن الموعد الذي سافرنا فيه بأكثر من أسبوع، قال كلاماً أثناء التحقيق معه عن سبب تأخره، لم يقنع لجنة التحقيق فسجن شهراً كاملاً..

كان يضحك ويقول لنا: يا أولاد الحرام ستتسرحون قبلي بشهر كامل. سأبقى مثل الكلب الجربان وحيداً لمدة شهر. وكان يضحك بعد ذلك. عبد المجيد كان بارعاً في سرد الحكايات والقصص، وخاصة تلك التي تتعلق بالجن والشياطين والملائكة، ومرويات عذاب القبر بكافة أنواعه، حتى إنه كان يفصّل في درجات حرارة النار التي سيشوى فيها المذنب، وأيضاً درجات الماء المغلية.. كان يحدثنا من دون أن يرف له جفن، كما يقولون. ويتحدث عن عالم الغيب، وما يجري فيه للكفار والمشركين، والذين لم يلتزموا بالشريعة، ولم يؤدوا العبادات والعقائد.. وقد أخبرني

ذات يوم، عن ثروته هذه، أقصد حكاياته، وخرافاته التي كان يقصها علينا، من أجواء الوضع الديني لأسرته.

كانت ردود الأفعال متفاوتة بين من يستمعون إليه، إلى جانب أنه كان يملك طريقة وأسلوباً جذاباً في القص. كان، ما أن يبدأ قصته حتى يأسرك بأحداثها، فيشدك إليها حتى النهاية.

هنا تذكرت خالي، وهنا كان السؤال الذي كنت أريد أن أطرحه عليه، عندما قال: عليك ألا تناقش ما يعدُّونه مقدساً، حتى وإن كانت خرافة من خرافات الكتب، أو نصاً غير متماسك لغوياً، وإن جاء ضد ما تؤمن به، وخارج مصلحتك..

سأدع خالي، وكل القصص، والحكايات، والخرافات التي سمعتها في الجيش، وخاصة من أبناء الريف الذي كان متخلفاً في تلك الأيام، وأنتقل إلى ذاك اليوم الذي احتد النقاش ما بيني وبين زوجتي التي شعرت بالهزيمة بعد نقاش طويل حول موقف الدين من المرأة بالذات، والصورة التي يقدمها لنا، ككائن بيولوجي وككائن اجتماعي، والظلم الذي حط عليها في كتب الدين..

لم تتابع النقاش، انسحبت قائلة: اعتبرني إنسانة متخلفة، ولا أريد أن أناقشك في هذا الأمر، وأنا كامرأة راضية بما رسمته هذه الكتب لي.

أمام هذا الاعتراف ماذا يمكن لي أن أقول، وأعلق، حتى إن اشتم؟ فقلت لها محتداً: أنت لست متخلفة، لأن التخلف درجة دنيا في سلم الحضارة، يمكن، إن حاول الإنسان أن يعمل، سيرتقي السلم إلى الأعلى.. أما أنت، فلا تملكين عقلاً يفكر، تملكين عقلاً مغيباً، مسطحاً، تظنين بمجرد التفكير، وطرح الأسئلة، والنقاش ستكفرين. لذا أنت تلغين كل ملكات الإبداع التي تملكها المرأة.

ظلت تنظر إلي من دون أن تعلق..

ذلك اليوم، علمت بأنها اختارت طريقاً آخر أصبح من الصعب أن نلتقي بعد الآن.

وطوى الكتاب..

قبل أن يعود إلى البيت، قال لصاحبه المحامي، وكان يجلسان في المكتب، والساعة تقارب الواحدة ظهراً: لا أدري لماذا يهملون ما يسمى "الطلاق النفسي" ما بين الزوجين، فقد سمعت عنه قبل أن أختبره. في البداية لم أهتم بأمره كثيراً، لأنني في دخيلة نفسي لم أكن أعتقد بأن هناك شيئاً اسمه "الطلاق النفسي". الطلاق يعني أن يفترق الزوجان بعضهما عن بعض، ويذهب كل واحد منهما في طريق، بعد أن يمزقا العقد الذي ربطهما سنوات طويلة. وكنت قد سمعت، عن بعضهم، على أنه أشد قسوة من الطلاق المتعارف عليه. قال أحدهم يخبرني: تصور أن تعيش مع امرأة لم يعد يربطك بها شيء. لا فراش، ولا عاطفة، ولا كلام. على الرغم من أنكما تعيشان معاً في بيت واحد. حتى الأكل تفضل لو أنك تتناوله لوحدك. أن تنعزل في المطبخ، وتتناول طعامك وحيداً، بينما تعيش زوجتك في الغرفة التي تلاصق المطبخ.

ظل الصديق المحامي ينظر إليه، ما لبث أن قال، عندما توقف عن الكلام: لا شك أن مثل هذه الحال موجودة، وأستطيع أن أقول، بكثرة. ولكن السؤال، لماذا يرضى زوجان أن يعيشا هكذا حياة؟ لماذا لا

ينفصلان، ويذهب كل منهما في طريق، ويرسم لنفسه حياة أخرى مع إنسان آخر؟

أعتقد، تابع المحامي: يعود السبب إلى جملة من الأمور، ولعل أهمها الأولاد.. خاصة المرأة، فترضى بمثل هذه الحياة حفاظاً على أولادها. أما الرجل فله أسبابه الخاصة، عندما يختار العيش في هكذا وضع، فالرجل القادر على الزواج مرة ثانية، ويتزوج امرأة أخرى دون أن يطلق الأولى، فقد عرفت صديقاً عاش هذا الوضع من الطلاق، سألته: لماذا لا تتزوج؟

نظر إلي طويلاً، ثم قال: من أجل أولادي. لدي ولدان. لا أريد أن يتمزقا بيني وبين والدتهما. ولا أريد أن يقفان موقف العتاب والإدانة مني، لأنني تزوجت على والدتهما امرأة أخرى، أي إنني فضّلت نفسي عليهما. لقد فكرت طويلاً بهذا الأمر، إلا أنني اخترت عيش هذه الحالة من الطلاق على أن أخسر ولديّ.

لهذا، تابع الصديق: يبقي زوجته على ذمته، ولا يطلقها لأجل أولاده.

قال له: ولكن هذه ليست حياة. هذا جحيم.

هز الصديق رأسه موافقاً: نعم. وابتسم، وهو يتابع: يختار بعض الناس الجحيم، على جنة الله.

لم يعلق. ظل جامد الوجه، يفكر ويتصور هكذا حياة، قبل أن يدخل هو بذات نفسه هذه التجربة. في البداية عانى كثيراً منها، لكنه مع مرور الأيام، وطّن نفسه عليها، على أنه وحيد. لقد عانى في البداية بسبب أولاده الذين وجدوا أنفسهم في وضع غريب، غير مريح، غير مفهوم.. إلا أنهم مع مرور الأيام أقروا بالواقع، وعرفوا أن والدتهم اختارت طريقاً يختلف عن طريق والدهم الذي وجدوه عليه منذ أن كانوا صغاراً، وحاولوا أن يتعاملوا مع الوضع بحيادية، من دون إدانة أحد الطرفين بسبب ما آلت إليه حياتهما، فهما في الأخير، أب وأم لهم..

عندما خرج من مكتب صديقه المحامي، فضّل السير على الرغم من أن المسافة إلى بيته طويلة. سار، وهو يفكر بما يسمى بالطلاق النفسي، ويفكر إن كان له جوانبَ إيجابية كما أشار صديقه. حاول أن يقارن بين ما قاله صديقه، وما يفكر به. لم يستطع الجواب، لأنه قال مؤكداً لنفسه: لولا الأولاد لاتخذت الإجراء المنطقي والعقلاني، ألا وهو الطلاق والافتراق، وأن يسير كل واحد منهما في طريقه..

عند هذه القناعة كان قد وصل قريباً من بيته، فتخطى الشارع إلى الرصيف، وقريباً من باب المبنى، قبل أن يصله بعدة أمتار، رأى زوجته تخرج من المبنى لشأن من شؤونها، مرا بالقرب من بعضهما دون أن يكلّم أحدهما الآخر. مرا مثل غريبين.

دلف ممر المبنى الطويل، وما إن خطا خطوتين حتى شعر بشيء من البرودة اللطيفة تحيط به: يبدو أن الخريف جاء هذه السنة مبكراً..

عرج إلى اليمين وراح يصعد درج المبنى طابقاً وراء آخر حتى وصل إلى الثالث حيث بيته. أخرج المفتاح وأولجه في قفل الباب وراح يديره نحو اليمين مرتين، ثم كانت الطقة الثالثة.. دفع الباب ودخل إلى الممر، وسار باتجاه غرفة ولديه. كان باب الغرفة مفتوحاً، بينما كان ولداه، كل واحد منهما على سريره يحدق في الموبايل الخاص به.

حياهما، ثم سأل: اين والدتكما؟

أبعدا هاتفيهما عن وجهيهما، ونظرا إليه باستغراب، ثم قالا: ماذا؟ أليست في البيت؟

أجابهما: لا..

هزّا رأسيهما بأن لا علم لهما بالأمر.
تخطى غرفة ولديه متجهاً إلى غرفة ابنته، ميادة. كان الباب مغلقاً فدقه مرتين، وانتظر.. سمع صوت ابنته يقول: تفضل.

دفع الباب إلى آخره. كانت جالسة على الأريكة الوحيدة في غرفتها، بجانب سريرها. كانت تنظر إليه وتبتسم. فقال: مرحبا..

أجابته: هلا..

سألها: أين والدتك؟

أجابته: ألم ترها على الدرج؟ لأنها منذ دقائق، خرجت..

هز رأسه، ثم سأل: خرجت! إلى أين؟

أجابته، لا أدري بالضبط، ولكنها لمّحت بأنها ذاهبة لتحضر "مولداً دينياً" لدى صديقة قديمة لها، لم تقل اسمها. "مولد.." بمناسبة نجاح ابنة الصديقة وتخرجها من الجامعة.

ظل واقفاً، بعد أن صُدم بالخبر "مولد ديني"! هكذا علق على كلام ابنته ميادة، ثم انسحب، وهو يغلق الباب وراءه، متوجهاً إلى غرفة النوم، بعد أن تعطل عقله عن العمل تماماً، وفيها استبدل لباسه، وتوجه إلى غرفة المعيشة، ليقف في وسط الغرفة، ويحدق أمامه في النافذة، وهو غائب عما حوله تماماً.

حلب 2021- 2023

نيروز مالك

روائي وقاص سوري

ولد في عفرين -قضاء حلب عام 1946. تلقى تعليمه الابتدائي والاعدادي في حلب، تلقى تعليمه الفني في مركز الفنون التشكيلية في حلب وتخرج منه عام 1963. اشترك في المعارض الرسمية لغاية 1967

صدرله

قصص

حرب صغيرة (1979) قصص. (وزارة الثقافة: دمشق) .

كوب من الشاي البارد (1981) قصص. (اتحاد الكتاب العرب: دمشق) .

أحوال البلد (1982) قصص. (وزارة الثقافة: دمشق) .

كتاب الوطن (1983) قصص. (وزارة الثقافة: دمشق) .

المغامرة السابعة (1994) قصص. (دار الذاكرة: دمشق) .

ما رواه الجليل (1996) قصص. (اتحاد الكتاب العرب: دمشق) .

تلك الحكايات (1998) قصص. (دار الثقافة الوطنية: دمشق) .

باب خشبي قديم (2002) قصص. (وزارة الثقافة: دمشق) .

الليل كما هو (2017) قصص. (دار ميسلون: دمشق). ترجمة إلى النرويجية (2025). (SOLUM: أوسلو).

يوسف الجميل (2025) قصص. (دار ميزوبوتاميا: دمشق) .

روايات

الصدفة والبحر (1977) رواية. (اتحاد الكتاب العرب: دمشق) .

زهور كافكا (2000) رواية. (دار الإنماء الحضاري: حلب) .

جبل السيدة (2008) رواية. (دار نون4: حلب) .

فتى قيبار (2009) رواية. (وزارة الثقافة: دمشق) .

بوابة القصب (2010) رواية. (دار إنانا: دمشق) .

ميدان الزيزفون (2011) رواية. (دار نون4: حلب) .

تحت سماء الحرب (2015) رواية. (دار ببلومانيا: القاهرة). الترجمة الفرنسية بعنوان «متنزه حلب». (Le Serpent à Plumes: باريس). الترجمة السويدية (2016). (Tranan: ستوكهولم). الترجمة الألمانية، الطبعة الأولى (مارس 2017 والطبعة الثانية (مايو 2017). (Weidle: بون). الطبعة الفرنسية الشعبية (جيب) (2018). (L'Ecdysiaste: باريس). حازت جائزة Les Lorientales (2016)، وجائزة La Martinière التقديرية (2020).

ظلال الليالي (2017) رواية. (دار ببلومانيا: القاهرة). الترجمة الفرنسية (2020) بعنوان «الليالي القديمة». (Le Serpent à Plumes: باريس).

سنوات خمس (2020) رواية. (دار ببلومانيا: القاهرة) .

وقائع الحرب اليومية (2021) رواية. (دار ورد: عمّان) .

المنشية القديمة (2021) رواية. (دار آفا: سوريا) .

نصف قرن (2022) رواية. (دار ورد: عمّان) .

سيرة الملائكة (2023) رواية. (دار شيلر: دمشق) .

أحجاري الكريمة (2024) رواية. (دار هدوء: دمشق) .

وطوى الكتاب (2026) رواية (جدار للثقافة والنشر: الإسكندرية).

NOVEL

في هذه الرواية يعود نيروز مالك إلى الإنسان في أكثر لحظاته هشاشة، حين يعيد النظر في الحب، والإيمان، والسياسة، والعائلة، والذاكرة. ينصت إلى التحولات الصامتة التي تغيّر مصائر البشر.

تتجاور في «وطوى الكتاب» حكايات تبدو مستقلة، لكنها تنتظم في نسيج واحد، تتكرر فيه الشخصيات والهواجس والرحلات الداخلية، حتى تغدو المجموعة أقرب إلى رواية تتوزع على مرايا متعددة. يكتب المؤلف عن الإنسان السوري في عقود مضطربة من تاريخه، من غير أن يحوّل الحكاية إلى وثيقة أو خطاب، يترك للشخصيات كشف تناقضاتها، وللحياة اليومية قول ما تعجز عنه الشعارات.

يمتاز أسلوب نيروز مالك بهدوئه وثقته بالسرد؛ يبني الذروة عبر التفاصيل، والذاكرة، والحوار، وتداخل الأزمنة، ليمنح القارئ شعوراً بأنه يصغي إلى اعتراف طويل.

عنوان المجموعة خاتمة القصص ومفتاح لقراءتها كلها. فحين «يُطوى الكتاب» لا تنتهي الرواية، وإنما تبقى مفتوحة في ذاكرة القارئ، شاهدة على رحلة إنسان ظل يبحث، وسط تقلبات الحياة، عن معنى يمنح وجوده شيئاً من الطمأنينة.

NIROZ MALEK

FOLDING THE BOOK

9 781291 582550

Jidar
Culture & Publishing